موسوعة

تاريخ الأقباط

الجزء السادس

تأليف

زكي شنودة

المحامي

الطبعة الأولى

١٩٦٧

موسوعة

تاريخ الأقباط

الجزء السادس

تأليف

زكي شنودة

المحامي

الطبعة الأولى

١٩٦٧

مقدمة

للدكتور سامى جبرة

أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم بجامعة القاهرة
ومدير معهد الآثار المصرية ونائب رئيس المجمع العلمى سابقا
ومدير معهد الدراسات القبطية

لا يسعنى إلا أن أبدى تقديرى وإعجابى وغبطتى بالمجهود الرائع الذى بذله الأستاذ زكى شنوده المحامى فى تأليف هذه الموسوعة الضخمة عن تاريخ الأقباط ، وهو تراث كنا فى أشد الحاجة إلى تدوينه وتسجيل ما يتضمنه من آيات الجهاد والمجد طوال عشرين قرناً من الزمان .

وفى هذا الجزء السادس الذى خصصه المؤلف للكلام عن الدولة الرومانية ودورها الذى قامت به عند ظهور المسيحية فى العالم على العموم وفى مصر على الخصوص ، يتابع المؤلف دراسته العميقة بأسلوبه الواضح وتعبيره الدقيق فى منطق متين وإيجاز محكم إختص بهما رجال القانون والقضاء . وهو يرسم صورة واضحة الملامح المجتمع الرومانى منذ نشأة روما إلى عهد نيرون ، فيمهد بذلك

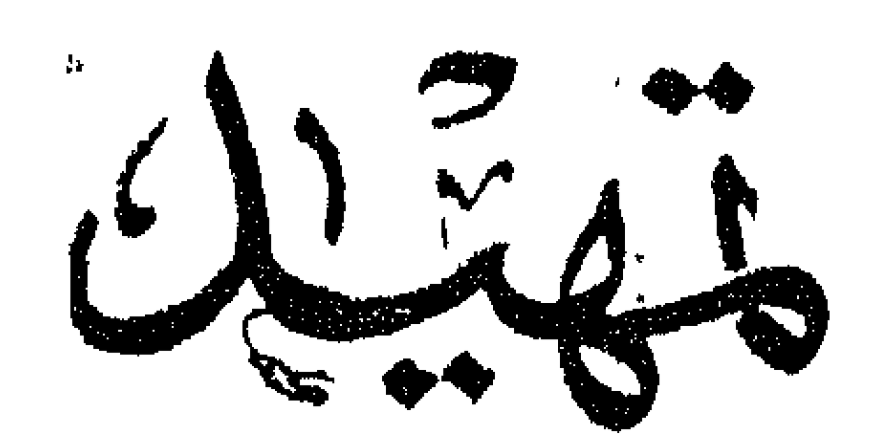
تمهيداً بارعاً لدراسة العصر المسيحى فى العالم وفى مصر، ويوضح الفرق الشاسع بين العالم المظلم الموحش الذى كان قائماً فى ظل الإمبراطورية الرومانية قبل مجىء السيد المسيح ، وما انطوت عليه التعاليم المسيحية من نور وسماحة وإشراق ، ولاسيما فى ظل الكنيسة القبطية التى أسسها مرقس الرسول فى مصر ، فأقبل المصريون عليها وقد اقتنعوا بتعاليمها التى كانت أذهانهم مهيأة لها بما انطوت عليه تقاليدهم العريقة من إيمان بالله ورحمته ورعايته للبشر ، واعتقاد راسخ بأزلية الحق والعدل والإخاء الإنسانى وكل ما انطوت عليه قلوب قدماء المصريين من أمانة وصدق وإخلاص وتضحية ، وإيمان بالحياة الأبدية التى يكافأ فيها الأخيار ويعاقب الأشرار . ولذلك فإنهم حين اعتنقوا المسيحية أخلصوا لها وصبروا على ما لاقوه فى سبيلها من اضطهاد وعنت ، وصمدوا أمام كل ما جابهتهم به الدولة الرومانية بسببها من ألوان العذاب والتنكيل ، حتى استطاعت المسيحية فى النهاية أن تنتصر على تلك الدولة الجبارة وتخضعها لسلطانها ، ومن ثم فإن أباطرتها الذين كانوا ألد أعداء المسيحية أصبحوا هم فرسان المسيحية والمدافعون عنها .

ذلك أن الدولة الرومانية ، رغم أنها كانت صاحبة الفضل فى بناء العالم الأوروبى بما وضعته له من أنظمة وقوانين ، وما حققته فى ربوعه من سلام ، ورغم أن بعض أباطرتها كانوا مصلحين من أمثال أدريان ومارك أوريل ، وأن بعض فلاسفتها كانوا حكماء من أمثال سينيكا ، فقد كانت هذه الدولة — بسبب البيئة التى نشأت فيها ، وما كان يكتنفها من قسوة الطبيعة وكثرة الأعداء — تضم شعباً بدائياً خشناً فظ الطباع يميل إلى القسوة والعنف ويهتز طربا فى احتفالاته وأعياده حين يرى دماء الضحايا تسيل فى حلبات المصارعة ، وكانت ديانة الرومان ذاتها تقوم على أسس مادية محضة تفتقر إلى الروحانية والسمو ، فكانت العلاقة بينهم

وبين آلهتهم لاتخرج عن أن تكون علاقة منافع متبادلة ، فهم يقدمون القرابين والهدايا إلى الآلهة ، وعلى الآلهة فى نظير ذلك أن تستجيب لمطالبهم ، فإن لم تفعل غضبوا عليها واتهموها بالخديعة والغش . ولذلك نشب الصراع بين هذه الطبيعة الرومانية الفظة المادية ، وبين الديانة المسيحية وما تنطوى عليه من نبل وروحانية وسمو . ومن ثم بذل المؤلف مجهوداً عظيما وخصص جانباً كبيراً من هذا الجزء من موسوعته لدراسة المجتمع الرومانى من كافة نواحيه السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها ، ليتمكن من تحليل الأسباب التى أدت إلى ذلك الصراع بين الدولة الرومانية والمسيحيين ولاسيما الأقباط فى مصر . فسلك بذلك السبيل الذى كان لابد أن يسلكه كل مؤرخ عميق البحث ، ملتزماً الأمانة والصدق .

وقد تناول المؤلف بالدراسة بعد ذلك حالة مصر فى بداية العصر الرومانى منذ أن فتحها الرومان إلى أن دخلها مرقس الرسول ، فصور حالة مصر فى تلك الفترة أدق تصوير ، وأثبت أن حضارة الأمم لا تموت فى أى ظرف من الظروف ، أو تحت أى ضغط من الضغوط ، وإنما هى تتطور وتنمو فى طريق الكمال . فلم تكن المحن التى قاساها الشعب المصرى فى ذلك العصر ، وماعاناه من أسباب الشك والقلق والتردد ، ليؤدى به إلى التخاذل والانهيار ، وإنما تحدى عاديات الزمن واحتفظ بمكاسبه الحضارية والثقافية على مر العصور ، وحافظ على كل مقومات عنصره العريق . وهكذا ربط الأستاذ زكي شنوده المحامي بين ماضى الأقباط وحاضرهم ، قبل المسيحية وبعدها ، فكان أميناً فى أداء رسالته ، صادقاً فى التصوير ، دقيقاً فى التعبير ، باسلا فى ذلك المجهود المضنى الذى بذله ، والذي يستحق الاشادة به والشكر عليه .

سامى جبرة



تمهيد

لما كان الأقباط هم أبناء قدماء المصريين ، فقد كان ينبغى - قبل أن نشرع فى دراسة تاريخ الأقباط - أن ندرس تاريخ قدماء المصريين دراسة وافية واضحة ، حتى يمكننا بعد ذلك أن نفهم تاريخ الأقباط فهماً دقيقاً عميقا ، يستند فى كل نتيجة إلى مقدمتها ، وفى كل ظاهرة إلى أصلها الأول وأساسها الصحيح .

ولذلك خصصنا الجزء الثالث من هذه الموسوعة لدراسة نشأة قدماء المصريين ومظاهر الحضارة المصرية القديمة . وخصصنا الجزء الرابع لدراسة العصر الفرعونى . ثم خصصنا الجزء الخامس لدراسة العصر اليونانى . وبانتهاء هذا العصر الأخير نسكون قد انتهينا من دراستنا للفترة السابقة على مجىء السيد المسيح ، ومهدنا بذلك لدراسة الفترة التالية التى خضعت فيها مصر للدولة الرومانية واعتنق أبناؤها الديانة المسيحية ، فبدأ بذلك تاريخ الأقباط .

وقد استولت الدولة الرومانية على مصر فى العام الثلاثين قبل الميلاد على يد الإمبراطور الرومانى أغسطس قيصر . وفى عهد هذا الإمبراطور ولد السيد المسيح فى فلسطين . ثم في عهد الإمبراطور الذى تلاه وهو طيباريوس قيصر أعلن السيد المسيح رسالته فقبض اليهود عليه وصلبوه ، وبعد قيامته خرج تلاميذه ليبشروا بديانته فى كل أنحاء الأرض . وفى العام الستين بعد الميلاد ، أثناء حكم الإمبراطور

الروماني نيرون جاء مرقس الرسول إلى مصر ، وأسس فيها الكنيسة القبطية .
وإذ كانت هذه الأحداث كلها قد وقعت في ظل الدولة الرومانية ، وكان للرومان فيها دور كبير ، تقتضينا دراستنا لتاريخ الأقباط أن نمهد لها بنبذة عن تاريخ الدولة الرومانية على العموم ، وعن حكمها لمصر على الخصوص .

وذلك أن الدولة الرومانية حين ظهور المسيحية كانت تمثل السلطة المتحكمة في العالم ، والقابضة على زمام شعوبه ، وكانت تتمثل فيها الشرائع الدينية والدنيوية التي تلتزم بها تلك الشعوب وتخضع لما تنطوى عليه من مبادىء وعقائد وتقاليد . فحتى نفهم رسالة المسيحية التي هي عقيدة الأقباط وحجر الزاوية في تاريخهم ، ينبغي أن نفهم قبل ذلك طبيعة هذه الدولة ، ونعرف كيف نشأت وكيف قويت حتى أخضعت كل ممالك الأرض ، وما هي الأسس السياسية والاجتماعية والدينية والأخلاقية التي قامت عليها ، وما هي صفات أباطرتها وطبائع شعبها ومقومات حياتها ، لأننا بذلك وحده يمكننا أن ندرك لماذا كانت المسيحية ضرورية للعالم في ذلك الحين ، ولماذا كان ذلك الدين الجديد يومئذاك بمثابة طوق النجاة للإنسانية التي كادت أن تغرق ، وبمثابة الإسعاف السريع للإنسان الذي أحدق به الهلاك وكاد أن يموت . فعلى قدر ما نلمس من طغيان الدولة الرومانية ووحشيتها وانحلال مبادئها وانحطاط أخلاقها وانغماسها في الشهوات وإيغالها في الشرور ، على قدر ما ندرك سمو المسيحية وسماحتها ورحمتها وعدالتها وطهارتها وثورتها على الظلم والظالمين ، وعلى الإثم والآثمين . وعلى قدر ما نتعمق في دراسة المجتمع الروماني الذي كان يسود العالم كله حين ظهور المسيحية ، على قدر ما نتعمق كذلك في فهم الانقلاب الذي أحدثه ذلك الدين الجديد في مفاهيم الحكم وأفهام الحاكمين والمحكومين . ولا شك أن أثر هذا الانقلاب قد انعكس على المجتمع

فى مصر كما انعكس على المجتمع فى كل أنحاء العالم . وقد كان له من النتائج فى تشكيل الحياة المصرية مايدعونا لأن نضعه فى المقام الأول من اهتمامنا ، وأن نفسح له القدر الأكبر من دراستنا . ولذلك خصصنا الباب الأول من هذا الجزء السادس من الموسوعة للكلام عن نشأة الدولة الرومانية ومظاهر حضارتها . وقد أتينا فيه بنبذة موجزة عن أصل الرومان وقيام روما ومراحل اتساعها وإخضاعها لشعوب إيطاليا ثم لشعوب العالم كله ، حتى أصبحت امبراطورية من أضخم امبراطوريات التاريخ . ثم أتينا بنبذة موجزة كذلك عن الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية لدى الرومان فى العصر السابق على المسيح ، مقتصرين على إيراد الحقائق التى تعنينا فى دراستنا ، والتى سنعود إلى الإستناد إليها أو الاستشهاد بها فى الأجزاء التالية من هذه الموسوعة . ولذلك اضطررنا اضطراراً إلى ذكر بعض التصرفات الشائنة والتفصيلات المخجلة فى حياة زعماء الرومان وأباطرتهم ، لنرسم بذلك صورة دقيقة صادقة — مهما تكن فاسقة — للمجتمع الرومانى فى ذلك العصر ، وللبيئة التى كان الرومان يعيشون فيها ، والطريقة التى كانوا يحكمون العالم بها .

حتى إذا استوفينا فى الباب الأول كل ما يلزم لموضوعنا من معلومات عن الدولة الرومانية ، تناولنا بالدراسة فى الباب الثانى حالة مصر تحت حكم الرومان منذ أن فتحها أغسطس إلى أن دخلها مرقس الرسول فى عهد نيرون . وإذ كانت مصر فى ذلك الحين خاضعة للامبراطور الرومانى خضوعاً مباشراً ، حتى تكاد أن تكون من أملاكه الخاصة ، أسهبنا فى الكلام عن كل من حكموها من الأباطرة فى تلك الفترة ، وما سجله التاريخ عن أخلاقهم وطبائعهم ونزعاتهم ونزواتهم ، لأن ذلك كله قد انعكس على الصورة التى حكموا بها مصر ، وعاملوا

بها المصريين . ثم تكلمنا عن النظم التي وضعوها للسيطرة على البلاد واستغلال مواردها واستعباد أبنائها ، ولاسيما من النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية والمالية والقضائية ، وتكلمنا عن الحياة الاجتماعية التي كانت تسود مصر حينذاك ، وما نشب فيها من معارك عنيفة بين اليهود واليونان ، ومن ثورات عاتية أضرمها المصريون ضد الرومان ، عاملين على طردهم ، كما عملوا من قبل على طرد كل الغزاة والغاصبين . وتكلمنا عن العقائد الدينية التي كان يعتنقها المصريون وغيرهم من الطوائف المقيمة بمصر . ثم تكلمنا أخيراً عن الحياة الثقافية التي شملت البلاد من آداب وعلوم وفنون . وبذلك أصبحت لدينا صورة كاملة وشاملة للمجتمع المصري في الفترة بين دخول الرومان ودخول المسيحية في مصر ، وقد كانت هذه هي الصورة التي رآها مرقس الرسول حين جاء ليبشر المصريين بيسوع المسيح ، فأضاف إليها صرحاً جديداً مجيداً هو الكنيسة القبطية التي وضع أساسها ثم استشهد في سبيلها ، فلم تفتأ من بعده يرتفع بنيانها ويتسع كيانها حتى شملت القطر كله ، وظلت راسخة الأصل شامخة الأركان على مر الزمان .


العصر الروماني

الباب الأول

نشأة الرومان وحضارتهم

الفصل الأول

أصل الرومان وقيام الدولة الرومانية

البحث الأول

أصل الرومان

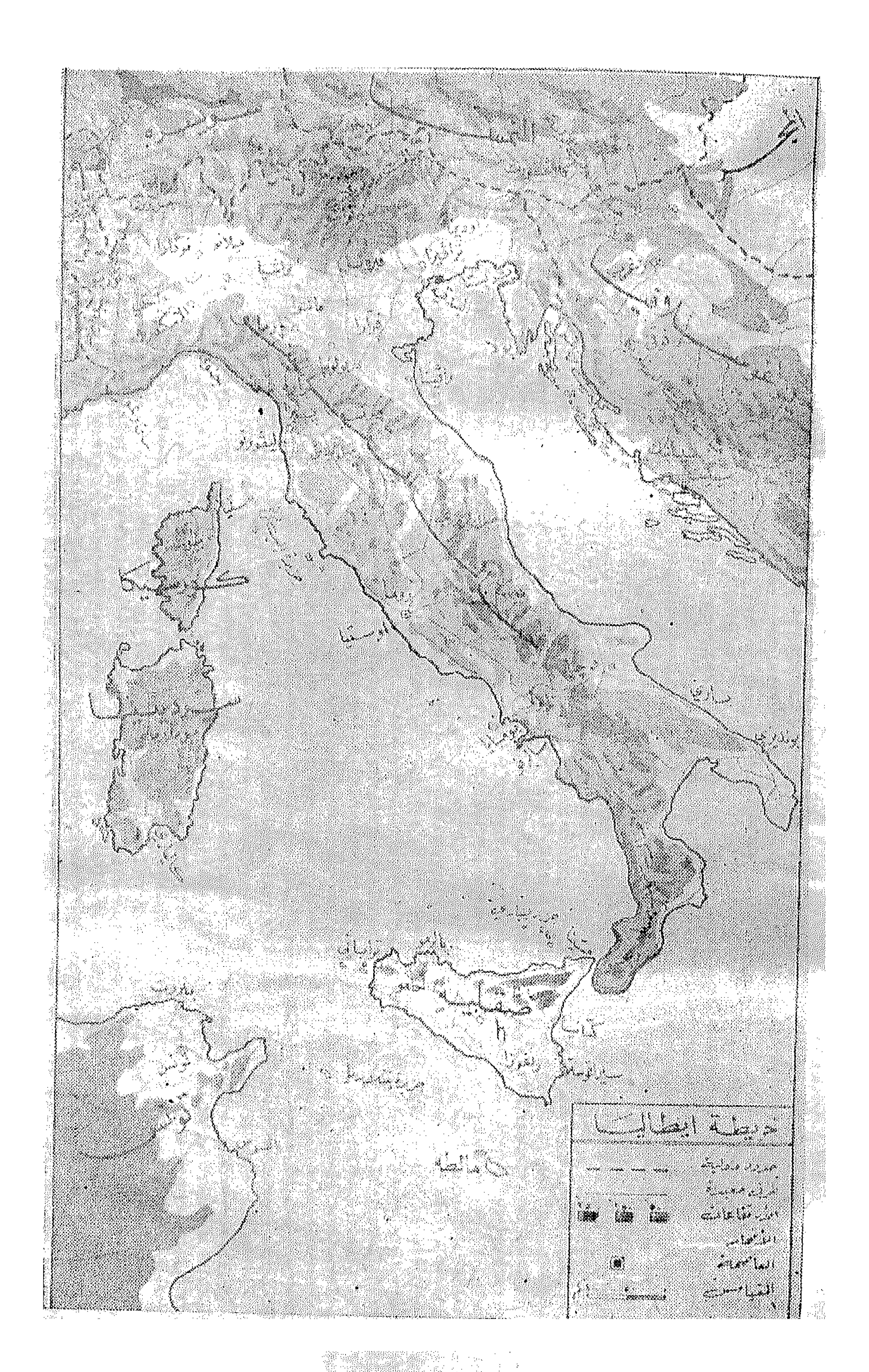
تعترض البحر الأبيض المتوسط فى منتصفه شبه جزيرة إيطاليا ، وهي مستطيل عظيم من الأرض ، يتفرع من قارة أوربا ، متجهاً نحو الجنوب ، كأنه الساق التى تنتهى بمـا يشبه القدم . وقد أحاط به من الشرق البحر الأدرياتى ، ومن الغرب البحر التيرانى . وتمتد على طول شبه الجزيرة سلسلة جبال الأبنين إمتداد العمود الفقرى من جسم الإنسان ، ثم تنعطف عند طرفها الشمالى إلى الغرب موازية جبال الألب . وقد انهمرت من أعاليها مجموعة من الأنهار تنحدر مسرعة لتصب فى خلجان البحر ، ومن أهمها نهر البو الذى يشق الوادى الخصيب الواقع بين جبال الأبنين وجبال الألب ، متجهاً نحو الشرق ليصب عند الطرف الشمالى للبحر الأدرياتى . وكذلك نهر التيبر الذى يجرى فى الجزء الأوسط من غرب شبه الجزيرة ليصب فى البحر الأبيض . وتقع جزيرة صقلية عند الطرف الجنوبى من شبه الجزيرة . كما تقع جزيرتا سردينيا وكورسيكا فى موازاة شاطئها الغربى . أما شاطئها الشرقى فيطل على بلاد اليونان .

وكان يعيش فى شبه الجزيرة الإيطالية منذ نحو ثلاثين ألف عام سكانهـا الأصليون ، وهم من جنس البحر الأبيض المتوسط . إلا أنه فى نحو عام ٢٠٠٠ قبل

الميلاد بدأت تغزو إيطاليا من أواسط أوروبا ووادى الدانوب قبائل من جنس آرى ، وقد أقام بعضها فى الأراضى المتاخمة للبحيرات الشمالية ، وهى التى تسمى قبائل البالافيتى ، كما أقام بعضها الآخر فى الأراضى المتوسطة الجافة وهى التى تسمى قبائل التاريمارى. حتى إذا جاء عام ١٠٠٠ قبل الميلاد كانت قبائل التاريمارى قد زحفت صوب الجنوب فملأت إيطاليا وتجاوزتها إلى صقلية ، ومنها نشأت بعد ذلك قبائل السامنيين والسابنيين واللاتين . ولم تلبث أن وفدت من وادى الدانوب إلى شمال شرقى إيطاليا قبائل آرية أخرى هى الفيلانوفا ، وهي التى نشأت منها بعد ذلك قبائل الأوسكى والأمبيرى . ثم فى نحو عام ٩٠٠ قبل الميلاد وفد الأتروريون على إيطاليا عبر البحر من آسيا الصغرى بعد انهيار إمبراطورية الحيثيين ، واستقروا فى الوادى الذى يقع شمال نهر التيبر، بعد أن أخضعوا سكانه من قبائل الفيلانوفا . ولم يلبثوا أن مدوا نطاق سيطرتهم إلى وادى البو ومنطقتى لاتيوم وكامبانيا ، وفى نحو عام ٧٦٠ قبل الميلاد بدأ اليونان يعبرون البحر إلى جنوب إيطاليا وصقلية واستقروا هناك ، ثم حاولوا التوغل فى شبه الجزيرة فصدهم الأتروريون ، كما حاولوا التوغل فى صقلية فصدهم الفينيقيون . ومن هذه القبائل كلها — بعد أن اندمجت في شعب واحد — نشأ الشعب الرومانى .

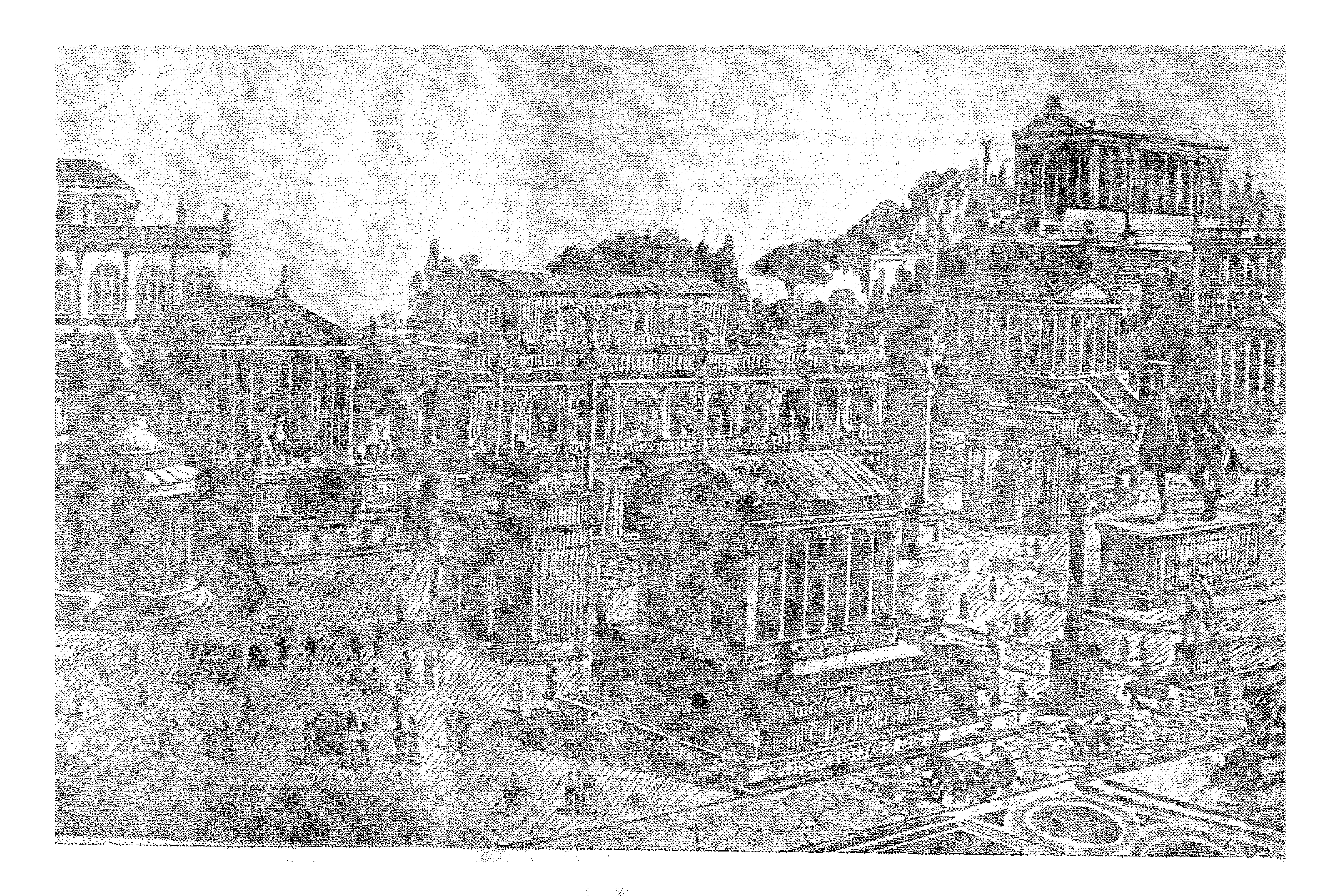
وقد أخذت إيطاليا اسمها — كما ذكر أرسطو — من اسم إيطالوس ملك صقلية ، الذى كان قد غزا مدينة أوينوتريا فى الجنوب الأقصى من شبه الجزيرة ، وسماها إيطاليا ثم أطلق اليونان هذا الإسم على شبه الجزيرة كلها .

وفى خلال القرن الثامن قبل الميلاد كان ثمة فى منطقة لاتيوم الواقعة بين نهر التيبر وخليج نابولى سبعة تلال ينتشر حولها عدد من القرى الزراعية التى كانت



« خريطة إيطاليا »

تقطنها بعض قبائل الأتروريين والسابنيين واللاتين . ولم تلبث هذه القرى أن تحالفت وأنشأت فيما بينها اتحاداً يسمى « السبتمينوم » . واتخذت لها مكاناً للاجتماع يسمى « الفوروم » . ثم لم يلبث هذا المكان المشترك أن تحول إلى مدينة صغيرة ، هى مدينة روما . ويذكر الكاتب القديم فارو أن روما أنشئت عام ٧٥٣ قبل الميلاد . وتزعم الأساطير أن الذى أنشأ روما هو « روميلوس » إبن « ريا سيلفيا » أميرة ألبالونجا التى أنجبته من الإله مارس ، والتى كان أبوها ملك ألبالونجا من سلالة إيناس إبن الإلهة فينوس ، وأحد أبطال طروادة . ولم تلبث روما أن اشتد ساعدها فراحت تعمل على توسيع مملكتها ، وبدأت تمد سلطانها وتخضع جيرانها حتى استولت على شبه الجزيرة كلها ، وأصبحت دولة عظيمة ، هى الدولة الرومانية التى كان لها في التاريخ شأن أى شأن .



« روما القديمة »

المبحث الثاني

قيام الدولة الرومانية

النظام الملكى

كان يحكم روما منذ نشأتها ملك من أهلها يتولى العرش بالانتخاب لا بالوراثة . وكانت تتولى السلطة إلى جانبه هيئتان ، إحداهما هى السناتو ، أى مجلس الشيوخ الروماني ، وكان يتألف من مائة عضو من الأشراف . والهيئة الأخرى هى الجمعية الشعبية ، وكانت تتألف من القبائل . وكان فى المملكة طبقتان اجتماعيتان متميزتان، إحداهما هى طبقة الأشراف ، والثانية هى طبقة العامة .

ثم استفحل أمر الأتروريين فزحفوا نحو الشمال والجنوب فى شبه الجزيرة ، وأنشأوا لهم مستعمرات فى كثير من أنحائها ولا سيما في فيرونا وبارما ومودينا وبولونيا ورافينا ، فما جاء عام ٦١٨ قبل الميلاد حتى كانوا قد استولوا على روما واغتصبوا عرشها وظلوا يسيطرون عليها أكثر من مائة عام ، حتى ثار الشعب على استبداد آخر ملوكهم وهو « تاركوينوس سوبريبوس » ، فخلعه عام ٥٠٨ قبل الميلاد ، وأقام بدل النظام الملكي نظاماً جمهورياً .

النظام الجمهورى

وكان دستور الجمهورية الرومانية عند إنشائها يقضى بانتخاب قنصلين كل عام ، يتمتع كل منهما بسلطة الملك كاملة . ويقوم مجلس الشيوخ بانتخابهما والإشراف على تصرفاتهما ، وبذلك أصبح مجلس الشيوخ هو صاحب النفوذ الأعلى فى البلاد ، وقد استأثر بالسلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية مجتمعة ، وزاد عدد أعضائه فأصبح يتألف من ثلاثمائة عضو من الأشراف . بينما ضعفت سلطة الجمعية الشعبية التى تمثل العامة حتى أصبحت صورية . ومن ثم ظل تاريخ روما نحو مائتين وخمسين عاماً بعد تأسيس الجمهورية يمثل — إلى جانب الحروب التوسعية — صراعاً عنيفاً بين طبقتى العامة والأشراف .

فتح ايطاليا

وكانت روما فى بداية عهد الجمهورية مدينة ضعيفة وسط إيطاليا التى كانت تتألف حينذاك من خليط من المدن والقبائل ذات الحكومات المستقلة واللهجات المتباينة : فكان فى شمالها الغاليون والسابنيون والأمبريون والأكويون والأتروريون . وكان فى جنوبها اللاتين والفلشيون والهرينشيون والسامنيون واللوكانيون والبريتانيون . وكان على شواطئها الجنوبية والغربية مستعمرون من اليونان يسيطرون على نابولى وبومبي وبستوم ولكرى ورجيوم وكروتونا ومثانيم وتارنتوم . ولم تلبث روما أن راحت تتطلع فيما حولها طامعة فى السيطرة على القبائل المحيطة بها ، وقد نجحت بالفعل فى إخضاع كثير منها . وكان أقوى أعدائها فى ذلك الحين هم الأتروريون ، فكانت لا تفتأ تشن الحرب عليهم ولكنها ظلت زمناً طويلا عاجزة عن إخضاعهم ، وكانت لهم على بضعة أميال

من روما قلعة حصينة هي مدينة « فياى » ، وقد حاولت روما مراراً عديدة أن تقتحمها ولكنها فشلت ، وعندئذ سارعت كثير من القبائل اللاتينية التي كانت روما قد أخضعتها إلى التمرد عليها ، تتزعمها تسكولوم وأرديا وأريسيا وتيبوز وغيرها من مدن لاتيوم ، وقامت هذه القبائل في عام ٤٩٦ قبل الميلاد بتكوين حلف لشن الحرب على روما . فلما رأت روما نفسها أمام هذا الحلف اللاتيني القوى أقامت عليها أول دكتاتور في تاريخها وهو « أولوس بوستوموس » ، وظلت في صراع مع هذا الحلف حتى عقدت معه بعد ثلاثين عاماً معاهدة سلم ، وانضمت إليه ، ثم أصبحت زعيمته ، ثم سيدته المسيطرة عليه . أما الأترووريون فقد حلت بهم منذ عام ٤٧٤ قبل الميلاد نكبة جائحة كسرت شوكتهم ، إذ دمر أهل سيراكوز أسطولهم ، وهبطت عليهم من الشمال موجة من المغيرين الغاليين قضت على ما تبقى من كيانهم .

وفي عام ٤٤٩ قبل الميلاد أغارت روما على السابنيين واحتلت بلادهم . ثم في عام ٤٠٥ قبل الميلاد قام نزاع عنيف بين روما ومدينة فياى للسيطرة على نهر التيبر ، وقد حاصرت روما هذه المدينة تسع سنوات . فانضمت مدن أترووريا إلى فياى ضد روما وهجمت عليها . ولكن روما هزمتها جميعاً واستولت على مدينة فياى ودمرتها ثم ضمت إليها جنوب أترووريا .

ثم لم يلبث أن نشب صراع عنيف بين روما وشعب آخر من أعتى الشعوب وأصلبها عوداً وهو شعب الغال . وقد كانت قبائل هذا الشعب فرعاً من السلالة الآرية القاطنة في البقاع التي تقوم عليها اليوم ألمانيا الغربية وفرنسا وبلجيكا وأسبانيا الوسطى وويلز واسكتلندة وأيرلندة ، وهي المسماة بقبائل السكات .

وقد غزت هذه القبائل أتروريا عام ٤٠٠ قبل الميلاد ونهبتها . ثم فى عام ٣٩٠ قبل الميلاد وصل ثلاثون ألفاً من محاربيها والتحموا بالرومان عند نهر آليا وهزموهم شر هزيمة ثم اقتحموا روما ونهبوها ، وظلوا يحتلونها سبعة أشهر ، ولم يغادروها إلا بعد أن دفعت إليهم غرامة قدرها ألف رطل من الذهب . غير أنهم لم يلبثوا أن عادوا يهاجمونها المرة بعد المرة ، ولكنها صدتهم فأقاموا بالمنطقة المتاخمة لجبال الألب فى شمال إيطاليا ، ومن ثم أصبحت تعرف ببلاد الغال الألبية . ولم يسع روما — كى تأمن غاراتهم عليها — إلا أن تعقد الصلح معهم ، وتتجنب التحرش بهم .

وبعد ذلك تعرضت روما لهجمات متوالية من جانب اللاتين والأكويين والهرنشيين والفلشيين ، مجتمعين أو متفرقين ، ولكن روما هزمتهم . كما أنها هزمت مدن الحلف اللاتينى عام ٣٤٠ قبل الميلاد ، ثم حلت هذا الحلف وضمت كل مدن لاتيوم إلى ممتلكاتها .

ثم خاضت روما بعد ذلك غمار صراع مرير مع القبائل السامنية القوية التى كانت تسيطر على منطقة تمتد من نابولى حتى البحر الأدرياتى ، وكانت قد استولت على معظم الأملاك الأترورية واليونانية الممتدة على الساحل الغربى لشبه الجزيرة . فاشتبكت روما معها فى ثلاث حروب طويلة طاحنة ، وانتصرت فى النهاية عليها ، وانتزعت كثيراً من أملاكها ولا سيما أمبريا وكمبانيا ، كما استردت منها أتروريا .

أما المدن اليونانية التى كانت فى جنوب إيطاليا فقد أنذرتها روما بالحرب إذا لم تعترف بزعامتها عليها ، فلم يسع هذه المدن إلا أن تستكين لها وتعترف بزعامتها .

وبذلك خضعت لروما كل المدن والقبائل المحيطة بها فى شبه الجزيرة الإيطالية . ومن ثم أصبحت روما — بعد حروب دامت قرنين كاملين من الزمان — سيدة إيطاليا كلها ، وأصبحت تسيطر على المناطق الممتدة من مقاطعات الغاليين المتاخمة لجبال الألب شمالا ، إلى المقاطعات اليونانية فى أقصى الجنوب . وقد صبغت روما كل هذه المناطق التى استولت عليها بصبغتها الرومانية ، وفرضت عليها لغتها ، وهى اللغة اللاتينية .

الحرب البونية الأولى

وقد أرادت روما بعد ذلك أن تمد سلطانها إلى خارج إيطاليا ، ومن ثم وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام قوة ضخمة كانت أعظم وأعرق منها ، وكانت تفرض سيادتها فى ذلك الحين على عالم البحر الأبيض المتوسط كله ، وتسد المسالك على إيطاليا فتتركها سجينة فى بحارها ، وتلك هى دولة قرطاجنة .

ذلك أن الفينيقيين الذين كانوا يقطنون الساحل السورى فى موضع لبنان الحالية ، ركبوا البحر قبل ذلك العهد بأكثر من ألف عام ، للاستكشاف والتجارة ، وتوغلوا فى رحلاتهم حتى بلغوا شواطىء أسبانيا ، ورأوا ما تزخر به أرضها من ثروة معدنية عظيمة ، فأنشأوا أسطولا ضخماً من السفن التجارية وراحوا يمخرون به عباب البحر الأبيض المتوسط ويجوبون كل شواطئه . ولم يلبثوا أن أنشأوا مراكز تجارية على ساحل أفريقيا الشمالى عند « ليبتيس ماجنا » و « هادر يمونتوم » و « بوتيك » و « هيبورجيوس » ثم عبروا مضيق جبل طارق وأقاموا مركزاً لهم فى « لكسوس » وهى طنجة الحالية . ثم فى عام ٨١٣ قبل الميلاد أقاموا مدينة قرطاجنة على شاطىء البحر الأبيض بالقرب من مدينة

تونس الحالية . ولم تلبث هذه المدينة أن ازدهرت وازدادت أهميتها حتى أصبحت أهم مراكز التجارة الفينيقية ، ثم تحولت إلى امبراطورية عظيمة تسيطر على تونس والجزائر ومراكش وكل البلاد الواقعة على السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط من « سيرينايكا » إلى جبل طارق ، كما استولت على معظم أسبانيا وجزائر البليار وماديرة ومالطة وسردينيا وكورسيكا والجزء الأكبر من صقلية ، وأصبح لها أسطول ضخم يكفل لها السيادة على البحر الأبيض المتوسط ، ويضم أضخم السفن الحربية التي لم يعرف العالم القديم لها مثيلا حتى ذلك الحين ، وهي السفن ذات الصفوف الخمسة من المجاذيف ، التي كانت تنقض على سفن الأعداء وتدقها دقاً بنتوء ضخم في مقدمتها يشبه رأس الكبش فتحطمها تحطيماً . ومن ثم كان لقرطاجنة من الهيبة وقوة البطش ما ملأ قلوب الدول الأخرى بالرهبة منها ، فكان مجلس الشيوخ الروماني يحسب لها ألف حساب . بيد أنه في ذات الوقت كان يرمق بعين الحسد مملكتها الواسعة وثروتها الضخمة ، وكان يتطلع إليها في جشع متربصاً لها ومترقباً الفرصة للوثوب عليها . إلا أنه ظل — إلى أن تحين هذه الفرصة — يتودد إليها ويتظاهر باكتساب صداقتها . وقد حدث أن بيروس ملك إيبيروس كان يطمع في الاستيلاء على المقاطعات اليونانية التي كانت في جنوب إيطاليا ، فغزا شبه الجزيرة وهزم الرومان ودفعهم شمالا ، ثم أراد أن يخضع صقلية فأغضب ذلك قرطاجنة لأنها كانت تسيطر على جانب من هذه الجزيرة ، ومن ثم سارعت روما إلى التحالف معها ضد بيروس ، وبذلك تمكنت من طرده من إيطاليا . إلا أنه لم يمض على هذا التحالف إحدى عشرة سنة حتى سنحت الفرصة التي كانت روما تترقبها للتنفيس عن حقدها وغيرتها من قرطاجنة واختلاق الأسباب اختلاقاً لمهاجمتها . إذ حدث في عام ٢٦٤ قبل الميلاد أن

كانت مدينة مسينا الواقعة على الشاطىء الشرقى لجزيرة صقلية تحت حكم هيرو ملك سيراكوز ، وقد هاجمها القراصنة واستولوا عليها ، فاستنجد هيرو بحليفته قرطاجنة ، فأرسلت إليه حامية تشد أزره ، وعندئذ هرع القراصنة إلى روما يلتمسون مساعدتها ، فما كان منها إلا أن استجابت لهم وأرسلت لنجدتهم حملة عسكرية بقيادة القنصل أبيوس كلوديوس . وهكذا وقع الصدام بين قرطاجنة وروما ، وبدأت بينهما سلسلة من الحروب الضارية استمرت أكثر من مائة عام ، وهي المعروفة بالحروب البونية . وكانت من أبشع حروب التاريخ وأكثرها قسوة ووحشية .

وقد نشبت الحرب البونية الأولى عام ٢٦٤ قبل الميلاد ، وكانت القوات القرطاجنية متفوقة على القوات الرومانية فهزمتها فى أول الأمر بفضل سفنها الضخمة . إلا أن الرومان لم يلبثوا أن سارعوا إلى بناء أسطول عظيم وهزموا القرطاجنيين فى موقعة إيكونوموس عام ٢٥٦ قبل الميلاد ، وتعتبر أعظم موقعة بحرية فى التاريخ القديم . ثم غزا الرومان أفريقيا واستولوا على تونس التى كانت على بعد عشرة أميال من قرطاجنة ، ولكنهم لم يلبثو أن التقوا بجيش قرطاجنى عظيم كاد أن يفنيهم ، ثم حطمت العاصفة أسطولهم وأغرقت ثمانين ألفاً من جنودهم ، وأسر القرطاجنيون قائدهم رجيولوس . إلا أن الرومان مع ذلك واصلوا هجومهم ، وأوقعوا الهزيمة فى عام ٢٥١ قبل الميلاد بالقائد القرطاجنى هازدروبال . ثم تمكنوا فى عام ٢٤١ قبل الميلاد من تحطيم الأسطول القرطاجنى فى جزر إيجاتيس ، فلم يسع قرطاجنة وقد حاقت بها الهزيمة إلا أن تطلب الصلح . وقد دفعت لروما غرامة فادحة ، واعترفت لها بالسيادة على صقلية .

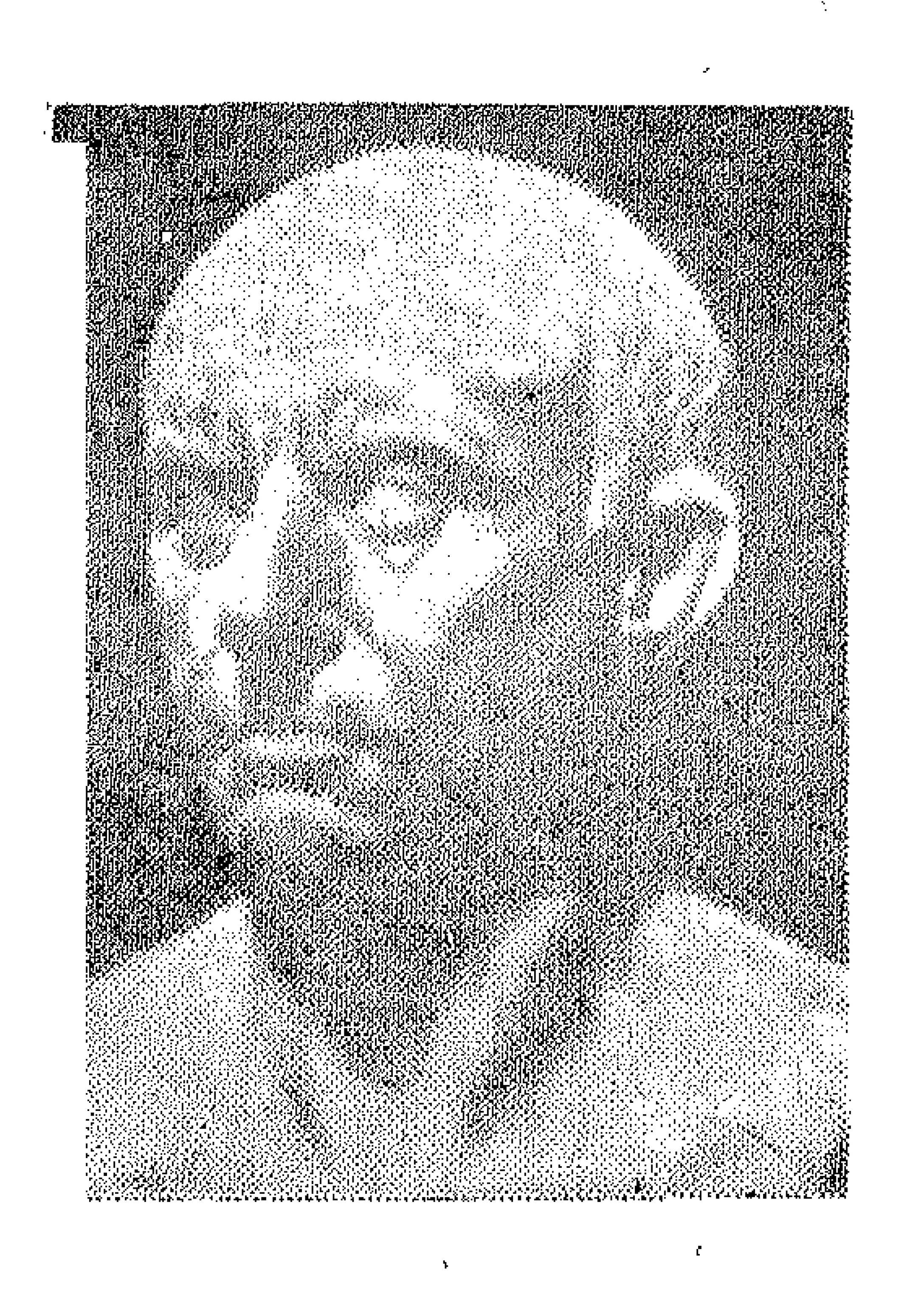
ولم تلبث روما أن انتهزت فرصة أخرى لتحقيق مطامعها التوسعية والسطو على ممتلكات قرطاجنة ، إذ ثار الجنود المرتزقة فى جيش قرطاجنة بسبب التأخر فى دفع مرتباتهم ، وحاصروا قرطاجنة ؛ فأسرع هاميلكار بتعبئة جيش من الأهالى وهاجم الثوار فارتدوا إلى الجبال واعتصموا بها ، حتى إذا عضهم الجوع أكلوا الأسرى القرطاجنيين ثم أكلوا عبيدهم ، وظلوا أكثر من ثلاث سنوات يشنون الغارات على قرطاجنة . فانتهز الرومان فرصة هذه المتاعب التي تعانيها قرطاجنة واغتصبوا منها جزيرة سردينيا ، حتى إذا احتجت قرطاجنة على هذا العدوان السافر والدنىء على ممتلكاتها أعلنوا الحرب عليها فاضطرت إلى طلب الصلح ، وقد أجبرها الرومان على التنازل عن سردينيا كما أجبروها على التنازل عن كورسيكا . ثم توقفت الحرب بين روما وقرطاجنة بعد ذلك الصلح الذى أذل قرطاجنة وقضى على قواتها وهيبتها .

اخضاع الغاليين

وفى عام ٢٢٥ قبل الميلاد تحركت أفواج عظيمة من الغاليين وتدفقت نحو الجنوب فى وادى نهر البو ، واجتاحت أتروريا ، ثم هددت روما ، فاستولى الفزع على الرومان ، واعتقدوا أن آلهتهم غاضبة عليهم ، ومن ثم ذبحوا عدداً كبيراً من الضحايا البشرية لإرضائها . ولم يلبثوا أن دحروا الغاليين وأبادوا أغلب قواتهم فى معركة تيلامون ، ثم طاردوا فلولهم حتى جبال الألب ، وأنشأوا مستعمرات اتخذوا منها قلاعاً في بلاكنتيا وكريمونا وموتينا بوادى نهر البو ومدوا سلطانهم جنوباً بحذاء ساحل البحر الأدرياتى حتى إلليريا فى البلقان .

الحرب البونية الثانية

وقد نجحت قرطاجنة فى مدة لا تتجاوز إثنين وعشرين عاماً منذ انتهاء الحرب البونية الأولى فى استرداد بعض قوتها ورفاهيتها ، وكان قائدها العظيم هاميلكار قد امتلأ بالمرارة من هزيمة قرطاجنة ، بيد أنه لم يستسلم لليأس ، وإنما اعتزم أن يرد الضربة لروما ، فذهب عام ٢٣٦ قبل الميلاد إلى أسبانيا ، وقد اعتزم أن



« كاتو »

يجعل منها قاعدة للهجوم على روما ، وراح هناك يجهز جيشاً لهذا الغرض ، ولكنه توفى عام ٢٢٩ قبل الميلاد فخلفه فى قيادة الجيش زوج إبنته هازدروبال ، ولكنه اغتيل بعد ثمانى سنوات ، فخلفه هانيبال أكبر أبناء هاميلكار . ومن ثم بدأت قرطاجنة تستعيد ثقتها بنفسها وتتطلع إلى استرداد مكانتها السابقة .

وفى هذه الأثناء ظهر زعيم من زعماء روما يسمى ماركوس بوركيوس كاتو ، وكان سياسياً محنكاً وخطيباً قديرا ، إلا أنه كان فظاً غليظ القلب . وقد حدث أن

زار قرطاجنة فحقد على ما شهده فيها من ازدهار ورفاهية رغم هزيمتها القريبة العهد ، ومن ثم راح يحرض الرومان ضد قرطاجنة ، واعتاد أن يختم كل خطاب له فى مجلس الشيوخ قائلا « لابد من تدمير قرطاجنة » . وقد أكلت الغيرة قلوب الرومان من استرداد قرطاجنة لقوتها فى أسبانيا ، إذ كانت قد أخضعت كل مناطقها إلى نهر أبرو شمالا . فراحت روما تتحرش بقرطاجنة وأنذرتها بعدم عبور



« هانيبال »

نهر أبرو وإلا اعتبرتها معتدية وأعلنت الحرب عليها . وفى ذات الوقت عمدت روما — لكى تقسر قرطاجنة على عبور النهر ومخالفة الإنذار — إلى الاعتداء مرة بعد الأخرى على ممتلكاتها جنوب النهر ، فلم يسع قرطاجنة آخر الأمر إلا أن تعبر بجيوشها النهر بقيادة هانيبال عام ٢١٨ قبل الميلاد ، وكان هانيبال وقتئذ فى السادسة والعشرين من عمره . وقد اعتزم أن يهاجم روما فى عقر دارها تنفيذاً للخطة التى كان أبوه قد رسمها من قبل ، ومن ثم عبر فرنسا وعمد فى جرأة ومغامرة إلى تسلق جبال الألب الوعرة ، فلم يلبث أن اجتازها بجيوشه وانحدر

إلى إيطاليا ، حتى وصل الى نهر البو ، وهنالك انضم اليه الغاليون الساخطون على روما فتقدم بمساعدتهم نحو الجنوب دون أن يلقى أى مقاومة . وكان تحت قيادته فى هذه الحملة جيش يتألف من خمسين ألفاً من المشاة وتسعة آلاف من الفرسان بقيادة قنصليها إيميليوس باولوس وكايوس فارو . إلا أن هانيبال إستطاع أن يستدرج هذا الجيش الرومانى الضخم حتى أوقعه فى كمين ، ثم أباد معظم رجاله عند كاناى وتراسيمين ، وقتل أحد قائديه وهو إيميليوس باولوس . أما القائد الثانى كايوس فارو فقد لاذ بالفرار . وعندئذ شعر الرومان بفداحة الخطر الذى يتهددهم فبادروا إلى تعيين كوينتوس فابيوس ماكسيموس دكتاتوراً عليهم ، وهو إجراء كانوا يلجأون إليه كلما وقعوا فى ضائقة شديدة ، ثم راحوا يعدون العدة لملاقاة الغزاة ، فعبأوا جيشاً ضخماً ، وقد تطوع للقتال عدد كبير من أعضاء مجلس الشيوخ . وكان هانيبال فى هذه الأثناء قد زحف شرقاً نحو البحر الأدرياتى ، حتى إذا بلغ شواطئه إتجه جنوباً بمحاذاة ساحل إيطاليا الشرقى ، فلما تصدى له الجيش الرومانى سارع بالانقضاض عليه وأصابه بضربة قاصمة فأهلك أربعة وأربعين ألفاً من رجاله ، وراح يطارد ما تبقى من فلوله . ومن ثم ارتفع نجم هانيبال ، واقترن اسمه بالرهبة والمهابة فى كل مكان إجتاحه بجيوشه ، وقد انضمت إليه كثير من الولايات الإيطالية ضد روما ، كما تحالف معه فيليب الخامس ملك مقدونيا وهيرونيموس ملك سيراكوز وأعلنا الحرب على روما ، فازدادت قوة هانيبال وراح ينزل بالرومان هزيمة بعد هزيمة وينتقل فى بلادهم من نصر إلى نصر . ومن ثم اعتقد مجلس الشيوخ الرومانى أن الآلهة غاضبة فأمر بذبح عدد كبير من الضحايا البشرية مرضاة لها ، كما أمر بدفن إثنين من الغاليين وإثنين من اليونان أحياء ، وعهد بقيادة الجيش إلى قائد شاب فى الرابعة والعشرين

من عمره هو سيبيو الذى أصبح معروفاً بعد ذلك بالأفريقى ، وقد وضعت فيه روما كل آمالها فى إنقاذها من الخطر المحدق بها . وكان بالفعل قائداً بارعاً ، فقد وضع خطة ماكرة فوتت على هانيبال كل ثمار انتصاراته طوال السنوات الماضية ، وقد دفع بجيشه إلى أسبانيا فقطع بذلك عن هانيبال كل مئونة أو مدد ، إذ حال بينه وبين قاعدة تموينه ، فلم يلبث أن عجز عن مواصلة القتال واستحال



« سيبيو الأفريقى »

عليه الزحف إلى روما وتحقيق الحلم الذى كان يراوده بالاستيلاء عليها ، وقد بدأ الحظ الذى كان حليفه ينقلب ضده ، فانتصر عليه القائد الرومانى مارسيللوس عند نولا وأكرهه على الانسحاب إلى أبوليا . ثم أعلن الرومان الحرب على حليفه فيليب ملك مقدونيا — وهى المسماة بالحرب المقدونية الأولى — كى يحولوا بينه وبين مساعدته . وأرسلوا جيشاً بقيادة مارسيللوس فاستولى على أملاك قرطاجنة فى قبرص ، ثم عاد إلى هانيبال فهزمه . وقد استنجد هانيبال بأخيه

هازدروبال فأقبـل على رأس حملة لنجـدته ، ولـكن الرومان تصـدوا له فى الطريق وذبحوه وألقوا رأسه فى معسكر هانيبال . وفى عام ٢٠٦ قبل الميلاد كان سـيبيو قـد قضى على قوة القرطاجنيين فى أسـبانيا وطردهم منها ثم عاد إلى روما فانتخبه الرومان قنصلا عام ٢٠٥ قبل الميلاد ، ثم لم يلبث فى العام التالى أن قاد جيشاً إلى أفريقيا معتزماً الهجوم على قرطاجنة ذاتها . فلم يسع هانيبال إلا أن يهب للدفاع عن بلاده وغادر إيطاليا متخلياً عن كل فتوحه وانتصاراته التى استمرت خمسة عشر عاماً كان أثناءها يثير الرعب فى قلوب الرومان . بيد أن السعد الذى لازمه فى إيطاليا لم يلبث أن انقلب نحساً فى أفريقيا ، إذ تمـكن الجيش الرومانى بقيادة سيبيو من هزيمته فى موقعة زاما عام ٢٠٢ قبل الميلاد ، فسقطت قرطاجنة صريعة تحت أقدام الرومان ، واستسلمت للشروط القاسية التى أملوها عليها ، والتى تفرض عليها أن تتخلى لهم عن أسبانيا وعن كل الجزر التى تملـكها فى البحر الأبيض المتوسط ، أى عن كل امبراطوريتها ، وأن تدفع لهم غرامة سنوية فادحة لمدة خمسين عاماً ، وأن تدمر أسطولها الحربى كله ، فلا تستبقى منه إلا عشر سفن ، وأن تلتزم بألا تخوض أى حرب دون أن تستأذن منهم ، وأن تسلم إليهم قائدها هانيبال لينتقموا منه . ولـكن هانيبال فرّ إلى آسيا فراحوا يطاردونه من بلد إلى بلد ، وهو يفلت منهم ، حتى لجأ أخيراً إلى بلاط بروسياس ملك بيثينيا ، إلا أنه لم يلبث أن أحس أن هذا الملك سيخونه ويسلمه إلى أعدائه الغلاظ الأكباد فتجرع السم ومات عام ١٨٣ قبل الميلاد وهو فى السابعة والستين من عمره . وهكذا انتهت حياة هذا القائد الجبار بعد أن دوخ الدولة الرومانية زمناً طويلا وأصبح من أشهر قواد التاريخ .

الحرب المقدونية الأولى

حين تحالف فيليب الخامس ملك مقدونيا مع هانيبال ضد روما عام ٢١٤ قبل الميلاد ، تحالفت العصبة الأيتولية مع روما ضده ، وأعلنت روما الحرب عليه ، فلم يسعه إلا أن يعقد الصلح معها ، متخليا عن تحالفه مع هانيبال .

الحرب المقدونية الثانية

وفى عام ٢٠٠ قبل الميلاد سارعت روما إلى مساعدة برجاموم ورودس وأثينا حين استغاثت من اعتداء فيليب الخامس عليها ، فاشتبكت فى الحرب المقدونية الثانية مع هذا الملك ، وانتصرت عليه عام ١٩٧ قبل الميلاد عند كيوسكيفالاى فى تساليا واضطرته إلي قبول شروط الصلح ومنها التخلى عن بلاد اليونان ودفع غرامة قدرها ألف تالنت فى مدى عشر سنوات ، والتعهد بعدم الخوض فى أى حرب دون الحصول على الإذن بذلك من روما ، وتخفيض عدد قواته إلى خمسة آلاف رجل وخمس سفن .

الحرب ضد أنطيوخوس الثالث

وفى عام ١٩٢ قبل الميلاد غزا أنطيوخوس الثالث ملك سوريا بلاد اليونان فزحف الرومان على تساليا ، ثم عبروا الهيليسبونت وهزموا أنطيوخوس في موقعة مغنيزيا قرب أزمير على ساحل آسيا الصغري وأكرهوه على قبول شروط الصلح ، ومنها أن يتخلى عن جميع ممتلكاته الأوروبية والأسيوية حتى جبال طوروس ، وأن يدفع خمسة عشر ألف تالنت فى مدى إثنتى عشر سنة ، ثم قسموا أملاكه فى الأناضول بين برجاموم ورودس .

الحرب المقدونية الثالثة

وفى عام ١٧١ قبل الميلاد خاض بيرسيوس إبن فليب الخامس غمار الحرب المقدونية الثالثة ضد روما وهزم جيوشها فى عدة معارك . ومن ثم أرسلت روما قائدها لوكيوس إيميليوس باولوس فانتصر على بيرسيوس فى موقعة بيدنا ، ودمر سبعين مدينة مقدونية ، وساق بيرسيوس مصفداً بالأغلال إلى روما حيث عرضه فى موكب نصره ، وقبض على ألف من زعماء اليونان وبينهم المؤرخ بوليبوس وأخذهم رهائن فى روما حيث ألقى بهم فى السجن ستة عشر عاماً مات خلالها سبعمائة منهم . وقد عمدت روما إلى تقسيم مقدونيا بعد هذه الهزيمة التى أنزلتها بها إلى أربعة أجزاء منفصلة ، كما عمدت إلى تقسيم إلليريا إلى ثلاثة أجزاء ، وأملت شروطها على رودس وعلى يومينيس ملك برجاموم ، ومنعت أنطيوخوس الرابع من غزو مصر ، ثم هجمت بجيوشها على بلاد اليونان واستولت عليها ونهبتها ، حتى إذا تصدت مدينة كورنثوس لمقاومتها أشعلت فيها النار وذبحت رجالها ، وباعت نساءها وأطفالها فى سوق الرقيق . وبذلك أصبحت بلاد اليونان ولاية رومانية .

اخضاع فرنسا وأسبانيا

وقد إتجهت روما بعد ذلك إلى توطيد أقدامها فى بلاد الغال الجنوبية — وهى فرنسا الحالية — فلم تفتأ تغير عليها بجيوشها حتى أخضعتها ، كما أخضعت أسبانيا بعد أن انتزعتها من قرطاجنة ، وقد عاملت أهاليها بأبشع ألوان القسوة والوحشية . ومن أمثلة ذلك أن الحاكم الرومانى لوسيوس لوكولوس هجم عام ١٥١ قبل الميلاد على المدن الأسبانية ونهبها وقتل آلافاً من أهاليها ، كما أسر آلافاً أخرى منهم وباعهم فى سوق الرقيق . ثم فى العام التالى جاء الحاكم الرومانى

سيلبيسيوس وأقام مذبحة مروعة بوسيلة لامثيل لها فى الغدر والدناءة ، إذ أوهم سبعة آلاف من أهالى أسبانيا بأنه سيوزع هبات من الأرض عليهم ، ثم دعاهم إلى معسكره ، وحين حضروا أمر أعوانه بأن يحيطوا بهم ثم ذبحهم جميعا . فلما ثار الأسبان بسبب هذه الوحشية حاصرهم الرومان خمسة عشر شهراً ، حتى إذا عضهم الجوع أكلوا جثث موتاهم ، ثم استسلموا آخر الأمر وقد ركعوا على أقدامهم أمام الغزاة الذين لارحمة فى قلوبهم .

الحرب البونية الثالثة

وقد انقضت ست وخمسون سنة على انتهاء الحرب البونية الثانية ، كانت روما أثناءها كما رأينا تبسط سلطانها وتزداد قوة وسطوة ، بينما كانت قرطاجنة الذليلة الكسيرة الجناح تحاول جاهدة أن تنهض من كبوتها وتسترد شيئا من رخائها القديم ، فأثار ذلك عليها حقد الرومان ، وكانوا قد ملأتهم روح الخسة والوضاعة والجشع ، فكان يحنقهم أى رخاء يتمتع به غيرهم ، ولاسيما قرطاجنة التى سبق لهم أن حطموها وعملوا على ألا تقوم لها قائمة بعد ذلك . ومن ثم افتعلوا أسباب الحرب افتعالا ضدها ، فقد حرضوا النوميديين على مهاجمتها ، حتى إذا هبت لمقاومتهم أعلنوا أنها خالفت شروط الصلح الذى سبق أن عقدته مع روما إذ دخلت الحرب دون استئذانها ، ومن ثم انقضوا بجيوشهم على قرطاجنة عام ١٤٩ قبل الميلاد . ولما كانت قرطاجنة تعلم حينذاك أنها لم تعد قادرة على التصدى لهم أبدت استعدادها للرضوخ لكل مطالبهم ، فوعدها مجلس الشيوخ الرومانى بأنها إذا سلمت الى القنصلين الرومانيين فى صقلية ثلاثمائة من أطفال أشرف العائلات فيها ليكونوا رهائن ، وأجابت القنصلين إلى كل مطالبهما أيا كانت هذه

المطالب ، إحتفظت فى نظير ذلك بحريتها وسلامة أراضيها . فلم يجد أهل قرطاجنة مناصاً من قبول هذه الشروط الجائرة وسلموا أطفالهم بقلوب واجفة وعيون باكية ، وقد احتشدوا عنـد الشاطيء يودعونهم ، وهم فى أشد حالات اللهفـة والجزع ، وراحت أمهاتهم تبكين وتولولن ، ثم فى آخر لحظة ألقين بأنفسهن فى المـاء وأخذن يسبحن ليلقين آخر نظرة على فلذات أكبادهن . وقد أرسـل القنصلان الأطفـال إلى روما ، ثم عبرا البحر إلى يوتيكا على رأس الجيش والأسطول واستدعيا سفراء قرطاجنة وطلبا منهم تسليم كل ما بقى لبلادهم من السفن والأسلحة والمعدات الحربية . فلما خضعوا لهذا المطلب كذلك لم يزد هذا الخضوع روما إلا تجبراً وخسة ، فأصدرت أمرها بأن يخرج جميع سكان قرطاجنة منها وأن يبتعدوا عنها مسافة لا تقل عن عشرة أميال ، لأنه قد صدر الأمر بإشعال النار فيها وإحراقها عن آخرها . فلما سمع سفراء قرطاجنة ذلك من القنصلين فقدوا صوابهم وراحوا يعفرون بالتراب رؤوسهم ثم خروا على الأرض ساجدين عند أقدام القنصلين يستعطفونهما ويتوسلون إليهما أن يعدلا عن هذا القرار عارضين أن يقدموا حيـاتهم فداء لمدينتهم ، وتـكفيراً عما عساها قد اقترفته من ذنوب ، ولـكن القنصلين رفضـا فى عجرفة وصلف . حتى إذا عاد سفراء قرطاجنة إلى بلادهم وأخبروا أهلها بما هو مفروض عليهم جن جنونهم ، وانطلقوا يدقون صدورهم ويلطمون خدودهم ويمزقون شعورهم ويهيلون الرماد على رؤوسهم ويبكون فى الشوارع بكاء لم تشهد مدينة مثله من قبل ، نادبين أطفالهم الذين سلموهم بأيديهم ونادمين على استسلامهم واستخذائهم أمام الرومان . ثم لم يلبثوا أن هبوا فى غضب عنيف وأعلنوا الحرب على روما ، وقد شدد الغضب عزائمهم وشجع قلوبهم ، فراحو يهدمون البيوت ويصـنعون من خشبها مراكب ، ويصهرون التمـاثيل

ويصنعون من معدنها سيوفاً ، ويجزّون شعور النساء ويفتلون منها حبالا ، وقد تحولت المدينة كلها إلى معسكر ضخم يموج بالحركة التى لا تهدأ ليلا ولا نهاراً ، فلم يمض إلا شهران حتى كان أهل قرطاجنة قد صنعوا ثمانية آلاف درع وثمانية عشر ألف سيف وسبعين ألف حربة وتسعين ألف قذيفة منجنيق ، وبنوا فى ميناء المدينة عمارة بحرية تتألف من مائة وعشرين سفينة . وكان الرومان فى هذه الأثناء قد حاصروا المدينة ، فظلت تقاوم الحصار فى البر والبحر ثلاث سنوات كاملة ، وهم لا يفتأون يهاجمون أسوارها ثم يرتدّون عنها خائبين .
وعندئذ استولى الحنق على مجلس الشيوخ الرومانى وعين سيبيو إيميليانوس قنصلا وقائداً للجيوش الرومانية عام ١٤٧ قبل الميلاد ، فشدد الحصار على قرطاجنة وقطع عنها المدد براً وبحراً ، ومن ثم تعرض أهل قرطاجنة لمجاعة مروعة ، ولكنهم صبروا وصمدوا فى بطولة منقطعة النظير ، حتى تمكن الرومان أخيراً من تساق أسوار المدينة واقتحموها ، فتصدى لهم أهلها يدافعون عنها شارعاً شارعاً وبيتاً بيتاً ، وظلوا على هذا الحال أربعين يوماً لا ييأسون ولا يستسلمون ، حتى إذا استولى الرومان على حى من أحياء المدينة كان أهله لا يلبثون أن يستردوه ، فلما رأى القائد الرومانى ذلك أصدر أمره بإشعال النار فى كل موضع يستولون عليه ، حتى أصبحت المدينة أتوناً متقداً ، وقد ذبح الرومان الغالبية العظمى من سكانها . وحين رأى قائدها هازدروبال أنه لا مفر من التسليم وصمته زوجته بالجبن ثم ألقت بنفسها وبأولادها فى لهيب النار المشتعلة ، فلم يبق فى المدينة إلا أفراد قلائل بين الأطلال أسرهم الرومان وباعوهم فى سوق الرقيق . وأرسل سيبيو إلى مجلس الشيوخ الرومانى يسأله عما يفعل بأطلال المدينة ، فأمره المجلس بأن يمحوها محواً ويحرث الأرض التى كانت قائمة عليها

بالمحراث ثم يغطيها بالرماد والملح ، دلالة على الخراب الأبدى ، ففعل سيبيو ذلك ، ومن ثم أصبحت قرطاجنة أثراً بعد عين ، ولم يعد لها من الوجود إلا ذكراها فى التاريخ . وقد استولت روما على أرضها كما استولت على الأملاك التى كانت تحيط بها وضمتها إلى أملاكها باسم « ولاية أفريقيا » .

الحرب المقدونية الرابعة

وقد ظهر فى مقدونيا رجل يدعى أندريكوس إدعى أنه ابن برسيوس وأطلق على نفسه لقب فيليب ، ولم يلبث أن أشعل نار الحرب المقدونية الرابعة ضد روما عام ١٤٩ قبل الميلاد ، ولكن الرومان هزموه عام ١٤٦ وضموا مقدونيا إلى حظيرتهم فأصبحت ولاية رومانية .

تدمير كورنثوس

وفى عام ١٤٦ قبل الميلاد ، أى فى ذات العام الذى أقدمت فيه روما على تدمير قرطاجنة ، أقدمت كذلك على تدمير مدينة أخرى هى كورنثوس ، إذ بدا لها أنها تضيق الخناق على تجارتها وتنافسها فى احتكاراتها ، فأصدرت عليها الحكم بالإعدام ، وسلبت كنوزها وباعت أهلها جميعاً فى سوق الرقيق ثم أشعلت النار فيها . وهكذا بدت روما باعتبارها جلاد الشعوب . وقد سقطت تحت ربقتها أغلب الدول المحيطة بها ، بعد أن تحولت إلى مجرد ولايات تخضع لسيادتها .

الاستيلاء على برجاموم

ثم فى عام ١٢٩ قبل الميلاد استولت روما على برجاموم بعد هزيمة أريستونيكوس المطالب بعرشها وتحولت هذه البلاد إلى ولاية رومانية باسم « ولاية آسيا » .

الحرب الأهلية

وقد ظلت روما قرنين من الزمان تسيطر على الولايات الإيطالية سيطرة الغزاة الفاتحين على الأمم المهزومة ، وتستخدم رجالها فيما تخوض من حروب ، ومع ذلك تعاملهم معاملة السادة للعبيد ، وتعتبرهم أقل مرتبة من أبنائها المنحدرين من أصلابها ، حتى لقد حدث فى عام ١٢٦ قبل الميلاد أن حرّمت الجمعية الشعبية على أبناء الولايات الإيطالية أن يهاجروا إلى روما . ثم حدث فى عام ٩٥ قبل الميلاد أن طردت روما كل من كانوا يقيمون فيها من غير أبنائها الأصليين . وقد حاول أحد الأشراف وهو ليفيوس دروسوس أن يكفل لأبناء الولايات الإيطالية بعض المساواة بأبناء روما فكان جزاؤه القتل . ومن ثم اضطرمت تلك الولايات بأسباب النقمة والغضب ، ولم تلبث أن تمردت على روما وأعلنت الانفصال عنها ، ثم قامت فى عام ٩١ قبل الميلاد بتكوين اتحاد يجمعها فى دولة واحدة تحمل اسم « إيطاليا » ويتولى السلطة فيها مجلس للشيوخ من خمسمائة عضو يتم انتخابهم من جميع القبائل الإيطالية ما عدا الأتروريين والأمبريان الذين رفضوا الانضمام إلى الاتحاد . وعندئذ أسرعت روما إلى إعلان الحرب على المتمردين . ومن ثم بدأ بين الجانبين صراع عنيف استمر سنوات عديدة هلك فيها أكثر من ثلاثمائة ألف نفس ، وتعرضت أغلب المدن الإيطالية خلالها لأبشع أنواع التدمير والتخريب . فلم يسع روما بعد أن أرهقتها هذه الحرب الأهلية الضارية إلا أن ترضخ لمطالب الولايات الإيطالية ، فأصدرت قانوناً منحت بموجبه الحقوق الرومانية لكل الإيطاليين الذين يطلبونها ، وبذلك وضعت الحرب أوزارها عام ٨٨ قبل الميلاد .

الحرب الميثريداتية الأولى

وفى هذه الأثناء قام الملك الطموح ميثريداتس الرابع ملك بنطس الواقعة على شواطىء البحر الأسود الجنوبية بآسيا الصغري يتحدى روما . وكان قد استولى قبل ذلك على لوكوخيس المتاخمة لبنطاس ، وضم كبادوكيا وبافلاجونيا ، ثم احتدم النزاع بينه وبين نيكوميدس ملك بيثينيا ، فلما تصدت روما لحماية نيكوميدس أعلن الحرب عليها عام ٨٨ قبل الميلاد واجتاح إقليم آسيا الخاضع لروما وقتل ثمانين ألفاً من الرومان المقيمين به فى يوم واحد . ومن ثم تولى القنصل لوسيوس كرنيليوس سيللا قيادة الحملة التى أعدها الرومان لقتال ميثريداتس . ولكن الزعيم الشعبى سلبيكيوس روفوس إستصدر قانوناً بمنح قيادة هذه الحملة لقائد آخر هو ماريوس . وعندئذ فرّ سيللا إلى نولا واستمال إليه الجيش الذى كان تحت قيادته أثناء الحرب الأهلية ، وزحف به إلى روما وذبح سلبيكيوس وأنصاره ، وفر ماريوس إلى أفريقيا ، وبذلك أصبح سيللا هو صاحب الكلمة العليا فى روما وقد أشار باختيار نيوس أوكتافيوس وكرنيليوس سينّا قنصلين لعام ٨٧ قبل الميلاد ثم سار على رأس الجيش للقاء ميثريداتس . وبعد معارك ضارية مع جيوشه فى بلاد اليونان وآسيا الصغرى تمكن سيللا من هزيمة ميثريداتس واضطره إلى قبول شروط قاسية للصلح ، منها التخلي لروما عن جميع فتوحه وتسليمها ثمانين سفينة حربية ، فضلا عن دفع غرامة فادحة قدرها ثلاثة آلاف تالنت .

ثم عاد سيللا إلى روما حاملا معه أكداساً من الغنائم والأسلاب ومنها خمسة عشر ألف رطل من الذهب ومائة وخمسون ألف رطل من الفضة فضلا عن مقادير ضخمة من النقود ومن روائع الفنون التى نهبها من بلاد اليونان وآسيا

الصغرى . وكان قد نشب أثناء غيابه في هذه الحرب نزاع عنيف فى روما بين الأشراف يتزعمهم القنصل أوكتافيوس ، وبين العامة يتزعمهم القنصل سينّا . وقد أسفر ذلك النزاع عن مقتل أوكتافيوس وسينّا وعدد عظيم من أنصارهما . وقد إنتهزت قبائل السامنيين هذه الفرصة وشقت عصا الطاعة على روما وهجمت عليها بجيش يتألف من مائة ألف رجل ، فسارع سيللا إلى ملاقاة هذا الجيش وهزمه فى معركة تعد من أشد معارك التاريخ القديم هولا وهى معركة بوابة كولين عام ٨٢ قبل الميلاد ، وقد جرت فيها الدماء أنهاراً . وبعد أن تم له النصر أنزل بالمدن التى ناصرت المتمردين عقوبات صارمة وذبح ثمانية آلاف من الأسرى . ومن ثم انفرد سيللا بالحكم فى روما وقد زاد عدد أعضاء مجلس الشيوخ إلى ستمائة عضو فأقامه المجلس دكتاتوراً . ولكنه لم يلبث بعد عامين أن تخلى عن سلطته كلها وأعاد الحكم القنصلى عام ٧٩ قبل الميلاد واعتزل الحياة العامة ثم أقام فى قصره محيطاً نفسه بكل أسباب المتعة الشهوانية التى كانت هى الهدف الأوحد لكل أثرياء الرومان ، وقد تزوج خمس مرات واتخذ لنفسه عدداً كبيراً من المحظيات وجمع حوله المغنين والمغنيات والراقصين والرقصات وانهمك فى الطعام والشراب وحياة الخلاعة والتهتك حتى أصيب أخيراً بمرض خبيث جعل الدود يأكل جسمه حتى قضي عليه .

الثورة الاسبانية

وقد حدث عام ٩٨ قبل الميلاد أن أعاد القائد الرومانى ديديوس مافعله من قبله سيلبيسيوس جالبا ، فقد أوهم إحدى القبائل الأسبانية بأنه سيمنحها مساحة عظيمة من الأرض واستدرج كل أفرادها إلى معسكره بحجة تسجيل أسمائهم ،

حتى إذا دخلوا المعسكر هم وزوجاتهم وأطفالهم ، أمر جنوده فأحاطوا بهم وذبحوهم عن آخرهم . وقد قامت روما بعد ذلك باستقبال ديديوس استقبال الظافرين من أجل هـذه المذبحة . بيـد أن ضابطاً فى الجيش الرومانى يدعى كوينتوس سيرتوريوس إهتزت نفسه من هـذه الفظائع التى يرتـكبها الحـكام الرومان فى أسبانيا فذهب إلى هناك ونظم صفوف الأسبان ودربهم على فنون القتال ثم قادهم ضد الجيوش الرومانية التى كانت تجيء لإخضاعهم ، وظـل ينتقل من نصر إلى نصر ، حتى استقل بأسبانيا مدة تقرب من ثمـانى سنوات ، كسب أثناءها قلوب الأسـبان بحكمه العادل . ومن ثم استشاطت روما حنقاً وحقداً عليه وأعلنت عن مكافأة قدرها مائة تالنت وعشرون ألف فدان من الأرض لمن يقتل سيرتوريوس . وكان لهذا العرض السخى أثره فى نفس رجل رومانى يدعى بيرينا ، كان ينزل فى ضيافة سيرتوريوس فقتله . وبذلك عادت روما إلى السيطرة على أسبانيا من جديد .

الحرب الميثريداتية الثانية

وقد شنت روما الحرب الميثريداتية الثانية عام ٨٣ قبل الميلاد على الملك ميثريداتس ملك بنطس وأخضعته .

القضاء على القراصنة

وكان القراصنة يعيثون فساداً فى البحر الأبيض المتوسط ويعوقون التجارة الرومانية فعهدت روما إلى بومبى بالقضاء عليهم ومنحته السيطرة التامة لمـدة ثلاث سنوات على كل الأساطيل الرومانية وكل الأشخاص المقيمين على مدى خمسين ميلا من جميع شواطىء البحر الأبيض المتوسط . وقد قام بومبى على رأس جيش مؤلف

من مائة وخمسة وعشرين ألف مقاتل وأسطول مؤلف من خمسمائة سفينة حربية ، وراح يطوف أرجاء البحر الأبيض المتوسط ، فلم تمض ثلاثة أشهر حتى كان قد استولى على معاقل القراصنة وصادر سفنهم وأعدم زعماءهم ، ومن ثم نشطت التجارة وتدفقت الحبوب على روما فكان لذلك أكبر الأثر فى ارتفاع مكانة بومبى بعد ذلك فى الدولة الرومانية .

الحرب الميثريداتية الثالثة

وفى عام ٧٤ قبل الميلاد تشجع ميثريداتس ملك بنطس بما كانت تواجهه روما من متاعب داخلية وساعد زوج إبنته تيجرانس الأول ملك أرمينيا على ضم كبادوكيا وسوريا إلى أملاكه ، ثم احتل هو بيثينيا فاستنجد ملكها نيكوميدس الثالث بروما فبادر القائد الرومانى لوكيوس ليسينيوس لوكولوس إلى نجدته وراح يطارد ميثريداتس حتى احتل بلاده ذاتها . فلما لجأ ميثريداتس الى مملكة زوج ابنته تيجرانس تعقبه لوكولوس إلى هناك وهزم تيجرانس فى تيجرانوكرتا عام ٦٩ قبل الميلاد ، ثم راح يتوغل فى جبال أرمينيا ، إلا أن جنوده تمردوا عليه وأجبروه على العودة الى آسيا ، وفى ذلك الوقت أدت المناورات السياسية فى روما الى نقل قيادة الجيوش التى كان يقودها لوكولوس الى بومبى ، فأسرع هذا الى آسيا الصغرى وواصل مطاردة ميثريداتس حتى أجبره على الانتحار ثم أسر تيجرانس وجرده من كل ممتلكاته ماعدا أرمينيا وفرض عليه غرامة قدرها ستة آلاف تالنت .

تنظيم الولايات الأسيوية

وقد قام بومبي بعد قضائه على ميثريداتس عام ٦٥ قبل الميلاد بإعادة تنظيم آسيا الصغرى وسوريا فأنشأ أربع ولايات هى ولاية آسيا وولاية بيثينيا ، وتدخل فيها بنطس الغربية ، وولاية كيليكيا وتشمل بمفيلية وإيسورة ، وولاية سوريا وهي الإقليم المحيط بأنطاكية . أما بنطس الشرقية وكبادوكيا وجالاشيا وليسيا واليهودية فقد جعلها بومبي ممالك خاضعة لروما . وكانت اليهودية فى ذلك الحين يتنازعها أخوان من أسرة المكابيين اليهودية ، هما هركانس وأرستبولس ، وقد احتكما فى نزاعهما إلى بومبي فحكم لصالح هركانس ، وعندئذ غضب أرستبولس وأعلن الحرب على بومبى ، فهزمه بومبى واستولى على اليهودية وأقام هركانس حاكماً لها ورئيساً لكهنتها تحت سيادة روما . وأخذ معه أرستبولس أسيراً إلى روما .

وقد أسس بومبى خلال حملته تلك تسعاً وثلاثين مدينة فى أنحاء سوريا وآسيا الصغرى ، ثم عاد إلى روما محملا بالثروة العظيمة التى نهبها من البلاد التى غزاها ، ومنها مائتا مليون سيسترس وضعها فى خزانة روما ، وقد ضمن لها إيراداً سنوياً قدره ثلاثمائة وخمسون مليون سيسترس ووزع على جنوده ثلاثمائة وثمانون مليون سيسترس ، واستبقى لنفسه مبلغاً يكفل له أن يكون أغنى رجل فى روما .

يوليوس قيصر

أما القائد الذى استكمل لروما سطوتها ومدّ إلى أقصى الحدود رقعتها وجعل منها دولة من أقوى الدول التى عرفها التاريخ ، فهو يوليوس قيصر الذى أصبح من أشهر رجال العالم فى كل العصور ، وقد كان له دور كبير فى الأحداث التى دارت فى العالم وشكّلت كثيراً من ملامحه فى الفترة السابقة مباشرة على ظهور

السيد المسيح وكان له دور كبير فى الأحداث التى انتهت بانهيار دولة البطالمة واستيلاء الرومان على مصر . ولذلك نتكلم عنه هنا بشيء من التفصيل .

وقد ولد قيصر عام ١٠٠ قبل الميلاد ، وكان فى حداثته صبياً فاسقاً يتهامس الناس بعلاقاته الشاذة الشائنة . حتى إذا بلغ طور الشباب انطلق يعربد ويعيث فساداً حتى لقد ضج الأشراف الرومان بالشكوى منه لأنه كان يغوى زوجاتهم ، وقد طلق بومبى زوجته لأنه اكتشف علاقته بها ، كما حقد عليه كاتو لأن أخته سرفيليا كانت من عشيقاته ، ولم يسلم بيت من البيوت الرفيعة الشأن فى روما من عهره وعاره . وقد اشتغل بالسياسة فكان سياسياً رقيعاً لا ضمير ولا أخلاق له ، فكان يرشو الجميع ويرتشى من الجميع ولم يكن يتورع عن سلوك أدنأ السبل كى يصل إلى أغراضه ، فكان صورة صادقة وصارخة لكل زعماء الرومان فى عصره .

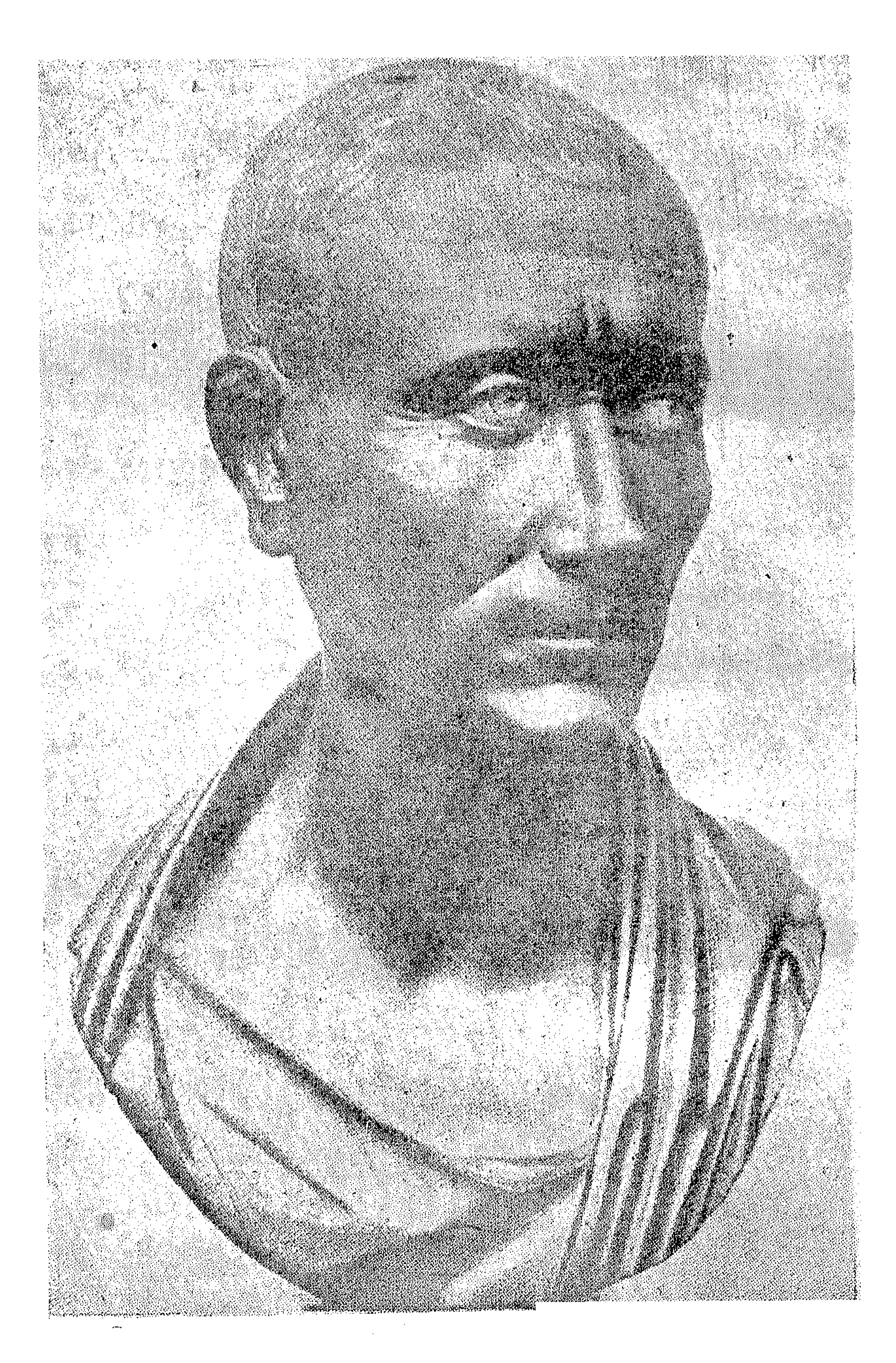
وقد تولى قيصر فى بداية أمره قيادة الحملة العسكرية التى بعثت بها روما عام ٦٨ قبل الميلاد لتأديب المدن الأسبانية الثائرة ، فنهبها وخربها وذبح أهاليها وعاد منها بأموال طائلة استولى عليها لنفسه ليسدد بعض ديونه التى كانت تبلغ خمسة وعشرين مليون سيستروس ، أي ما يوازى خمسة ملايين من الجنيهات ، مع أنه فى ذلك الحين لم يكن قد تجاوز الثانية والثلاثين من عمره .

ولم يلبث قيصر أن اختير مشرفاً على المبانى الحكومية عام ٦٥ قبل الميلاد ثم رئيساً أعلى للدين الرومانى عام ٦٣ ثم بريتوراً عام ٦٢ ثم عين فى العام التالى والياً على أسبانيا فراح مرة أخرى يشن على المدن الثائرة فيها حملات مروعة لم يكن القصد منها إلا السلب والنهب ، حتى إذا عاد إلى روما بعد زمن وجيز حمل معه من

الغنائم والأسلاب ما يكفي لسداد ماتبقى من ديونه وما يكفى فى ذات الوقت لأن يملأ خزائن الدولة بالمال ، ومن ثم أقام له مجلس الشيوخ احتفالا عظيما استقبله به استقبال الأبطال . وكان بومبى حينذاك قد عاد لتوه من فتوحه فى بلاد الشرق فتحالف قيصر معه باعتباره أقوى رجل فى روما ، كما تحالف مع رجل آخر من أقدر زعماء روما وهو كراسوس ، فأصبح الثلاثة هم أصحاب السلطة العليا فى البلاد ، ومن ثم اصطلح المؤرخون على تسمية تحالفهم غير الرسمى بالحكومة الثلاثية الأولى .

ثم فى الانتخابات لمنصب القنصلية عام ٥٩ قبل الميلاد إختار العامة قيصر واختار الأشراف بيبيلوس . إلا أن قيصر تجاهل وجود هذا القنصل الآخر وراح يصدر التشريعات بمفرده . وقد قام قيصر بوصفه قنصلا بتنفيذ البرنامج الذى اتفق عليه الحلفاء الثلاثة ، وهو التصديق على التنظيم الذى وضعه بومبى لبلاد الشرق ، وتوزيع أرض كمبانيا على جنوده القدامى ، وتعيين قيصر والياً على بلاد الغال الألبية والناربونية لمدة خمس سنوات ، مع تخويله حرية التصرف فى شئونها الداخلية . وقد توثقت عرى هذا الحلف السياسى بزواج بومبى من جوليا إبنة قيصر .

فلما انتهت فترة قنصلية قيصر عمل على انتخاب أحد المقربين إليه وهو كلوديوس تريبوناً عام ٥٨ قبل الميلاد . وكان كلوديوس يعشق بومبيا زوجة قيصر ويتردد عليها فى قصر زوجها متنكراً فى ثياب النساء ، كما كان يتردد على كثير من النساء غيرها ، وقد بلغ من فسقه أنه كان يتخذ من شقيقاته عشيقات له . وقد كانت روما كلها تعرف علاقته الشائنة بأخته كلوديا وبأخته الأخرى تريشيا زوجة لوكولوس ، وقدحوكم أمام مجلس الشيوخ عن هذه التهمة الأخيرة .



يوليوس قيصر ؟

ورغم أن قيصر قد طلق زوجته بومبيا بسبب علاقة كلوديوس بها ، فقد ساعده على رشوة عدد من القضاة ليحكموا فى صالحه ، وبالفعل صدر الحكم ببراءته . وقد عمل كلوديوس بعد انتخابه تربيوناً على استرضاء العامة . فلما نجح فى ذلك طمع فى الانفراد بزعامة الشعب فراح يهاجم بومبى ، بل راح يهاجم قيصر صاحب الفضل عليه .

وفى عام ٥٨ قبل الميلاد تسلم قيصر مهام منصبه كحاكم لبلاد الغال الألبية أى شمال إيطاليا ، وبلاد الغال النربونية أى جنوب فرنسا . وكان هدف قيصر من حكم بلاد الغال هو تكوين ثروة لنفسه ، وتعبئة جيش يعتمد عليه ، واكتساب شهرة عسكرية يناهض بها شهرة بومبى ، وكانت القبائل الألمانية فى ذلك الحين لا تفتأ تغير على كل الأصقاع الممتدة من نهر الرين إلى المحيط الأطلنطى وتهدد روما نفسها ، فتصدى لها قيصر وشتت شملها ، ونهب بلادها ، وباع أسراها فى سوق الرقيق ، ثم أعلن اعتبار بلاد الغال كلها ولاية رومانية .

وفى عام ٥٦ قبل الميلاد إجتمع قيصر وبومبى وكراسوس واتفقوا على برنامج للمستقبل . وتنفيذاً لهذا البرنامج أصبح بومبى وكراسوس قنصلين عام ٥٥ قبل الميلاد على أن يتولى بومبى حكم أسبانيا لمدة خمس سنوات وأن يتولى كراسوس حكم سوريا لمدة خمس سنوات كذلك . أما قيصر فقد تقرر امتداد حكمه لبلاد الغال خمس سنوات أخرى .

ولم يلبث قيصر أن واصل فتوحه فغزا بريطانيا وأخضعها للنفوذ الرومانى ، ثم غزا ألمانيا وأخضعها كذلك . ثم تمرد الغاليون فهزمهم وقتل عدداً كبيراً منهم ، ووزع الباقين على جنوده ليكونوا عبيداً لهم . ومنذ ذلك التاريخ ظلت

بلاد الغال — وهى فرنسا الحالية — ولاية رومانية طيلة ثلاثمائة عام تمامت خلالها اللغة اللاتينية وأدخلت عليها كثيراً من التغيير فنشأت منها اللغة الفرنسية .

وكان المجتمع السياسى فى روما قد انحط فى ذلك الحين إلى الدرك الأسفل من الفساد والعنف . فكان القنصلان بومبى وكراسوس يسيران فى حكمهما على خطة الإرهاب والرشوة وقتل المعارضين وشراء أصوات الناخبين . حتى إذا



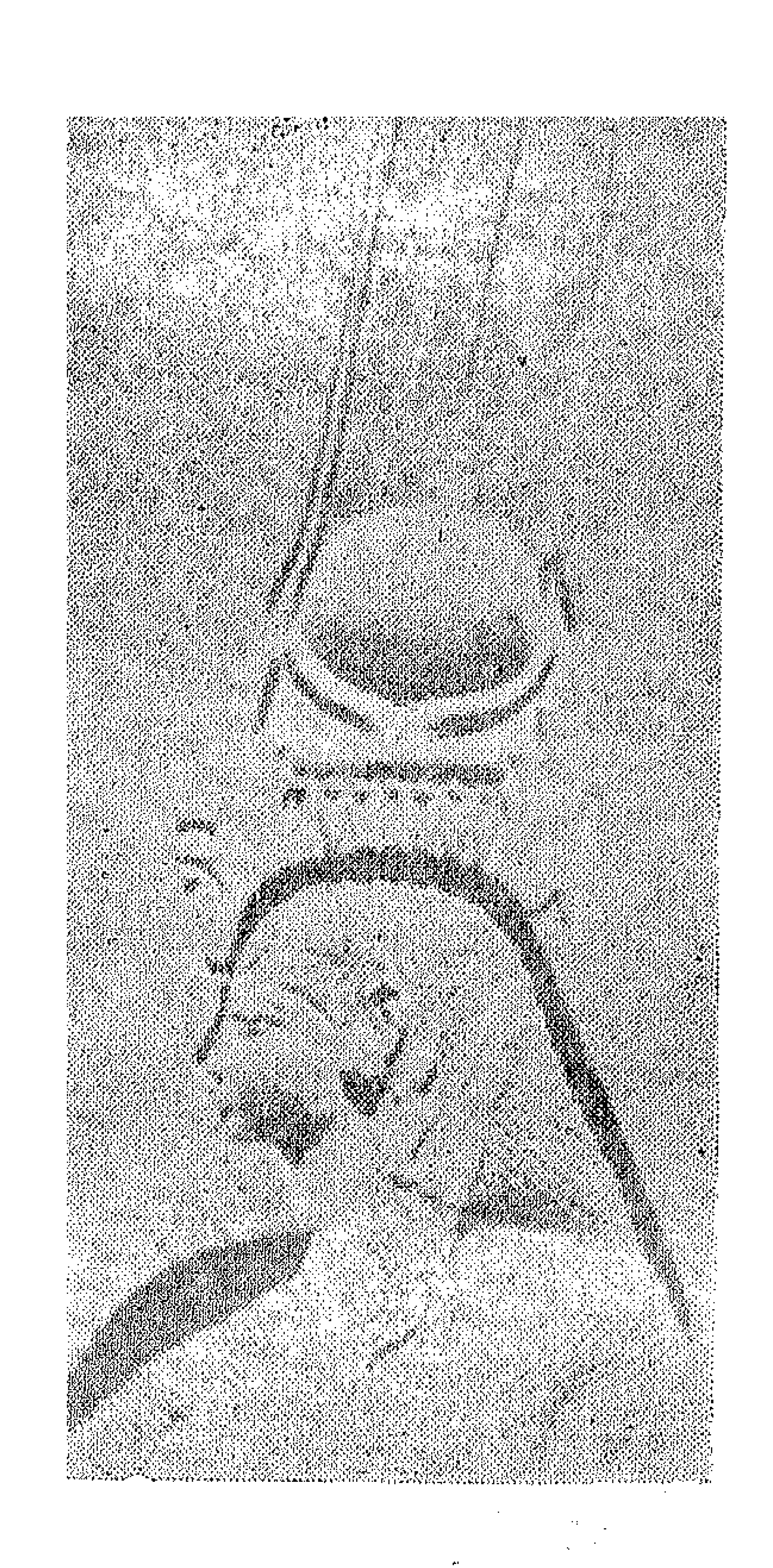
« بومبى »

انقضت مدة ولايتهما جند كراسوس جيشاً كبيراً وأبحر به إلى سوريا لقتال البارثيين فقتل هناك وتبدد جيشه . أما بومبى فقد راح يعمل على الاستئثار بالسلطة فى روما وقد توفيت زوجته جوليا إبنة قيصر فلم تلبث الرابطة أن إنفصمت بين الحليفين ثم سرعان ما نشب الصراع بينهما . وفى هذه الأثناء كان الفساد قد بلغ ذروته فى روما ، وكانت مناصب الدولة وعروش الملوك الخاضعين لسلطانها تباع جهاراً لمن يعرض فيها أغلى الأثمان ، وقد نظم القنصلان الجديدان كاوديوس

وميلو عصابات من أحط الطبقات لاستخدامها فى تحقيق أغراضهما السياسية ، ولم تلبث عصابات ميلو أن اغتالت كلوديوس ، فجاءت عصابات كلوديوس بجثته ووضعتها فى مجلس الشيوخ ثم أحرقت البناء فوقها ، وعندئذ جاء بومبى بجنوده وفرق الغوغاء وطلب إلى المجلس تعيينه « قنصلا بغير زميل » ، فخضع المجلس له . ومن ثم أصبح بومبي دكتاتوراً للدولة الرومانية . ولم يلبث أن اتخذ من ميتيليوس سيبيو والد زوجته الجديدة — وهي أرملة كراسوس — زميلا له فى القنصلية ، ثم راح يعمل على زحزحة قيصر عن منصبه ، كما راح يدبر الخطط لمحاكمته ، وقد نجح فى استصدار قرار من مجلس الشيوخ باعتبار قيصر عدواً للدولة . فما كان من قيصر إلا أن زحف بجيشه على روما ، وقد استسلمت له كل المدن التى مر بها فى طريقه إليها . وعندئذ فر بومبى من روما مع جيشه وعدد كبير من أعضاء مجلس الشيوخ والأشراف الموالين له ، وعبر البحر الأدرياتى ، فدخل قيصر روما عام ٤٩ قبل الميلاد بغير مقاومة وعينه مجلس الشيوخ دكتاتوراً ثم تعقب بومبى حتى لحق به فى تساليا ، وهناك التحم الجيشان الرومانيان المتعاديان فكان الأخ يقتل أخاه والقريب يذبح قريبه . ورغم قلة جنود قيصر بالنسبة لجنود بومبي فقد انتصر عليه فى فرساليا عام ٤٨ قبل الميلاد وقتل عدداً كبيراً من جنوده وأسر الباقين . وأما بومبى فقد فر مع زوجته إلى مصر لاجئاً إلى ملكها بطليموس الثالث عشر فوعده بحمايته ، ولكن أحد الأوصياء على الملك وهو أخيلاس إنتظر بومبى على الشاطىء وقتله تقرباً إلى قيصر وأملاً فى مكافأته . حتى إذا وصل قيصر إلى مصر أهداه رأس بومبى ، فما رآها حتى أشاح بوجهه وبكى .

وقد احتل قيصر الأسكندرية ، وأراد أن يظهر أمام الأهالى بمظهر صاحب

السيادة على البلاد فأقام فى قصر البطالمة ، ومن ثم استاء الأسكندريون وبدأوا يضمرون العداوة لقيصر . وكان أوصياء بطليموس الثالث عشر قد نفوا كليوبترا أخت الملك وشريكته على العرش فجمعت جيشاً وراحت تهاجم به حدود مصر



« كليو بترا »

الشرقية ، حتى إذا علمت بمقدم قيصر ذهبت إليه سراً ، فما رآها حتى افتتن بجمالها ، وأبقاها بجانبه ، وراح الإثنان يتصرفان كأنهما عشيقان مع أنها كانت عندئذ فى الثامنة عشرة من عمرها بينما كان هو فى السابعة والأربعين ، فامتلأ

الإسكندريون غيظاً وغضباً وأخذوا أرسينوى أخت كليوبترا إلى مدينة الفرما على حدود مصر الشرقية ونادوا بها ملكة ، ثم وضعوا بطليموس الثالث عشر على رأس الجيش وحاصروا الإسكندرية . ولما كان الجيش الذى يرافق قيصر لا يكفى لمقاومتهم أرسل يطلب النجدة من كريت ورودس وسوريا وكيليكيا ، وظل محاصراً مدة الشتاء ، فلما جاءته الإمدادات هجم على بطليموس الثالث عشر وقتله وقضى على الجانب الأكبر من قواته ، ثم أقام كليوبترا ملكة على العرش وأشرك معها أخاها الأصغر بطليموس الرابع عشر ، ثم ظل فى مصر بعد ذلك تسعة أشهر قضاها كلها بصحبة كليوبترا ، وقد حملت منه فى هذه الأثناء ولداً أطلقت عليه عند مولده إسم « قيصرون » .

وقد غادر قيصر مصر عام ٤٧ قبل الميلاد وزحف على سوريا للقاء فارنا كيس ، إبن ميثريداتس، وكان قد غزا بنطس فهزمه، ثم عبر إلى أفريقيا وقضى على أنصار بومبى فى تايسوس ونوميديا ، ثم ذهب إلي أسبانيا حيث أخضع المتمردين فيها ، ثم عاد إلى روما وقد تخلص من كل أعدائه ومنافسيه ، وأصبح السيد المطلق للدولة الرومانية ، بل أصبح سيد العالم. فما استقر المقام به فى روما حتى سارع إلى دعوة كليوبترا لتلحق به هناك ، فذهبت إليه مصطحبة إبنها قيصرون وأخاها بطليموس الرابع عشر ، وأقامت فى قصره العظيم المطل على النهر التيبر .

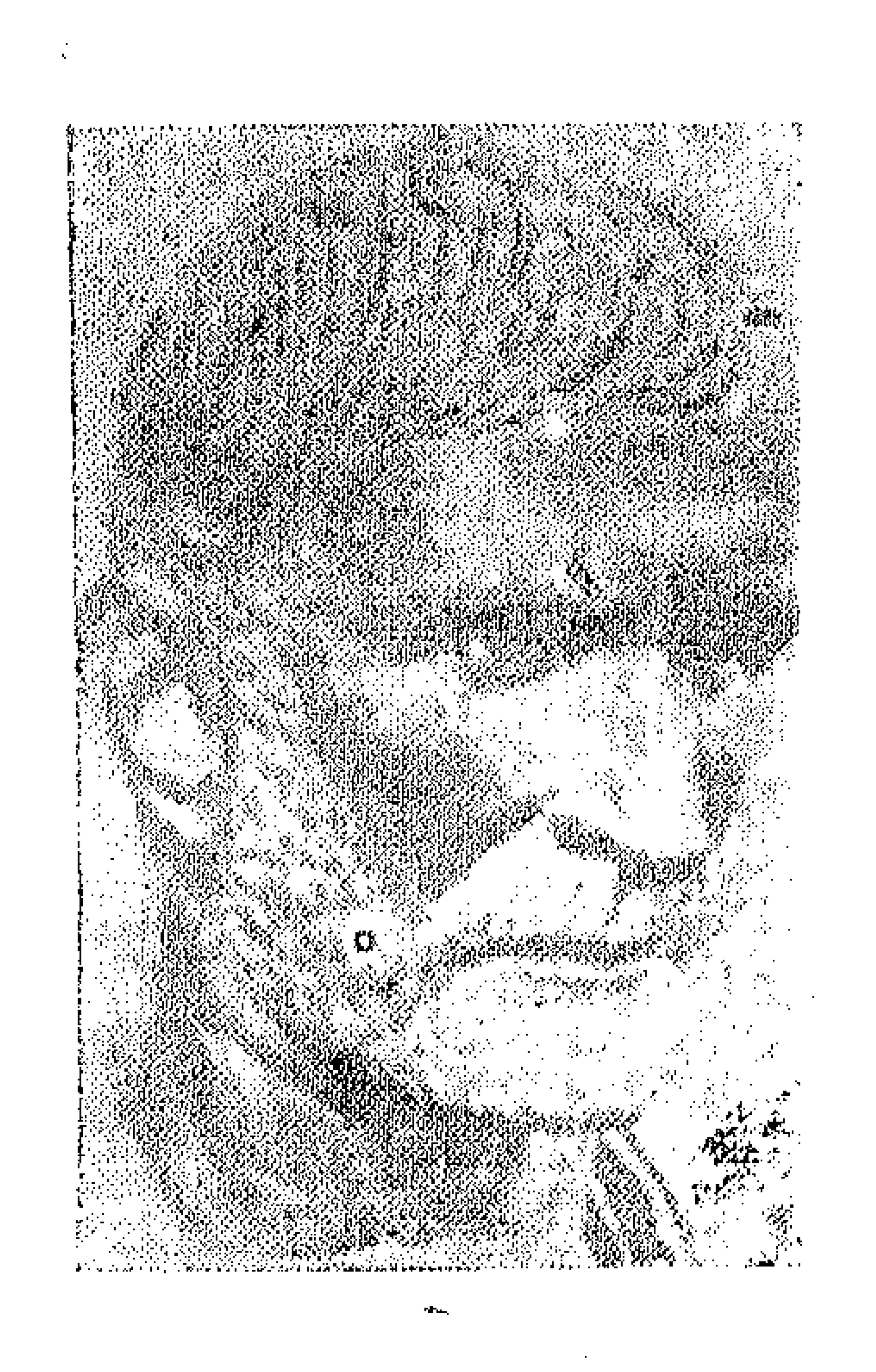
وقد اختير قيصر فى عام ٤٨ قبل الميلاد قنصلا ودكتاتوراً للمرة الثانية ، ثم منح القنصلية عقب موقعة فرساليا لمدة خمس سنوات ، وكان يجرى منحه الدكتاتورية سنويا . ثم أصبح بعد موقعة تايسوس دكتاتوراً لمدة عشر سنوات . وأصبح بعد موقعة موندا قنصلا لمدة عشر سنوات . وفى عام ٤٤ أصبح دكتاتوراً مدى

الحياة ، ومن ثم أصبح ملكاً بالفعل . وقد أخذ مجلس الشيوخ يتملقه ويغدق عليه ما فى وسعه من ألقاب التعظيم ، حتى لقد أطلق إسمه على أحد شهور السنة وهو شهر يوليو . وبذلك تضاءل سلطان مجلس الشيوخ أمام سلطان قيصر ، فلم يعد إلا هيئة إستشارية . وقد زاد قيصر عدد أعضائه من ستمائة إلى تسعمائة وأدخل فيه كثيرين من رجال الأعمال ومن مواطنى المدن الإيطالية والولايات الرومانية .

وقد أدارت كليوبترا رأس قيصر فتطلع لأن ينادى بنفسه ملكا ويتزوجها . ويصف بلوتارك حادثاً وقع فى مسرح الألعاب يدل على رغبته تلك ، فقد حاول أحد المقربين اليه وهو أنطونيوس أن يضع تاجاً على رأسه ، فكاد أن يوافقه على ذلك لولا أن رأى علامات الإستياء التى أبداها جمهور الشعب فى المسرح . غير أنه اتخذ لنفسه عرشاً وصولجاناً من العاج وهما الشارتان التقليديتان لملوك روما الأولين . وكما كان يطمح لأن يكون ملكا ، كان يطمح كذلك لأن يكون — على غرار ملوك الشرق — إلهاً . وقد وضع صورته بالفعل بين صور الآلهة فى موكب افتتاح حلبة المصارعة التى أنشأها ، كما أقام لنفسه تمثالا فى أحد المعابد منقوشاً على قاعدته عبارة « الإله الذى لا يُقهر » وخصص بعض الكهنة لعبادته .

وقد حقد أهل روما على قيصر لأنه منح كل مواطنى إيطاليا والولايات ما لأهل روما نفسها من حقوق ، كما حنقوا عليه بسبب ما رددته الشائعات من أنه يريد أن يتزوج كليوبترا وأن ينادى بنفسه ملكاً وينقل عاصمة الرومان إلى الأسكندرية ، فقرروا أن يقتلوه . واختاروا لتنفيذ مؤامرتهم ماركوس بروتوس

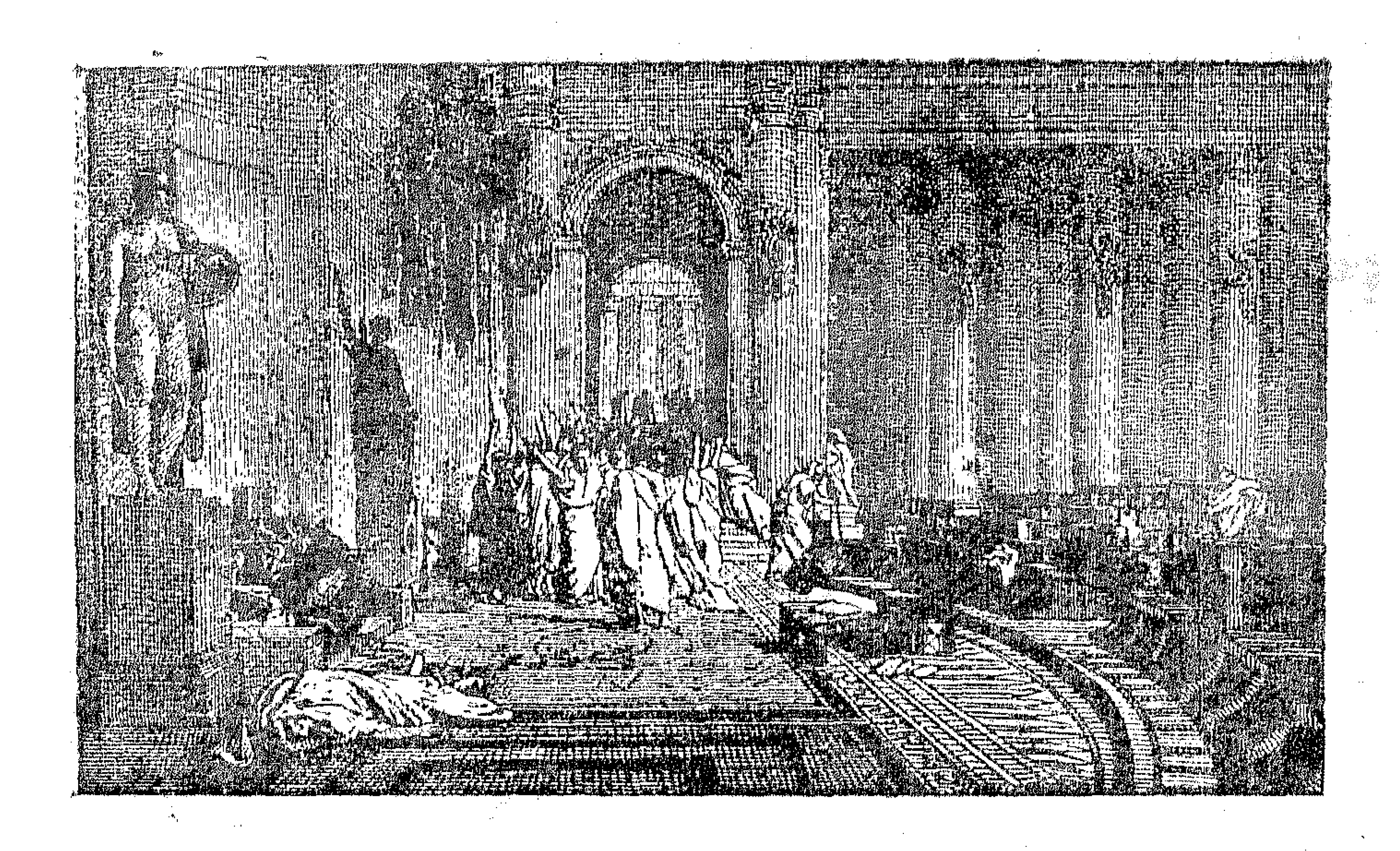
لأن قيصر كان يحبه ، بل أنهم كانوا يعتقدون أنه إبنه لأن أمه سرفاليا كانت حين أنجبته عشيقة قيصر . وفي يوم ١٤ مارس عام ٤٤ قبل الميلاد ، كان قيصر يقدم القربان في ساحة مجلس الشيوخ قبل انعقاد المجلس طبقاً لتقاليد . فهجم



« بروتوس »

المتآمرون عليه وعلى رأسهم كايوس وديكيموس بروتوس وماركوس بروتوس ، وطعنه هذا الأخير ، فنظر إليه قيصر في دهشة وقال باليونانية « حتى أنت ياولدي » ، ولكنه استمر مع زملائه يطعنونه حتى أصابوه في ثلاثة وعشرين موضعاً من جسمه ، فغطى وجهه بثوبه وخر صريعاً تحت قدمي تمثال خصمه المهزوم بومبي . وعندئذ استولى الذعر على أعضاء مجلس الشيوخ ففروا مهرولين في كل صوب ، وسار القتلة بأسلحتهم الملوثة بالدماء في شوارع المدينة فلم يعترضهم أحد . ثم لم يلبث الشعب أن انقلب عليهم وهاجم بيوتهم ففروا هاربين . وهكذا

إنهت حياة ذلك الطاغية الرومانى ، بذات الوسيلة التى طالما أنهى بها حياة الكثيرين . أما كليوبترا فقد هربت عائدة الى مصر .



« مقتل قيصر »

انطونيوس وأوكتافيوس

وقد انتقلت السلطة بعد قيصر إلى أنطونيوس وأوكتافيوس . وقد ولد أنطونيوس فى بلاد الغال عام ٨٢ قبل الميلاد وقضى الشطر الأكبر من حياته فى معسكرات الجيش ومجالس الشراب والعربدة والفجور ، وكان يحيط نفسه بالنساء الساقطات ، ومن بينهن عشيقة يونانية كان يصطحبها إلى كل مكان يذهب إليه . وكان سفيهاً مسرفاً ، إستدان ما قيمته مليون من الجنيهات ولم يسددها ، واشترى منزل بومبي فى المزاد العام ثم لم يدفع ثمنه . وإذ كان قائداً للفرسان فى جيش قيصر ومقرباً إليه ، إعتبر نفسه بعد مقتله خليفته ، فاستولى على أمواله الكثيرة ، ومنها

مبلغ كان قيصر قد تركه فى خزانته الخاصة وتبلغ قيمته خمسة ملايين من الجنيهات، كما كان منها مبلغ آخر كان قيصر قد أودعه فى هيكل آبس وتبلغ قيمته خمسة عشر مليوناً من الجنيهات ، غير المبالغ الطائلة التى كان قيصر قد تركها فى خزانة الدولة. ومن ثم أصبح أنطونيوس بين ليلة وضحاها أغنى رجل فى روما . وقد إرتاع مجلس الشيوخ من تزايد قوة أنطونيوس وتوجس خيفة من نواياه وأطماعه فبادر



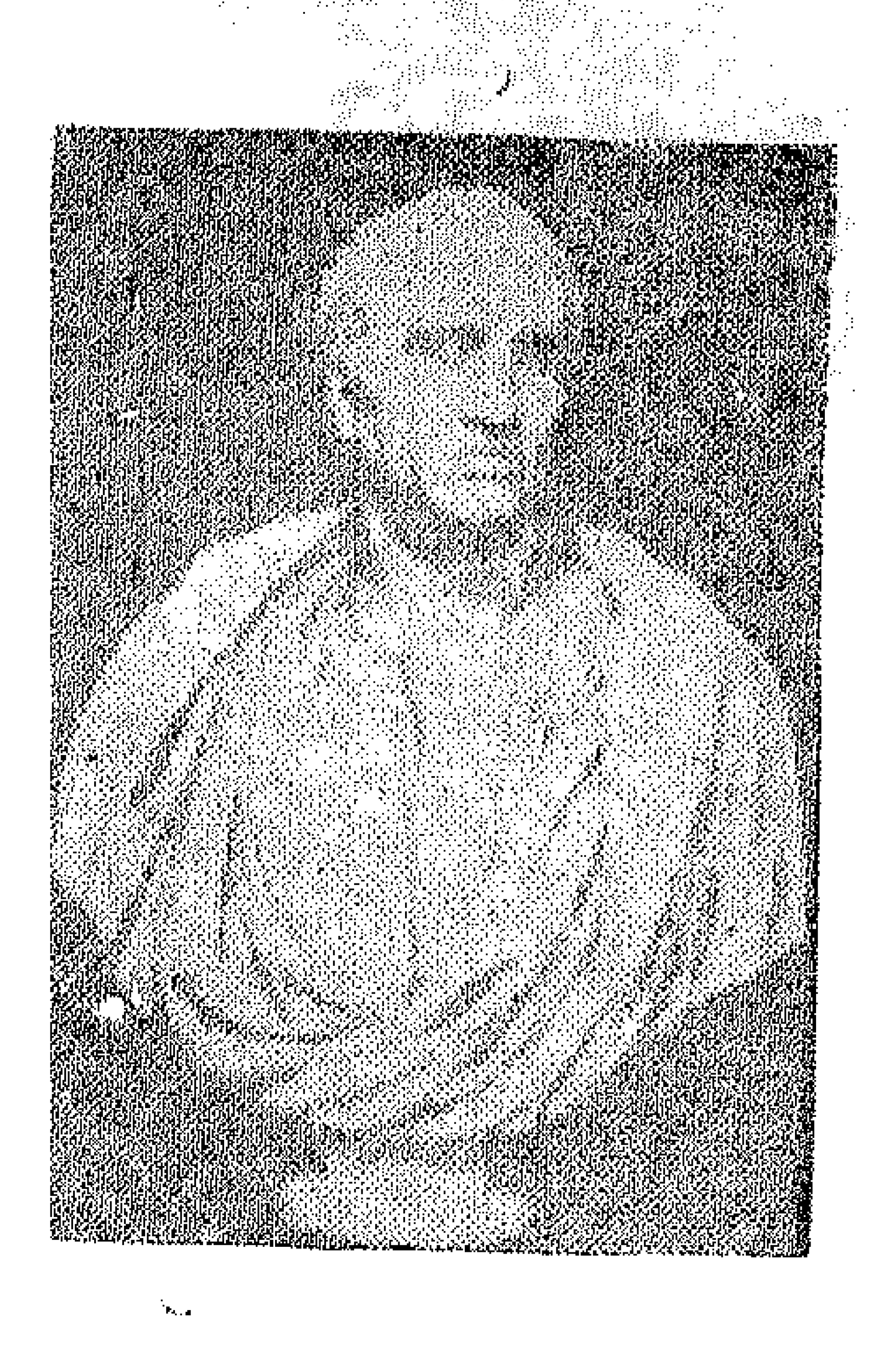
« أنطونيوس »

إلى إستدعاء كيوس أوكتافيوس كى يضارب به أنطونيوس ويكسر من شوكته .

وكان أوكتافيوس قريباً لقيصر ، وإذ لم يكن لقيصر أبنــاء من صلبه ، تبناه ورباه فى قصره ، ودربه على فنون القتال . وكان حين استدعاه مجلس الشيوخ فى الثامنة عشرة من عمره ، ولـكنه كان ذكيا شديد الطموح فأسرع إلى روما ، إلا أن أنطونيوس وقف فى وجهه ورفض أن يعطيه نصيبه من أموال قيصر ، فاقترض أوكتافيوس المال وانطلق إلى كمبانيا حيث جمع جيشاً من جنود قيصر القدامى

وسار على رأسه لمقاتلة أنطونيوس ولم يلبث أن هزمه فى مودينا وألجأه إلى الفرار، ثم دخل روما عام ٤٤ قبل الميلاد فعينه مجلس الشيوخ قنصلا . بيد أنه سرعان ماتبين له أن مجلس الشيوخ لايضمر له أى أى إخلاص أو ولاء ، وإنما يتخذه أداة مؤقتة للقضاء على أنطونيوس، فبادر إلى تسوية النزاع بينه وبين أنطونيوس وانضم إليهما ليبيدوس فى حلف ثلاثى يسميه المؤرخون « الحكومة الثلاثية الثانية » ، ثم زحف الثلاثة بجيوشهم على روما واستولوا عليها ففر كثيرون من أعضاء مجلس الشيوخ ، واعترفت الجمعية الشعبية بهذه الحكومة الثلاثية وخولتها سلطات كاملة لمدة خمسة أعوام . ولكي يتمكن الحكام الثلاثة من الحصول على المال اللازم لتعمير خزائنهم وأداء رواتب الجنود ، ومطاردة قتلة قيصر ، بسطوا على روما حكما رهيباً مروعاً أشاع فيها الرعب وأغرقها فى بحر من الدماء . فقد أعدوا قوائم بآلاف عديدة من أسماء خصومهم الذين قرروا قتلهم والاستيلاء على أموالهم . وكان منهم ثلاثمائة من أعضاء مجلس الشيوخ وألفان من الأشراف والأثرياء، وأعلنوا عن جائزة تبلغ قيمتها عشرة آلاف من الجنيهات لكل من يأتيهم برأس واحد من هؤلاء . وقد صبوا جام نقمتهم على كل من يملك مالا، فقتلوا كل الأطفال الذين تلقوا ميراثاً من آبائهم واستولوا على ميراثهم ، وانتزعوا من الأرامل ما ورثنه عن أزواجهن ، وأرغموا أربعة عشر ألف امرأة على التنازل لهم عن أغلب أملاكهن ، واغتصبوا حتى الأموال التى كانت مودعة عند « العذارى الفستية » فى الهيكل . وقد أقاموا حراساً على كل مخارج المدينة حتى لايفلت واحد ممن حكموا بإعدامهم، فكان أولئك يختبئون فى المرافق والآبار والبالوعات حتى يموتون جوعاً فى مخابئهم ، وقد يئس كثيرون منهم فألقوا بأنفسهم فى النهر أو فى النار أو من فوق أسطح المنازل ، أو شنقوا أنفسهم . وكان التريبون سلفيوس

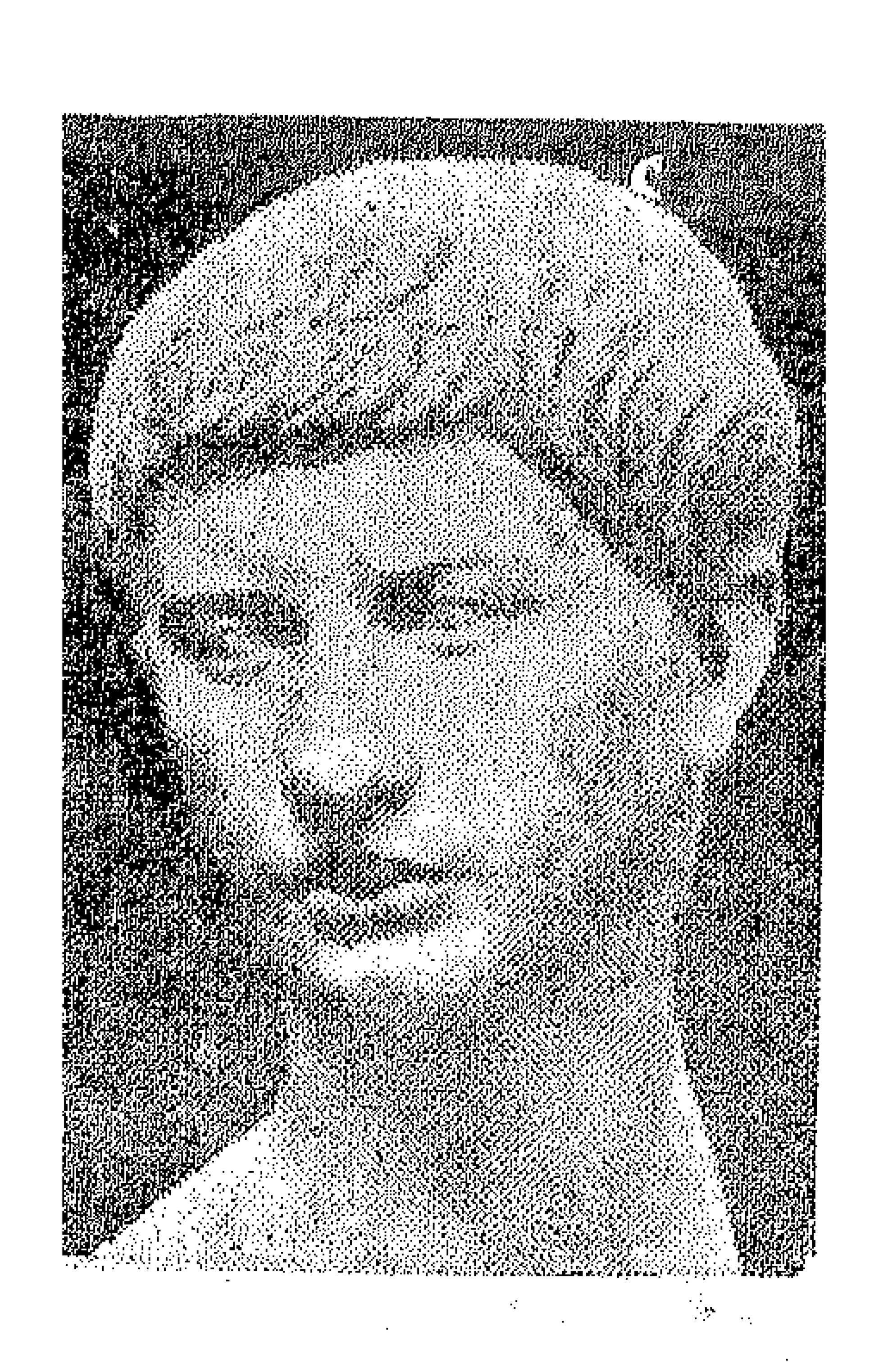
يعلم أنه من المحكوم عليهم بالإعدام فأقام وليمة وداع لأصدقائه ، وبينما هو جالس معهم على مائدة الطعام دخل عليه رسل الحكام الثلاثة وقطعوا رأسه وتركوا جسمه أمام المائدة وأمروا المدعوين أن يستمروا فى تناول الطعام . وقد مات بعض الأبناء دفاعاً عن آبائهم ، بينما وشى البعض الآخر بآبائهم طمعاً فى ميراثهم . وقد أنقذت زوجة كوبونيوس زوجها بأن وهبت جسدها لأنطونيوس . وكانت



« شيشرون »

فيلفيا زوجة أنطونيوس قد عرضت على جارها روفوس أن يبيع لها منزله فرفض ، حتى إذا بدأ الإرهاب قدمه لها هدية من غير ثمن ولكنها مع ذلك وضعت إسمه فى قائمة المحكوم بإعدامهم وقطعت رأسه ودقتها بالمسامير على باب ذلك المنزل . وكان الخطيب الرومانى شيشرون من خصوم أنطونيوس فأمر جنوده بأن يقطعوا رأســــه ويده اليمنى ، وحين رآهما مقطوعين ضحك فى شماتة وأمر بتعليقهما فى السوق العامة .

وفى هذه الأثناء كان قتلة قيصر قد فروا من روما فذهب كاسيوس إلى سوريا وذهب ماركوس بروتوس إلى مقدونيا وذهب ديكيموس بروتوس إلى بلاد الغال الألبية ، وهي أقطار كان مجلس الشيوخ قد عينهم ولاة عليها ، ومن ثم كان يمكنهم فيها أن يجمعوا الأموال ويعبئوا الجيوش لمقاومة حكام روما . وقد فعلوا ذلك بوسائل وإجراءات لا مثيل لها فى القسوة والوحشية . ومن ذلك أن



« بروتوس »

كاسيوس طلب من أهل رودس أداء الضرائب المفروضة عليهم فى عشر سنوات دفعة واحدة ، فلما أظهروا شيئاً من المعارضة فى تنفيذ هذا الطلب الجائر هجم عليهم بجيوشه وحاصر مدنهم ونهب أموالهم وقتل كل من اجترأ على مقاومته منهم . ثم فرض هذه المطالب ذاتها على أهل كيليكيا واحتل منازلهم بجنوده حتى يؤدوا ما فرضه عليهم فاضطروا بعد أن نزلوا له عن كل ما يملكون لأن يبيعوا أبناءهم في سوق الرقيق لوفاء ما تبقي عليهم ، وقد انتحر كثيرون منهم يأساً

وقنوطاً . كما باع كاسيوس سكان أربع مدن أخرى فى سوق الرقيق كذلك حين عجزوا عن وفاء ما عليهم . وفرض على اليهود فى فلسطين ما يوازى خمسة ملايين من الجنيهات فدفعوها صاغرين. وقد انتهج ماركوس بروتوس هذه الخطة أيضاً فى مقدونيا ، ففرض على مدنها أن تدفع ضريبة عشر سنوات ، حتى إذا عارضته هاجمها واغتصب الأموال منها اغتصاباً . وقد رفض أهالى إكسانتوس من أعمال ليديا مطالبه فظل يحاصرهم حتى نفدت مؤونتهم وانتحروا جميعاً . ثم فى عام ٤٢ قبل الميلاد عبر أنطونيوس وأوكتافيوس وليبيدوس على رأس جيوشهم البحر الأدرياتى واخترقوا مقدونيا إلى تراقيا حيث كان كاسيوس وبروتوس قد جمعا جيوشهما ، والتحم الفريقان فى فيلبى ، وقد دارت الدوائر على كاسيوس وبروتوس فانتحرا ، كما انتحر كثير من أنصارهما . واقتسم المنتصرون الإمبراطورية فيما بينهم : فاختار أنطونيوس البلاد الشرقية واختار أوكتافيوس البلاد الغربية واختار ليبيدوس أفريقيا وبلاد الغال .

وكان أنطونيوس دائم الحاجة إلى المال ، وقد انتهج فى سبيل الحصول عليه ذات الوسائل التى كان ينتهجها كاسيوس وبروتوس ، فراح يتهم بلاد الشرق بأنها أمدت أعداءه بالمال ، ثم عرض عليها أن يعفو عنها إذا أعطته مثل ما أعطت أعداءه ، أى ضرائب عشر سنوات دفعة واحدة ، ولما كانت هذه البلاد عاجزة عن أن تدفع هذا المال فقد اغتصبه منها اغتصاباً ، بأبشع الوسائل وأكثرها وحشية ، حتى جعلها معدمة فركعت عند قدميه يائسة مستسلمة . ولما كانت مصر من البلاد التى دخلت فى نصيبه ، فقد أرسل إلى ملكتها كليوبترا لتحضر أمامه فى أفسوس كى يوجه إليها ذات التهمة التى وجهها إلى سائر بلاد الشرق ويبتز منها المال كما فعل مع غيرها ، ولكن كليوبترا كانت تدبر له أمراً بطريقتها

النسائية فلم تلب دعوته ، فأرسل إليها مرة أخرى لتحضر أمامه فى كيليكيا ، فلبثت مدة طويلة لا تستجيب له ، ثم جاءت إليه أخيراً فى الوقت الذى اختارته وبالطريقة التى راقتها ، فوق سفينة رائعة ذات جدران ذهبية وأشرعة أرجوانية ، تتمايل فوق الماء على نغمات النــاى والقيثار ، وتتهادى بين أغنيات الجوارى الحسان ، وقد رقدت كليوبترا على عرشها الذهبى فى زى الإلهة فينوس ، متحلية بالجواهر ومتضوعة بالعطور ، ثم دعت أنطونيوس لأن يوافيها فى سفينتها ، فما رآها حتى أذهلته بجمالها ورقتها وأناقتها ، وأدارت عقله بأنوثتها التى سبق أن سلبت لب أستاذه قيصر من قبل ، فنسى الاتهامات التى كان قد أعدها ليوجهها إليها ، كما نسى أنه سيدها ، وارتمى عند أقدامها كالعبد الذليل . وقد بقيت معه بضعة أسابيع ، حتى إذا عادت إلى الأسكندرية سارع إلى اللحاق بها وبقى إلى جانبها عدة أشهر غارقاً فى الملذات التى أغدقتها عليه ، وناسيا امبراطوريته التى أصبحت بغير حاكم يرعاها ، ومن ثم انتهز الفرس هذه الفرصة واستولوا على سوريا وفينيقيا وكيليكيا فاضطر أن يرحل عام ٤٠ قبل الميلاد إلى صور . وفى هذه الأثناء كانت زوجته فلفيا وأخوها لوسيوس يحيكان المؤمرات فى روما للتخلص من أوكتافيوس ، فشن عليهما حرباً ضارية حتى أخضعهما ، فلما سمع أنطونيوس بذلك عاد إلى روما وحاصر جيوش أوكتافيوس ، ولكنه لم يلبث أن اصطلح معه . وفى هذه الأثناء ماتت فلفيا زوجة أنطونيوس فتزوج أوكتافيا أخت أوكتافيوس ، ثم عاد إلى سوريا واستردها من الفرس كما استرد منهم فينيقيا وكيليكيا . بيد أنه لم يلبث أن اشتاق إلى كليوبترا بعد أن غاب عنها أربع سنوات ، وكانت علاقتهما السابقة قد أثمرت طفلين توأمين هما اسكندر هيليوس وكليوبترا سيليني ، فطلب إلى كليوبترا أن توافيه فى أنطاكية .

وإذ كان يستعد لمعاودة الزحف على الفرس طلب منها كذلك أن تجيء معها بالمال والجنود ، فسارعت إليه كليوبترا بما يريد ، ومن ثم استأنف علاقته بها واعترف بالتوأمين اللذين أنجبهما منها ، ومنحها خالكيس وكل الأقاليم الممتدة بينها وبين مملكة هيرودس ، وكانت تشمل سوريا وفينيقيا وفلسطين ومملكة يهوذا وإقليم البنطيين وكويل وقبرص وجزءاً من كيليكيا . ولم تلبث كليوبترا أن أنجبت من أنطونيوس ولداً آخر أطلقت عليه اسم بطليموس فيلادلفوس .

وفي هذه الأثناء كان أوكتافيوس قد اغتصب من ليبيدوس بلاد الغال ، وشن الحرب على سيكستوس بومبي الذي كان قد اتخذ القرصنة حرفة له بعد موقعة موندا وسيطر على صقلية وسرديניا وكورسيكا وبلوبونيسيا ، فأخضعه واسترد هذه البلاد منه وأجبره على الفرار . وكان أنطونيوس قد قدم السفن لأوكتافيوس في حملته هذه على سكتوس ، فقدم له أوكتافيوس نظير ذلك قوة من الجنود لاستخدامها في حملته المرتقبة على الفرس إلا أن هذه الحملة فشلت فشلا ذريعاً وقد هزم الفرس أنطونيوس هزيمة منكرة وأبادوا أكثر من نصف جيشه فعاد إلي الأسكندرية وبقي فيها مع كليوبترا ، وإذ تأكد من عجزه عن غزو دولة الفرس أراد أن يشفي غليله في دولة أضعف منها فاجتاح أرمينيا وأسر ملكها وجاء به مكبلا بالأغلال إلى الاسكندرية حيث دخل دخول الظافر وأقام هناك احتفالاعظيما بالنصر وضع خلاله كل الغنائم التي جاء بها عندأقدام كليوبترا . ثم أعلن طلاقه من أوكتافيا وتزوج كليوبترا ونادى بها ملكة للملوك وقسم الممتلكات الرومانية على أبنائها فجعل قيصرون ملكاً مع أمه على مصر وفلسطين وقبرص ، واسكندر هيليوس ملكاً على أرمينيا وميديا وبارثيا ، وبطليموس فيلادلفوس ملكاً على سوريا وفينيقيا وكيليكيا وكل الأمم الممتدة

من غرب الفرات إلى الدردنيل ، وكليوبترا سيليني ملكة على ليبيا .

وقد غضب أوكتافيوس من تصرف أنطونيوس مع أخته وخاف من مطامعه فراح يؤلب الرأى العام فى روما ضده ، مثيراً حنق الرومان عليه لأنه احتفل بانتصاره في الأسكندرية وليس فى روما كما كانت تجرى التقاليد ، ولأنه وزع الولايات الرومانية على أبناء كليوبترا التى كان الرومان يكرهونها ويحتقرونها معتبرين إياها مجرد امرأة ساقطة . وقد استولى أوكتافيوس على الوصية التى كان أنطونيوس قد أودعها لدى العذارى الفستية وقرأها فى مجلس الشيوخ فتبين منها أن أنطونيوس قد أوصى بأملاك الدولة الرومانية لكليوبترا وأبنائها ، كما أوصى بدفن جثته بعد موته فى الأسكندرية بجوارها . فتحققت بذلك الشائعات التى كانت قد ملأت روما بأن أنطونيوس سينادى بنفسه ملكاً على الدولة الرومانية وينادى بكليوبترا ملكة عليها وينقل العاصمة من روما إلى الأسكندرية . ومن ثم نجح أوكتافيوس في إقناع مجلس الشيوخ بطرد أنطونيوس من منصبه وإعلان الحرب على كليوبترا ، ثم أبحر على رأس قواته التى كانت تتألف من ثمانين ألف جندى من المشاة وإثنى عشر ألفاً من الفرسان ، تحملهم أربعمائة سفينة . وفى ذات الوقت أبحر أنطونيوس وكليوبترا على رأس قواتهما التى كانت تتألف من ثلاثمائة ألف من المشاة وإثنى عشر ألفاً من الفرسان تحملهم خمسمائة سفينة . وقد تجمعت قوات الخصمين فى البحر اليونانى ، وظل الفريقان يستعدان للقتال عاماً كاملا . فلما كان اليوم الثاني من شهر سبتمبر عام ٣١ قبل الميلاد ، التحم الجيشان والأسطولان عند أكتيوم فى معركة من المعارك الحاسمة فى التاريخ . وقد ألقى جنود أوكتافيوس النار على سفن أنطونيوس فأحرقتها ، ويصف ديوكاسيوس ما حدث فيقول

« إن النار اندلعت فى السفن واتخذت منها وقوداً حتى أصبحت كالأتون المتقد ، وقد بلغ من شدة تأججها أن كان وهجها يقتل الجنود قبل أن تصل ألسنة النيران إليهم ، وقد سخنت الدروع التى عليهم حتى شوت لحمهم شيأً وانبعثت منهم رائحة كرائحة اللحم الذى ينضج فى الأفران . وقد ألقى الكثيرون منهم بأنفسهم فى البحر فكانت تلاحقهم سهام الأعداء فتقضى عليهم ، أو كانت تتلقفهم الحيتان فتلتهمهم ، أو كانوا لا يجدون ما يتشبثون به فيغرقون » .

ولما رأت كليوبترا أن الدوائر تدور على أنطونيوس ، تركته وهربت عائدة بأسطولها إلى الأسكندرية ، فتبعها أنطونيوس تاركاً جيشه وأسطوله تحت رحمة الأعداء . ولكن كليوبترا كانت قد نفضت يدها منه وقررت أن تحول دفتها نحو النجم الجديد الصاعد أوكتافيوس ، فراحت تحاول في الخفاء أن تستميله إليها ، وأرسلت إليه تاجاً وصولجاناً من الذهب دليلا على خضوعها له ، حتى إذا أقبل على رأس جيشه أوعزت إلي جنودها أن يمتنعوا عن قتاله فدخل الأسكندرية بغير مقاومة . ثم بعثت كليوبترا رسولا إلى أنطونيوس يخبره بأنها انتحرت ، اذ كانت توقن أنه يعبدها عبادة وأنه إذا سمع بموتها سيقضى على نفسه فى الحال . وفعلا حدث ما توقعته فقد انتحر أنطونيوس ، وأخلى بذلك السبيل بينها وبين مغامرتها الجديدة مع خصمه . ولكن أوكتافيوس كان أذكى من أن يقع فى حبائلها كما وقع من قبل زعيمه قيصر وزميله أنطونيوس ، وقد أراد أن يستدرج كليوبترا ليقبض عليها ويعرضها في موكب نصره حين يعود الى روما . بيد أن كليوبترا كانت كذلك أذكى من أن تتيح الفرصة لهذا الطاغية كى يذلها بعد أن كانت هى التى تذل الطغاة ، فتجرعت كأس الموت بيدها ، وكانت هذه هي الخاتمة الطبيعية لحياتها

الشريرة الشائنة . ولكنها لم تسقط وحدها ، وإنما سقطت مصر معها وأصبحت ولاية رومانية . وقد اعتبر مجلس الشيوخ الروماني يوم وقوع الأسكندرية في يد أوكتافيوس — وهو يوم أول أغسطس عام ٣٠ قبل الميلاد — عيداً قومياً تحتفل به روما كل عام .

الفصل الثاني

مظاهر الحضارة الرومانية

المبحث الأول

الحياة السياسية والاجتماعية عند الرومان

نظام الحكم

كان نظام الحكم عند نشأة روما — كما سبق أن رأينا — هو النظام الملكي. وكان ملوك روما الأوائل من اللاتين . ثم حين سقطت المدينة فى يد الأتروريين عام ٦١٨ قبل الميلاد جاس ملوك منهم على عرشها أكثر من مائة عام ، فلما استبدوا بالشعب ثار عليهم وطردهم عام ٥١٠ قبل الميلاد ، واستبدل النظام الملكي بالنظام الجمهوري .

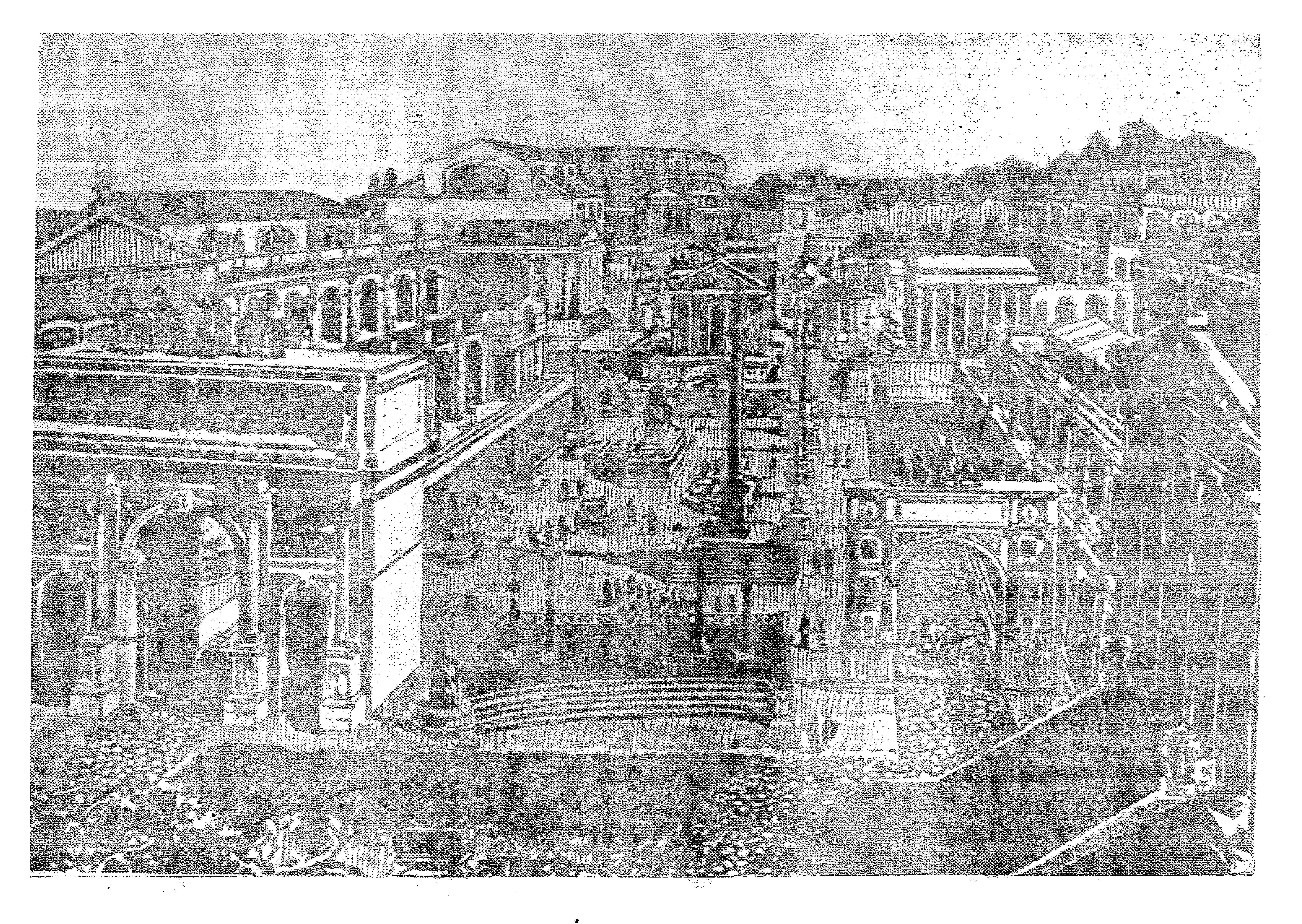
وكان دستور الجمهورية يقضى بأن يتولى الحكم قنصلان متساويان فى السلطة، يجرى انتخابهما كل عام ، ويتمتع كل منهما بالسلطة التى كان يتمتع بها الملوك . وهكذا كان الحكم ثنائياً. بيد أنه كان يمكن فى أوقات الخطر والأزمات الكبرى تعيين دكتاتور ينفرد بالحكم ويتمتع بسلطة مطلقة .

وكان الدستور يقضى كذلك بانتخاب إثنين متساويين فى السلطة مدة عام واحد لكل منصب آخر غير منصب القنصلية . ولم يكن يجوز للشخص الواحد أن يتولى المنصب أكثر من مرة واحدة كل عشرة سنوات . وكان ينبغي للشخص الطموح الذي يتطلع إلى الوظائف العامة فى روما أن يقضى فى الخدمة العسكرية

مدة لاتقل عن عشر سنوات ، ثم يرشح نفسه لمنصب محاسب ينظر فى إيرادات الدولة ومصروفاتها ، فإذا نجح فى ذلك أمكن ترقيته إلى منصب مشرف على المرافق العامة ، فإذا نجح فى ذلك كذلك يغدو مقدماً يتولى فى السلم منصب القضاء وفي الحرب قيادة الجيوش ، ثم يغدو بعد ذلك رقيباً على أعمال الدولة ، ثم يأتى بعد ذلك منصب القنصل وكان يؤخذ عادة من بعض العائلات الكبيرة المعروفة فى البلاد . وكان من أكبر المناصب كذلك منصب التريبيون ، الذى كان منوطا به حماية الشعب من عدوان الحكومة ، وكان من سلطته أن يوقف أى عمل من أعمال الحكومة إذا رأى أنه ينطوى على أى ضرر للشعب بأن يقول كلمة واحدة هى « فيتو » أى « أمنع هذا العمل » ، وكان يتمتع بالحصانة ، فاذا مسه أحد بسوء كان جزاؤه الإعدام .

وكان فى الجمهورية الرومانية هيئتان تتمتعان بنفوذ عظيم ، هما مجلس الشيوخ ، والجمعية الشعبية .

وكان مجلس الشيوخ هو الهيئة صاحبة السلطان الأعلى فى البلاد . وقد كان له أعظم الشأن فى تاريخ الدولة الرومانية ، وكان يتكون فى عهد الملكية من مائة عضو يعينهم الملوك ، ثم في عهد الجمهورية أصبح يعينهم القناصل وقد ارتفع عددهم إلى ثلاثمائة عضو ، ثم فى عهد سيللا إلى ستمائة ، ثم أخيراً فى عهد يوليوس قيصر إلى تسعمائة . وكانت عضوية مجلس الشيوخ تدوم مدى الحياة ، وكانت فى بداية الأمر قاصرة على طبقة الأشراف ، ثم تسرب إليها بالتدريج ولا سيما فى العصر المتأخر من الجمهورية عدد كبير من طبقة العامة . وكان هذا المجلس يجتمع فى الفوروم وهي السوق العامة ، أو فى أحد المعابد . إلا إنه إذا كان



« الفوروم الرومانى »

الغرض من اجتماعه مفاوضة السفراء الأجانب أو النظر فى شئون قواد الجيش ، كان يجتمع فى ساحة الإله مارس خارج المدينة .

أما الجمعية الشعبية فكانت تمثل كل الطبقات فى روما ، وقد اتخذت خلال التاريخ الرومانى أشكالا عديدة ذات أسماء مختلفة ، منها مجلس العامة ومجلس الأحرار والمجلس القبلى والمجلس المائوى . بيد أن الطابع الذى كان يجمع بين هذه المجالس كلها أنها تمثل الشعب أو هيئة المواطنين جميعاً . وقد كان هذا التمثيل ميسوراً فى البداية حين كانت روما مدينة صغيرة لا تزيد مساحتها عن عشرين ميلا مربعاً . أما حين اتسعت رقعتها وامتدت سطوتها حتى شملت إيطاليا كلها ، بل شملت أغلب دول العالم بعد ذلك ، إستحال تحقيق التمثيل الكامل لكل الشعوب الخاضعة لروما فى هذه المجالس فاستحالت فى الواقع إلى مجموعة من الغوغاء والمأجورين من أحط الطبقات فى روما ، ومن ثم ضاعت هيبتها وتلاشى نفوذها . وكانت طريقة انعقاد الجمعية الشعبية أن يطوف مناد بكل أنحاء المدينة معلناً عن موعد انعقادها ، ثم فى الليلة السابقة على هذا الموعد يجتمع العرافون ويفحصون أكباد الذبائح والقرابين ، فاذا وجدوا بها علامات سيئة ينصرف أعضاء الجمعية وينفض الاجتماع ، وإذا وجدوا بها علامات طيبة تنطلق الأبواق من الكابيتول وسائر أسوار المدينة معلنة انعقاد الجمعية ، وكانت تنعقد فى ساحة مكشوفة بالقرب من الكابيتول أوفى ساحة الإله مارس ، ويستمر انعقادها من مطلع الفجر حتى الغروب ، ويظل الأعضاء طيلة هذا الوقت وقوفاً فى العراء ، فلا سقف يظلهم ولا مقاعد يجلسون عليها . وقد كانت هذه الجمعية فى القرن الرابع قبل الميلاد رادعاً قوياً يكبح جماح مجلس الشيوخ ، ولكنها تعطلت وظيفتها بعد ذلك ولاسيما عقب الحروب البونية ، ولم يعد المواطنون البعيدون عن روما يهتمون أى

اهتمام بحضور اجتماعاتها ، حتى إذا اهتموا بمسألة من المسائل المعروضة على الجمعية وهرعوا الى المدينة لحضور اجتماعها ، كان فى الإمكان إرهابهم إذا كانوا غير مسلحين ، أو إتهامهم بالتآمر على سلامة الدولة إذا كانوا مسلحين ، ومن ثم يهاجمهم غوغاء روما وتدور بين الفريقين معارك رهيبة تؤدى إلى مذابح مروعة . ولذلك تعطل نشاط هذه الجمعية ، وانفرد مجلس الشيوخ بالنفوذ والسلطان ، وقد أصبح يملك السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية مجتمعة ، وأصبح — ولا سيما فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد — هو مصدر القانون ، وهو فى ذات الوقت فوق القانون . بيد أنه لم يلبث أن تفوقت على قوة مجلس الشيوخ قوة أخرى خلال القرن الأول قبل الميلاد هي قوة الجيش الذى أصبح يوجه مصائر الدولة الرومانية ، وأصبح قائده — ولا سيما منذ عهد يوليوس قيصر — هو الحاكم بأمره والمتحكم فى كل شيء . فانهار بذلك النظام الجمهورى الذى كان يقوم على تفويض الحكم إلى قنصلين متساويين في السلطة يساندهما مجلس الشيوخ والجمعية الشعبية ، وظهر النظام الإمبراطورى الذى كان يقوم على حكم الفرد يسانده الجيش .

وقد ظل النظام الجمهورى قائماً في روما خمسة قرون كاملة منذ إنشائه عقب سقوط الملكية عام ٥١٠ قبل الميلاد حتى قيام الإمبراطورية عقب انتصار أوكتافيوس فى موقعة أكتيوم عام ٣١ قبل الميلاد ، وانفراده بحكم الدولة الرومانية .

طبقات الشعب

كان المواطنون فى روما يشكلون طبقتين متميزتين ، إحداهما هى طبقة الأشراف ، وقد تكونت من كبار المالكين وأصحاب العائلات العريقة ، والأخرى هى طبقة العامة ، وقد تكونت من ذوي الثروات الصغيرة والحرف البسيطة . أما المعدمون والغرباء والعبيد فكانوا غير معتبرين من المواطنين ، وكانوا محرومين مما كان للمواطنين من حقوق ، ومعرضين لكل صنوف الظلم والمذلة والهوان .

وكانت طبقة الأشراف هى الطبقة الحاكمة فى روما، فكان أعضاء مجلس الشيوخ فى عهد الملكية وفى بداية عهد الجمهورية لا يؤخذون إلا منها ، كما كان حق انتخاب القناصل قاصراً عليها . أما العامة فلم يكن لهم أى صوت أو نصيب فى حكم البلاد ، وكانوا فى العهود الأولى محرومين من تولى الوظائف العامة كما كانوا محرومين من الاختلاط بالأشراف أو التزاوج معهم . وحين بدأت روما تغزو الممالك الأخرى ، كان العبء الأكبر فى القتال يقع دائماً على عاتق العامة ، إذ كانوا يضطرون إلى هجر مزارعهم أو موارد رزقهم المختلفة لينخرطوا فى سلك الجيش ، ومع ذلك لم يكونوا ينالون أى نصيب من الغنائم أو الأسلاب، إذ يستأثر بها الأشراف ، وقد كان هؤلاء يستغلون ميزاتهم السياسية أبشع استغلال ليجمعوا الثروات عن طريق الفتوح والغزوات ، لا على حساب الأعداء المهزومين فحسب ، وإنما كذلك على حساب العامة الفقراء من مواطنيهم . ومن ثم نشأت عداوة مريرة بين الأشراف والعامة . وكان تاريخ روما كله — ولا سيما فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد — قصة صراع بين هاتين الطبقتين .

وقد نشأت إلى جانب طبقة الأشراف الممتازة طبقة أخرى تشترك معها فى بعض امتيازاتها ، وتلك هى طبقة الفرسان الذين كانوا فى الأصل قوماً ذوى مكانة تؤهلهم لأن يقتنوا الخيل وينضموا إلى فرسان الجيش ، ويلتزموا طائفة من المبادىء والتقاليد الصارمة . بيد أنهم مع الوقت فقدوا كل صفة عسكرية أو عقلية أو خلقية ، وأصبحت الصفة الوحيدة التى تميزهم هى الثراء مصحوباً بقدر عظيم من الكبرياء . وإذ كانوا يحرصون على ثرائهم لأنه السند الوحيد لكبريائهم ، إضطروا لأن يشتغلوا بالتجارة وغيرها من الأعمال التى تدر الربح فأصبحوا هم الطبقة النشيطة فى المجتمع .

ولم تلبث — مع اتساع نطاق الدولة وازدياد ثروتها — أن ظهرت طبقة أخرى تنافس طبقتى الأشراف والفرسان فيما كان لهما من ثراء ونفوذ ، وتلك هى طبقة رجال الأعمال الذين خرجوا من صفوف العامة ، وكان لهم من الذكاء والدهاء ما أتاح لهم تكوين ثروات عظيمة ، وكانوا يبدأون فى العادة نشاطهم بالخدمة فى المرافق العامة للدولة كالمزارع والمناجم والمصائد والغابات وغيرها ، وكذلك بالتزام جباية الضرائب والإيرادات المستحقة للدولة ، حتى إذا اغتنوا كانوا يعملون متعهدين فى خدمة الجيش يمدونه بالسلاح والغذاء والكساء ، ثم يشترون منه الغنائم والأسلاب ويطرحونها فى الأسواق ، فلا يلبثون أن يجمعوا من كل ذلك ثروات طائلة يستخدمونها بعد ذلك في المضاربات المالية ويقرضونها بالربا الفاحش للدول والجماعات والأفراد . فلم تلبث هذه الطبقة من رجال الأعمال أن هيمنت فى وقت من الأوقات على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى روما ، وأصبحت تنافس طبقتى الأشراف والفرسان وتطغى عليهما . ولكن هذه الطبقات الثلاث كانت تشكل على الدوام جبهة متحدة ضد العامة

الفقراء ، وكان الصراع بين الجانبين لا يتوقف أو يهدأ فى أى وقت من الأوقات .

وقد كانت قوانين الجمهورية فى عهدها الأول شديدة الصرامة ولاسيما على الفقراء ، فقد كانت تبيح للدائن أن يسجن المدين ، وأن يبيعه بيع الرقيق بل وأن يقتله ، وكان فى وسع الدائنين المتعددين لشخص واحد إذا عجز عن أداء ديونهم أن يمزقوا جسده ويوزعوا أشلاءه فيما بينهم . وكان القانون مجموعة من العادات القبلية القاسية والطقوس الدينية الرهيبة ، وكان الكهنة والعرافون هم الذين يقررون ماهو حق وماهو باطل فى كل الأمور ، بعد أن يتظاهروا باستشارة الآلهة واستطلاع النجوم ، وإذ كان الكهنة خاضعين فى الواقع لنفوذ الأشراف الأثرياء ، كان العامة الفقراء على الدوام هم ضحية هذا النظام . ومن ثم صرخ العامة بالشكوى ، ولم يلبثوا أن ثاروا فى عام ٤٩٤ قبل الميلاد مطالبين بإلغاء القوانين الجائرة ، وإعفائهم من الديون الباهظة التى تراكمت عليهم ، ومنحهم حق المشاركة في اختيار الحكام والتزاوج مع الأشراف . إلاأن مجلس الشيوخ رفض هذه المطالب ، فأعلن العامه العصيان ، ونزح جمهور غفير منهم إلى الجبل المقدس الذى يبعد عن روما نحو ثلاثة أميال وهناك أعدوا العدة لإنشاء مدينة جديدة يقيمون فيها ، وعندئذ رضخ مجلس الشيوخ ووافق مضطراً على إجابة العامة إلى بعض مطالبهم ، ومن ثم عادوا إلى روما . ولكن مجلس الشيوخ لم يلبث أن أنكر عليهم ماسبق أن منحهم من حقوق ، فوقعوا مرة أخرى تحت نير الظلم والطغيان ، إذ لم يكن بيدهم أى قانون مكتوب يحتمون به أو يستندون إليه فعادوا يطالبون بتدوين القوانين التى تكفل لهم الأمان والعدل ، وراحوا

يهددون بالعصيان من جديد ، ومن ثم اضطر مجلس الشيوخ مرة أخرى أن يذعن لهم وقام في عام ٤٥٤ قبل الميلاد بتشكيل لجنة من عشرة رجال عكفوا على دراسة شرائع صولون وغيره من المشرعين ، ووضعوا مجموعة من القوانين دونوها في إثنتي عشر لوحة ، فكانت هذه هي الأساس الأول للقانون الروماني . ولكن الأشراف عملوا على الحيلولة دون تنفيذ هذه القوانين ، ونهض أحد زعمائهم وهو أبيوس كاوديوس ينادي بالغائها ، فانسحب العامة مرة أخرى إلى الجبل المقدس ومن ثم رضخ الأشراف وانتحر أبيوس كاوديوس .

وفي عام ٤٤٨ قبل الميلاد ثار العامة بسبب مايلقون من ظلم الحكام وطالبوا بأن يكون لهم نصيب في وضع القوانين ، فرضخ القنصلان فاليريوس وهوراسيوس لمطالبهم وأصدر سلسلة من التشريعات أرغمت الحكام على السماح باستئناف ما يصدرونه من أحكام ، وجعلت لقرارات الجمعية الشعبية قوة القوانين .

وقد حلت بالبلاد في عام ٤٤٠ قبل الميلاد مجاعة رهيبة ذهب ضحيتها عدد عظيم من العامة ، فظهر بينهم زعيم يدعى سبيريوس ميليوس وحاول أن يقبض على زمام الحكم لينصف العامة من الأشراف ، ولكن الأشراف قبضوا عليه وذبحوه .

وبعد أن نهبت قبائل الغاليين روما عام ٣٩٠ قبل الميلاد . كابد العامة أشد صنوف العسر والعناء من جراء ماأنزله المغيرون ببيوتهم وممتلكاتهم من خراب ، وقد تركوها قاعاً صفصفاً ، فلم يكن ثمة واحد من العامة لم يقع فريسة الدين بعدذلك ليعيد بناء بيته ، ويملأه كما كان بالماشية والأغنام ، ومن ثم انتهز الأشراف هذه الفرصة لتكبيل العامة بأغلال ثقيلة من الديون ذات الفوائد الباهظة والربا

الفاحش ، حتى إذا عجزوا بعد ذلك عن سدادها وقعوا فريسة أبشع أنواع التنكيل والتعذيب ، وقد كان ثمة قائد شهم يدعى ماركوس مانيليوس ، كان مكلفاً بحراسة الكابيتول حين أغار عليه الغاليون وحاصروه فظل يدافع عنه حتى أعجزهم عن اقتحامه فانصرفوا عنه مدحورين . وقد أشفق هذا القائد على العامة مما يلاقون من عسف الأشراف وطغيانهم فأنفق ثروته كلها فى وفاء ماعلى المدينين الفقراء من ديون ، ومن ثم أثار حنق الأشراف عليه فاتهموه بأنه يهدف لأن يقيم نفسه طاغية فى روما وحكموا عليه بالموت ، ثم ألقوا به من فوق قمة الكابيتول ، الذى سبق له أن دافع عنه دفاع الأبطال .

بيد أنه لم يلبث أن ظهر بعد سنوات قليلة رجل آخر عطف على العامة وتولى زعامتهم وهو التربيون ليسينيوس الذى تحدى الأشراف بأن اقترح عام ٣٧٦ قبل الميلاد إصدار مجموعة من القوانين أصبحت تحمل اسمه ، وهي المعروفة بالقوانين الليسينية ، وتقضي بتوزيع الأراضى العامة على المواطنين جميعاً ، والإعفاء من سداد فوائد الديون ، وتحتيم اختيار أحد القنصلين من العامة . ومن ثم جن جنون الأشراف واستولي عليهم الفزع ، واعتبروا أن محاولة إصدار هذه القوانين كارثة تستوجب اللجوء إلى ذلك الإجراء الذى لم تكن روما تلجأ إليه إلا عند نزول الكوارث ، وهو تعيين دكتاتور ينفرد بالحكم لينقذ البلاد مما يحيق بها من أخطار ، فبادروا إلى تعيين القائد كاميليوس دكتاتوراً ، وعهدوا إليه بالقضاء على ثورة العامة ، ولكن كاميليوس عجز عن ذلك ، ولم يجد بداً من أن يتفاوض مع العامة ويصل إلى وفاق معهم ، ثم أقام لتخليد ذلك معبداً سماه « معبد الكونكور » أى معبد الوفاق . ولكنه كان وفاقاً كاذباً ، لأن الأشراف رضخوا له بعض الوقت صاغرين ثم لم يلبثوا أن غدروا بالعامة

وساموهم الذل والهوان ، حتى انتهى بهم الأمر بالعامة إلى الثورة مرة أخرى عام ٢٨٧ قبل الميلاد ، وقد هاجروا هذه المرة كذلك إلى الجبل المقدس ، فأصدر الدكتاتور كوينتوس هورتنسيوس تشريعاً يمنح أحكام الجمعية الشعبية قوة القانون ، ويكفل المساواة القانونية الكاملة بين الأشراف والعامة . بين أن هذه المساواة ظلت مع ذلك نظرية ، وظل التفاوت قائماً من الناحية الفعلية بين الطبقتين . ولم يلبث مجلس الشيوخ الذى يمثل الأشراف أن استعاد سلطانه وأصبح هو الذى يضع القوانين دون سواه ، فاستبد بالعامة بعد ذلك طوال قرنين من الزمان ، ومن ثم استمر الصراع بين العامة والأشراف .

ولم يلبث أن ظهر فى عام ١٣٣ قبل الميلاد زعيم قوى الشكيمة أثار قضية العامة من جديد ونصب نفسه مدافعاً عنها ، وذلك هو التربيون تيبريوس جراكوس ، الذى هاجم طبقة الإقطاعيين ونادى بوجوب إصدار قانون الإصلاح الزراعى يعيد توزيع الأرض على المواطنين توزيعاً عادلا بحيث لا يزيد ما يملكه الفرد من الأرض عن خمسمائة يوجيرا ، أى نحو ثلاثمائة فدان . أما الفائض من الأرض بعد ذلك فينبغى تقسيمه على المواطنين الفقراء . وقد تقدم تيبريوس بهذا الاقتراح إلى الجمعية الشعبية فوافقت عليه ، ولكن مجلس الشيوخ عارضه معارضة عنيفة وأعلن عليه كبار الملاك حرباً مسعورة ، ومن ثم تحول تيبريوس إلى الشعب وسلك سبيل العنف مطالباً بقيام حكومة شعبية ، وإذ كانت مدة منصبه باعتباره تربيوناً قد انتهت رشح نفسه للمرة الثانية ، فحضر الفلاحون من الريف ليعطوه أصواتهم ، فقاومهم مجلس الشيوخ بالقوة المسلحة وقتل ثلاثمائة منهم ، كما قتل تيبريوس نفسه وألقى بجثته فى نهر التيبر وأهدر دم الآلاف من أنصاره وصادر أملاكهم ، معتقداً بذلك أنه أخمد الثورة فى مهدها ، ولكنها

لم تلبث أن اندلعت من جديد بعد ذلك بعامين على يد التريبيون كايوس جراكوس ـ وهو شقيق تيبريوس جراكوس ـ إذ وضع برنامجاً إصلاحياً أشد جرأة وتطرفاً من برنامج أخيه للأخذ بيد العامة ، وهو يتضمن ثلاثة تشريعات يقضى أولها بإحياء قانون الإصلاح الزراعي الذى سبق أن اقترحه تيبريوس جراكوس ، ويقضى التشريع الثانى بإلزام الحكومة بأن تقدم القمح للفقراء بسعر معتدل لحمايتهم من المضاربة التجارية التى تؤدى بهم إلى المجاعة ، ويقضى التشريع الثالث بتأسيس ثلاث مستعمرات فى كابوا وتارنتوم وقرطاجنة وتخصيصها للجنود القدامى المعدمين الذين يؤلفون الغالبية العظمى من عامة روما . وقد وافقت الجمعية الشعبية على هذا البرنامج ، ولكن مجلس الشيوخ رفضه وأطلق أعوانه على كايوس جراكوس فذبحوه فى شوارع روما مع ثلاثة آلاف من أنصاره ، وجاءوا برأسه إلى المجلس مرفوعاً على حربة ، ويقول بلوتارك أن المجلس وعد قاتل كايوس بجائزة تعادل وزن رأسه ذهباً ، فما كان من القاتل إلا أن حشا الرأس المقطوعة بكتلة ثقيلة من الرصاص قبل وزنها . وقد صادر مجلس الشيوخ أموال كايوس ، ومنع أمه من أن تلبس ثياب الحداد عليه ، ولاحق أقاربه وأصدقاءه ، بل لاحق ذكراه نفسها بأبشع صور الانتقام والتشفى . ومن ثم لم يعد للفقراء من يحميهم أو يدافع عنهم ، وقد ازداد حالهم سوءاً بعد أن خسروا كل شيء .

بيد أن العامة ظلوا بعد ذلك لا ينقطعون عن التذمر والثورة ، وظل مجلس الشيوخ يقف لهم بالمرصاد ويقتل زعماءهم : ففى عام ١١٠ قبل الميلاد قتل جلوكيا وساترنينوس . وفى عام ٩٢ قبل الميلاد قتل روتيليوس روفوس ، ثم فى العام التالى قتل ليفيوس دروسوس . وكان مقتل دروسوس هو الشرارة التى أشعلت نار

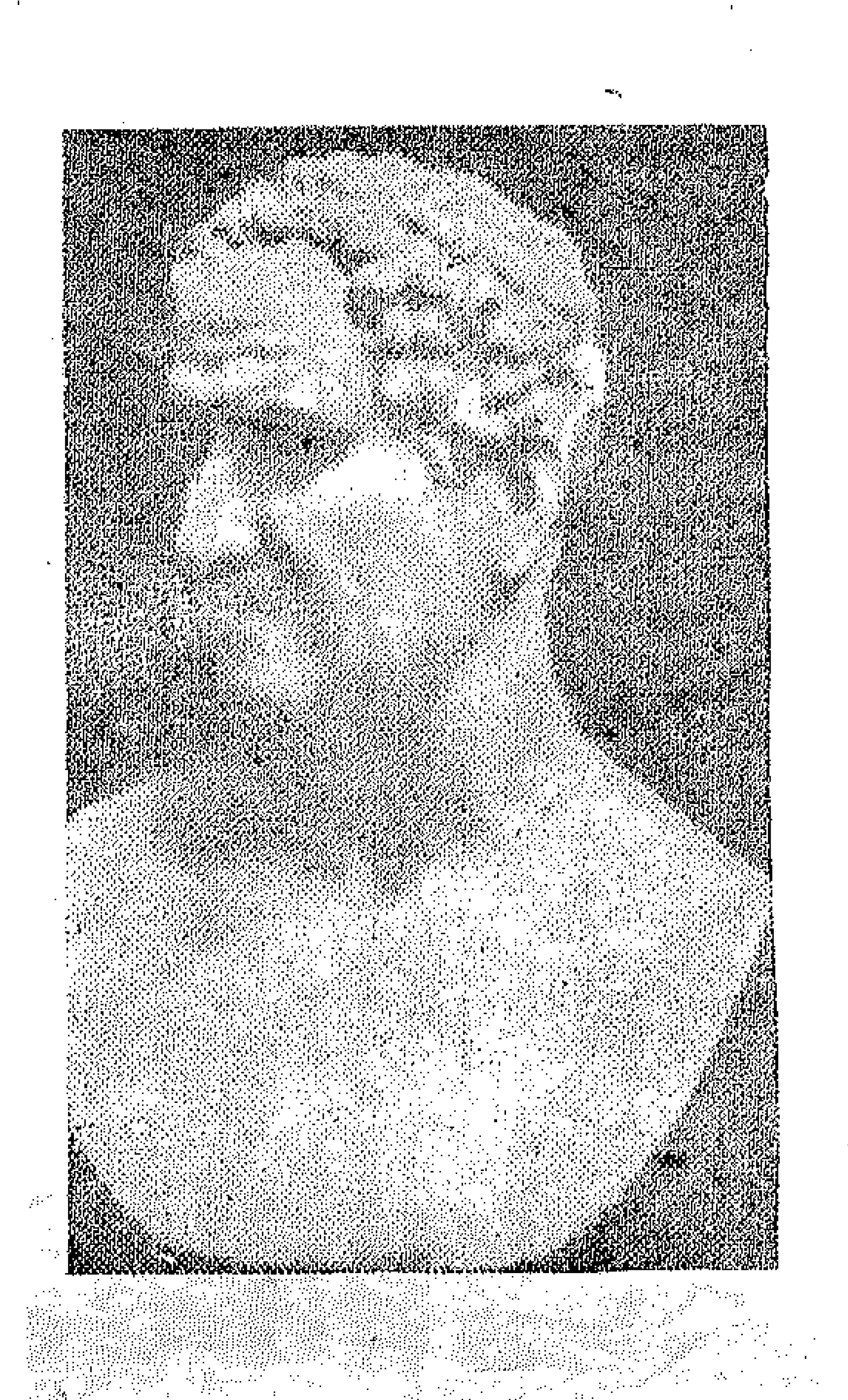
حرب أهلية ضارية إستمرت عامين كاملين وشملت إيطاليا كلها ، وكانت فى الحقيقة حرباً بين روما وحلفائها من الولايات الإيطالية . وكان ماريوس وسيللا يقودان جيوش روما ، حتى إذا إنتهت الحرب عام ٨٩ قبل الميلاد ، كان ماريوس قد أحاط نفسه بجمهرة من الجنود المحترفين الذين لا يتناولون رواتب وإنما



« ماريوس »

يعتمدون على الغنائم والأسلاب . وكان ثمة فى ذلك الحين زعيم شعبى محبوب هو التريبون ساالبيكيوس ، وقد تحالف مع ماريوس ورشحه لأن يقود جيوش روما ضد ميثريداتس ملك بنطس فى حربه الأولى ضد روما . وإذ كانت القيادة قد سبق أن عقدت للشريف سيللا ، فقد نشب الصراع بين العامة يتزعمهم

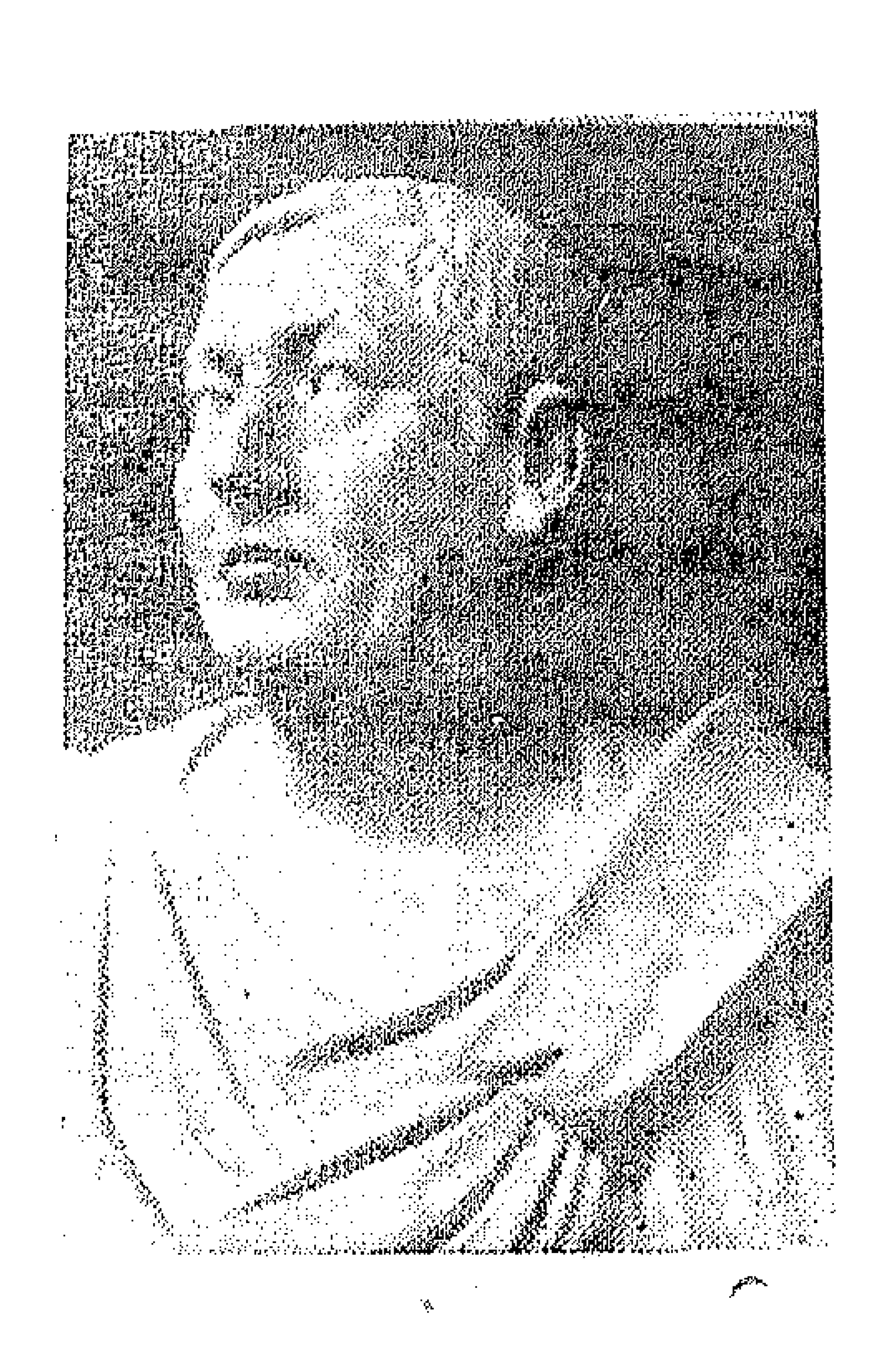
سالبيكيوس وماريوس ، وبين الأشراف يتزعمهم سيللا . وقد زحف سيللا على روما وذبح سالبيكيوس . أما ماريوس فقد فر إلى أفريقيا . وبذلك أصبح سيللا هو القنصل الأول ، وقد سمح باختيار نيوس أوكتافيوس وكورنيليوس سينَّا قنصلين عام ٨٧ قبل الميلاد ثم سار على رأس الجيش للقاء ميثريداتس . ولكنه لم يكد يغادر إيطاليا حتى قام الصراع من جديد بين الأشراف يتزعمهم أوكتافيوس



« سيللا »

والعامة يتزعمهم سينَّا . وقد اشتبك الفريقان في السوق العامة فقتل منها عشرة آلاف في يوم واحد ، وأسفرت المعركة عن انتصار أوكتافيوس ففر سينَّا إلى المدن المجاورة حيث جمع قوة من ستة آلاف رجل وعاد بها إلى روما وذبح عدة آلاف من الأشراف ، وسار مع أنصاره في الشوارع يحملون رؤوسهم المفصولة على أسنة الرماح ، ثم دخلوا مجلس الشيوخ فذبحوا أوكتافيوس وهو جالس على مقعده

وذبحوا كل الشيوخ الموالين له قبل أن يبرحوا مكانهم ، ثم أقام ماريوس محكمة شعبية أصدرت حكمها بالموت على عشرات الألوف من الأشراف وصادرت أملاكهم ، ولم تسمح بدفن جثثهم فظلت ملقاة فى الشوارع تأكلها الكلاب . وقد انتهز بعض الغوغاء هذه الفرصة وراحوا ينهبون المدينة فجمع أربعة آلاف منهم وذبحهم جميعاً . حتى إذا سمع سيللا بما يحدث فى روما أنهى حربه مع ميثريداتس وعاد



« ماريوس »

يزحف بجيوشه على روما ، وقد حاول سينـّا أن يوقف زحفه ولكن جنوده قتلوه فدخل سيللا إلى روما دون مقاومة وقتل أربعين من الشيوخ وألفين وستمائة من رجال الأعمال الذين كانوا قد ناصروا ماريوس وعلق رؤوسهم جميعاً فى السوق العامة ، وظل يطارد أنصار ماريوس ويقتلهم فى كل أنحاء إيطاليا حتى بلغ ضحاياه نحو خمسة آلاف نفس . ويصف فلوطارخوس هذا الإرهاب قائلا : « إن رجال سيللا كانوا يذبحون الأبناء وهم على صدور أمهاتهم ، والأزواج

أمام أعين زوجاتهم » . وحتى الذين كانوا قد وقفوا على الحياد فتك بهم سيللا واستولى على أملاكهم وأنفقها على شهواته وملذاته . ثم لم يلبث العامة أن وجدوا لهم زعيما آخر فى شخص لوسيوس سرجيوس كاتيلين ، الذى كان يهاجم الأشراف ويحرض العامة قائلا لهم إنه « منذ أن وقعت الدولة فى قبضة عدد قليل من أقوياء الرجال ، أصبح لهم فيها كل النفوذ والثروة ، ولم يتركوا للعامة غير المخاطر والمحاكمات والفقر . . فماذا بقى لنا فى الحياة إلا الأنفاس التى تتردد فى صدورنا ؟ أليس خيراً لنا أن نموت شجعاناً من أن نعيش حياة ذليلة بائسة نظل خلالها ألعوبة فى أيدى السفهاء ؟» . وفى عام ٦٤ قبل الميلاد رشح كاتيلين نفسه للقنصلية ضد شيشرون ، فتعاون الأشراف مع شيشرون ضده، ومن ثم عبأ كاتيلين فى أتروريا جيشاً من عشرين ألف مقاتل ، وتقدم للقنصلية مرة أخرى فى العام التالى مسنوداً بقوة السلاح ، وقد بعث إلى مجلس الشيوخ رسالة يقول فيها « إننا لنشهد الآلهة والناس على أننا لم نمتشق الحسام لنقاتل به وطننا أو نهدد سلامة مواطنينا ، وإنما الذى يدفعنا نحن المعدمين البائسين إلى هذا السبيل هو رغبتنا فى أن نحمى أنفسنا من الظلم . وأما المال والسلطان وهما أكبر أسباب النزاع بين بنى الإنسان فلا مأرب لنا فيها ، وإنما كل الذى نطالبه هو الحرية . . وإننا لنتوسل إليكم أيها الشيوخ أن تستشعروا الرحمة نحو بنى وطنكم وتعاملوهم بالعدل » . ولكن مجلس الشيوخ قبض على عدد كبير من أتباع كاتيلين وقتلهم ، ثم أرسل ماركوس أنطونيوس على رأس جيش لمقاتلة كاتيلين ، فقتله وأفنى جيشه عن آخره . وهكذا استمر الصراع بين الأشراف والعامة خلال القرن الأول قبل الميلاد ، وكانت كل من الطبقتين تسعى لأن تكون هى الحاكمة بأمرها ، وتلجأ فى سبيل ذلك إلى ضروب العسف والعنف والإرهاب . وكان الأشراف قوماً شرهين شرسين لا يرعون قانوناً ولا

ضميراً ولا يتورعون عن أى عمل متوحش دنىء فى سبيل الحصول على المال والوصول إلى السلطان ، وكان العامة لا يقلون عن الأشراف شرهاً ولا شراسة ولا وحشية ولا دناءة ، فى سبيل الحصول كذلك على المال والوصول إلى السلطان . فكانت وسيلة الطبقتين واحدة وغايتها واحدة ، وكانت الغلبة للأقوى منها . وقد ظلت طبقة الأشراف هى الغالبة ، وظل مجلس الشيوخ الذى يمثلها ويساندها هو صاحب السلطة العليا فى الدولة الرومانية حتى منتصف القرن الأول قبل الميلاد ، حين سقط النظام الجمهورى ، وطغت قوة الجيش على مجلس الشيوخ فى ظل النظام الإمبراطورى ، فاشتد ساعد طبقة العامة وتساوت الطبقتان فى الخضوع للجيش ، وعلى رأسه الإمبراطور .

العبيد

وكانت الظاهرة التى يتميز بها المجتمع الرومانى ولاسيما فى عصر التوسع والثراء هى العدد الضخم الذى به من العبيد ، حتى لقد كان العبيد فى روما أكثر من الأحرار ، وحتى قيل إن الدولة الرومانية هى دولة عبيد . وكان الاستعباد فى روما أكثر وحشية من الاستعباد فى بابل ، إذ كان القانون الرومانى يعتبر العبد شيئاً وليس شخصاً ، أى جماداً وليس إنساناً ، فكان من حق سيده أن يتصرف فيه كما يتصرف فى أى متاع يملكه ، فيبيعه أو يؤجره أو يرهنه أو يعدمه ، أو يستغله كما يتراءى له وبالطريقة التى تروقه ، فيجعله خادماً فى بيته ، أو زارعاً فى حقله ، أو عاملا فى مصنعه . وكان منهم من يقيد عبده بالأغلال ليلا ثم يدفعه بالسياط إلى العمل نهاراً ، كما كان منهم من يلقى عبده فى جب تحت الأرض أثناء الليل ثم يقسره على أن يعمل وقدماه مكبلتان بالحديد أثناء النهار . فإذا تذمر

العبد كواه سيده بالنار أو فقأ عينه أو بتر ذراعه أو سلخ جلده أو أنزل به أى لون آخر من ألوان التعذيب التى لا تخطر ببال إنسان من فرط فظاعتها ووحشيتها. أما إذا رأى أن يقسو عليه أكثر من ذلك قتله . ولم يكن من حق العبد أن يتزوج أو ينجب أولاداً ، فإذا فعل ذلك أمكن لسيده أن ينتهك عرض زوجته دون أن يجرؤ على الاعتراض ، أو ينتزع منه أولاده ليبيعهم أو يتصرف فيهم أى تصرف يؤدى إلى فصلهم عنه إلى الأبد . فاذا ثار عبد وقتل سيده ، كان جزاؤه الصلب هو وكل عبيد ذلك السيد . فاذا عرفنا أن أغلب أولئك العبيد الذين يسامون كل هذا العذاب والهوان كانوا أحراراً قبل استعبادهم وكان بعضهم من عظماء قومه أو من السادة الأثرياء المترفين فى بلاده ، أمكننا أن نتصور ما كانوا يعانونه من محنة لا يتصورها العقل ولا تحتملها العاطفة .

وقد تدفق العبيد على روما عقب الحروب التى شنتها والفتوح التى قامت بها ، فكان كل من يقع من الأسرى فى تلك الحرب والفتوح يباع فى سوق العبيد . ومن ذلك أن الجيوش الرومانية أسرت عام ١٧٧ قبل الميلاد أربعين ألفاً من أهل سردينيا ، وأسرت عام ١٦٧ قبل الميلاد مائة وخمسين ألفاً من أهل أبيروس . وقد أصبح هؤلاء كما أصبح مئات الألوف غيرهم من الأسرى عبيداً بيعوا بأبخس الأثمان، إذ كان ثمن الواحد منهم لا يزيد عما يعادل خمسين قرشاً . وكان ثمة فضلا عن أسرى الحروب أعداد ضخمة من ضحايا القراصنة الذين كانوا يقتنصون الأحرار من سواحل البحار وضفاف الأنهار ويبيعونهم فى أسواق الرقيق ، فلم يكن يمضى يوم لا يأتى فيه القراصنة بفرائسهم البشرية من أفريقيا وآسيا وبلاد اليونان وأسبانيا وألمانيا وبلاد الغال والبلاد الواقعة على ضفتى نهر الطونة والروسيا وغيرها.

ولم يكن من الأمور غير المألوفة أن يباع فى أسواق ديلوس مائة ألف من العبيد فى يوم واحد . كما كان حكام الولايات الرومان لايفتأون يوردون للأسواق أعداداً عظيمة من الأحرار الذين حكموا عليهم بالعبودية فى ولاياتهم بسبب مخالفتهم القوانين أو بغير سبب على الإطلاق إلا الطغيان والظلم . ومن ثم أقبل أرباب الضياع وأصحاب الأعمال على شراء العبيد بأبخس الأثمان لتشغيلهم فى المزارع والمناجم والمحاجر ورصف الطرق والتجديف فى السفن وغير ذلك من الأعمال الشاقة . وكان العبيد يساقون فى هذه الأعمال تحت إمرة حراس غلاظ القلوب يعتصرونهم اعتصاراً كأنهم الآلات التى لاحس فيها ولاحياة ، ولا يفتأون يلهبون ظهورهم بالسياط أثناء العمل ويربطونهم بالسلاسل أثناء الليل كى يحولوا دون هربهم ، أو يحلقون لهم نصف رؤوسهم فقط كعلامة تميزهم فيتعذر الهرب عليهم . وكان العبد يكدح كدحاً متواصلا كل يوم من مطلع الشمس إلى مغربها، ثم لا ينال بعد ذلك من الطعام إلا كسرة يابسة لاتكاد تسد رمقه ، ولا ينال من اللباس إلا خرقة مهلهلة لاتكاد تستر جسده، فيهوى محطما ولا يلبث أن يهلك من فرط الشقاء والعناء . وكان البعض يشترون العبيد ليتاجروا فيهم كما يفعل الناس بالبهائم، فكان الرجل يشترى الغلام بالثمن البخس ثم يدربه على حرفة من الحرف أو فن من الفنون ليبيعه بعد ذلك بالثمن الغالى . وقد كانت هذه المتاجرة تختلط أحياناً بأبشع ألوان القسوة والوحشية ، إذ كان السيد يدرب عبده على المصارعة الدموية حتى يبيعه بعد ذلك لحلبات المصارعة كى يستمتع المتفرجون برؤيته وهو يواجه الوحوش ولا يفتأ يدفعها عنه فى استماتة حتى تتمكن منه آخر الأمر ثم تمزقه شر ممزيق .

وإذ كانت فتوح الدولة الرومانية قد شملت كثيراً من البلاد الراقية التى

بلغت شأواً عظيماً في المدنية والتقدم كبلاد اليونان وآسيا الصغرى وشمال أفريقيا ، فقد أمدتها تلك الفتوح بأعداد ضخمة من الأسرى المثقفين العارفين بكثير من العلوم والآداب والفنون ، وقد تدفقوا على أسواق العبيد فراح الأثرياء الرومان يقتنونهم كما يقتنون الخيول المطهمة والكلاب المدربة على الصيد . فكان كل منهم يملك في قصره شاعراً وأديباً وفيلسوفاً وأميناً للمكتبة ، ويعاملهم معاملة العبيد العاديين باعتبارهم أشياء مملوكة له ، ومن حقه أن يتصرف فيها كيف يشاء .

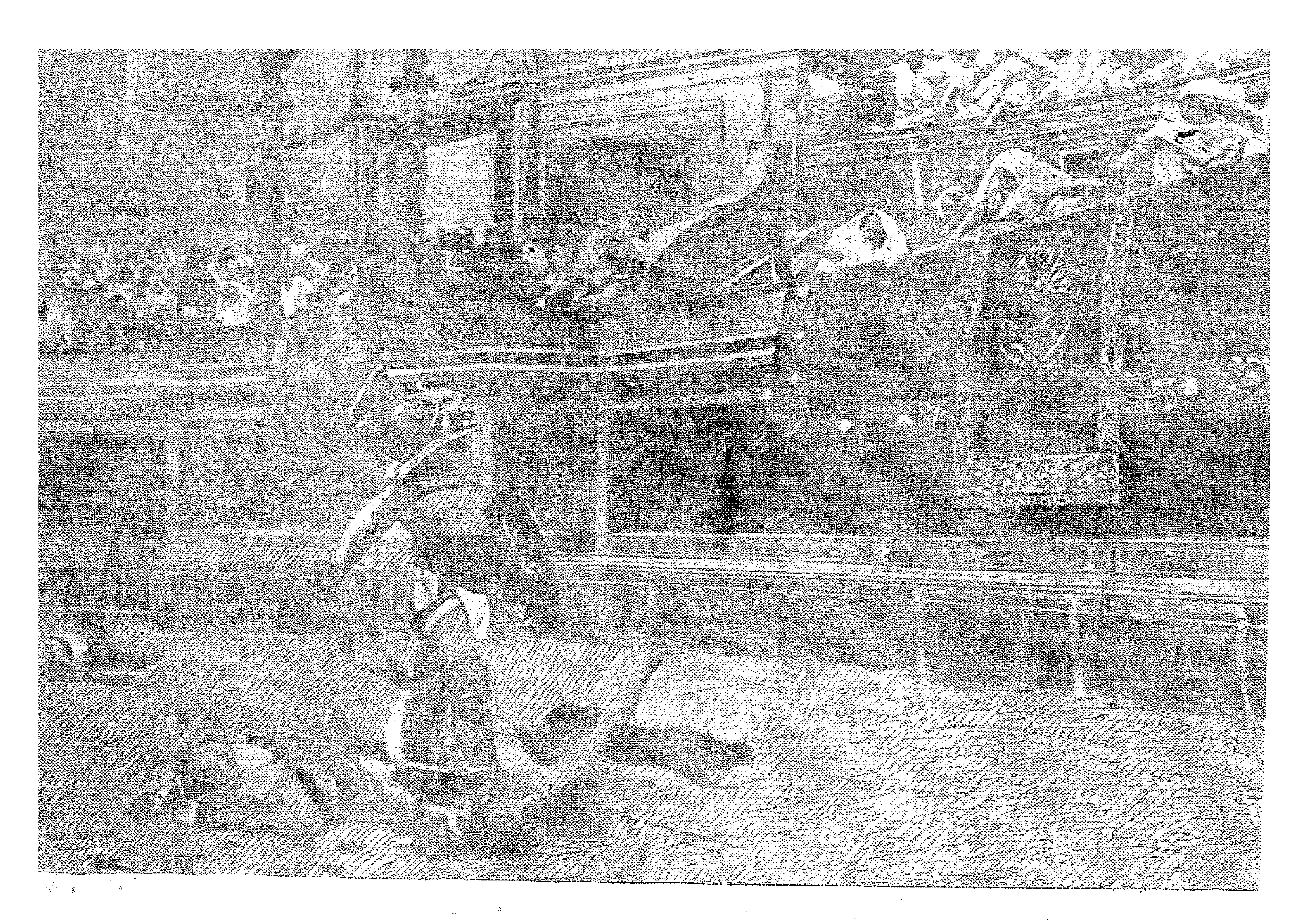
وكان النظام الرهيب الذي يخضع له العبيد يضغط على أعناقهم ضغطاً عنيفاً ومخيفاً بحيث لا يترك لهم فرصة للفكاك منه ، بل لا يترك لهم لحظة يلتقطون فيها أنفاسهم ، أو يجرؤون حتى علي مجرد الأنين والشكوى . ومن ثم ظلوا خانعين خاضعين لحكم الأقدار ، قانعين من الحياة بانتظار الموت الذي لم يكن غيره ليرحمهم مما هم فيه من ذل وعار ، أو يريحهم من قسوة القساة وظلم الظالمين . إلا أنه حدث في فترات متباعدة من تاريخ الدولة الرومانية أن ازدادت وطأة الطغيان على العبيد حتى فاض بهم الكيل ونضب معين الصبر فانفجروا ثائرين . وقد حدث ذلك عام ١٩٧ قبل الميلاد حين ثار العبيد في أتروريا فهجمت عليهم الجيوش الرومانية وأبادت الغالبية العظمى منهم ، ثم صلبت الباقين من الأسرى . وفي عام ١٣٥ قبل الميلاد ثار العبيد في صقلية ، يتزعمهم رجل سوري يدعى أنطيوخوس ، واستولوا على مدينتي « هينا » و « تاورومنتوم » ، وقد ظلت الجيوش الرومانية عاجزة عن إخضاعهم زمناً طويلا حتى أحدقت بهم في النهاية وذبحتهم جميعاً . وفي عام ١٠٣ قبل الميلاد ثار نحو ستة آلاف من العبيد يتزعمهم تريفون وأثينيون ، ثم انضم إليهم عدد آخر من الثوار يتزعمهم سلفيوس ،

وقد ظلت الجيوش الرومانية بقيادة أكويلوس تهاجمهم فيهزمونها ، حتى تغلبت عليهم أخيراً وقضت على الأغلبية العظمى منهم ، ثم نقلت الباقين إلى روما حيث ألقت بهم إلى الوحوش لمصارعتها فى الاحتفال الذى أقيم ابتهاجاً بانتصار أكويلوس ، ولكنهم لم يصارعوا الوحوش وإنما أغمد كل منهم خنجره فى صدر زميله ، وبذلك حرموا المتفرجين من المتعة الوحشية التى كانوا ينتظرونها ، وماتوا موت الشهداء . وفي عام ٧٣ قبل الميلاد تزعم رجل من تساليا يدعى سبارتاكوس ثورة كبرى للعبيد فى كل إيطاليا ، وكان قد هرب مع سبعين من زملائه من ضيعة فى كابوا ، واعتصم بجبل فيزوف ، متخذاً من فوهة بركانه الخامد حصناً طبيعيا ، فلم يلبث أن انضم إليه أكثر من مائة وعشرين ألفاً من العبيد ، ومن ثم استطاع بهذا الجيش الجرار أن يهزم كل قوة رومانية تصدت لمقاومته ، وظل صامداً فى مكانه سنتين كاملتين ، ثم بدأ بعد ذلك يتحرك بجيشه ليحرر العبيد فى كل مكان ، فاتجه أولا صوب جبال الألب ، ثم انحدر منها وزحف إلى روما فأشاع فيها الرعب ، لأن كل العبيد كانوا يناصرونه ، ومن ثم تولى كراسوس قيادة الجيوش الرومانية لمقاومته ، بيد أن سبارتاكوس حاد عن روما واخترق إيطاليا من شمالها إلى جنوبها ، وراح يشيع الفزع فى كل مكان يحل به ، حتى أقبلت جيوش بومبى من أسبانيا فانضمت إلى الجيوش التى يقودها كراسوس ، وأحاط القائدان بقوات سبارتاكوس وظلا يطوقانها زمناً طويلا حتى أجبراها على الاستسلام ، ومن ثم وقع سبارتاكوس فى يد الرومان فذبحوه بعد أن قضوا على معظم أتباعه ، وصلبوا الباقين — وكانوا أكثر من ستة آلاف — على أعواد نصبوها على جانبي الطريق الأبيانى الذى كان يمتد أميالا طويلة من روما إلى أقصى الجنوب ، وتركوا أجسادهم

معلقة هكذا عدة شهور ، بعد أن تعفنت وأكلتها الطيور ، وذلك تطميناً لجميع السادة فى البلاد ، وإرهاباً لجميع العبيد . ومنذ ذلك الحين انقطعت ثورات العبيد فلم تقم لهم قائمة ، وقد يئسوا ، واستسلموا .

وحشية الرومان

كان الرومان قوماً بدائيين ، أقوياء الأبدان ، شرسى الطباع ، غلاظ القلوب ، مجردين من الرحمة والعطف وكل الصفات الكريمة والأخلاق السامية . فكانوا أقرب إلى الإنسان المتوحش الذى يقطن الغابة منهم إلى الإنسان المتمدين الذى هذبته الحضارة وصقلته الحياة فى المجتمع . بل أن الوحوش ذاتها ماكانت لترتكب ماكان الرومان يرتكبونه من فظائع ترتعد من هولها النفس ويقشعر البدن ، حتى أن عاطفة الأبوة ذاتها التى تتصف بها حتى الحيوانات لم يكونوا يفهمونها إلا باعتبارها سلطة غاشمة تبيح للأب أن يتصرف فى أبنائه بمطلق حريته ، فيستخدمهم عبيداً له أو يبيعهم فى سوق العبيد لغيره ، أو يعذبهم إذا أخطأوا فى حقه ، أو يقيدهم بالسلاسل ويلقى بهم فى السجن . بل كانت القوانين تبيح له أن يقتلهم إذا شاء . وقد رأينا كيف كانت القوانين تبيح للدائن كذلك أن يقتل مدينه ، وتبيح للدائنين المتعددين لمدين واحد أن يمزقوا جسده ويقتسموه فيما بينهم . كما رأينا قسوة الرومان البشعة فى معاملة العبيد ، وكيف كانوا ينكلون بهم ويقتلونهم لأتفه الأسباب . وقد جرت التقاليد القديمة لدى الرومان على أنه إذا مات أحد رؤسائهم جاءوا بعدد عظيم من الأسري وذبحوهم فى جنازته ، وإذا هددهم أعداؤهم بالغزو أقاموا احتفالا دينيا قدموا فيه الذبائح البشرية للآلهة كى تكتب لهم النصر . وقد فعلوا ذلك فى مناسبات



« الرومان يتمتعون بمشهد مصارع يذبح زميله »

عديدة سجلها التاريخ ، ومنها حين هجم الغاليون على روما ، وحين توالت انتصارات هانيبال على الجيوش الرومانية .

وكانت وحشية الرومان تتبدى في أبشع صورها فى وسائل تسليتهم ولهوهم ، إذ كانت هذه الوحشية سليقة فيهم تجرى مع الدم فى عروقهم ، فكان لا يشرح



« مصارع رومانى »

صدورهم ويجلب سرورهم إلا منظر إنسان يذبح إنساناً آخر أمام أعينهم ، أو منظر وحش مفترس ينقض على إنسان ضعيف فيفتك به ويمزق أشلاءه . ولذلك كانوا فى أعيادهم واحتفالاتهم وأوقات لهوهم يحتشدون فى الملاعب العامة حيث يجيئون بالأسرى ويجبرونهم على أن يتقاتلوا فى حلبات مخصصة لذلك حتى يفنى بعضهم بعضاً ، أو يطلقون عليهم وحوشاً جائعة ، تنقض عليهم فتهشم عظمهم

« صراع العبيد والوحوش فى ملعب رومانى »

وتلتهم لحمهم ، والمتفرجون بينذاك يهللون ويصفقون فى نشوة واستحسان . فإذا أحجم الأسرى اليائسون وقد تملكهم الخوف عن دخول حلبة الموت إنهال عليهم الحراس بالسياط والحدائد المحماة ، فقسروهم قسراً على الدخول . حتى إذا سقط واحد منهم قتيلا أو جريحاً سحبه الحراس بالخطاطيف إلى مكان ملحق بالملعب وجردوه من ثيابه ، فإذا وجدوه لم يمت بعد أجهزوا عليه . وقد ازداد إقبال الرومان على هذا النوع من الحفلات الدامية فكثرت حتى لم يعد الأسرى يكفون لها ، ومن ثم لجأ الذين ينظمونها إلى استخدام العبيد ، فأصبح كل سيد يغضب على عبده يبيعه لهم ، وبذلك توفر عدد عظيم منهم لهذا الغرض ، حتى لقد أقام يوليوس قيصر احتفالا اقتتل فيه عشرة آلاف عبد واربعمائة أسد . وأقام بومبي احتفالا آخر اقتتل فيه عشرون ألف عبد وستمائة أسد ، ومن ثم يمكننا أن نتصور بشاعة المجزرة التى تسيل فيها دماء كل أولئك المذبوحين وتتمزق أشلاؤهم وهم يعانون سكرات الموت أمام المتفرجين الرومان وهم يستمتعون بهذا المنظر كل الاستمتاع ، ولا يفتأون يصيحون ويصخبون من فرط السعادة والسرور .

وقد ظل الرومان على وحشيتهم فى كل عصور تاريخهم الطويل ، حتى بعد أن سيطروا على العالم كله وأصبحوا سادة كل الشعوب ، بل لقد زادتهم السيطرة قسوة ، وزادتهم السيادة حطة أخلاق ودناءة طباع . فلم يشهد التاريخ أفظع ولا أبشع مما ارتكبه الرومان فى حروبهم ، وقد فاقوا فى وحشيتهم البابليين والأشوريين والفرس والتتار ، فكانوا إذا أغاروا على مدينة نهبوها وخربوها وذبحوا الغالبية العظمى من أبنائها وباعوا الباقين منهم فى سوق العبيد . وقد سبق أن رأينا كيف خدعوا أهل قرطاجنة فاستولوا على أطفالهم بعد أن وعدوهم

بالأمان ، ثم خانوهم في نذالة ، وذبحوهم عن آخرهم وأشعلوا النار في مدينتهم وحرثوها بالمحراث وغطوا أرضها بالرماد والملح . ورأينا كيف فعلوا مثل ذلك في مدينة كورنثوس فأبادوها وأفنوا أهلها بين ذبيح وأسير . وكيف استدرج القائد الروماني سلبيسيوس جالبا سبعة آلاف من الأسبان موهماً إياهم بأنه سيوزع الأراضي عليهم ثم ذبحهم جميعاً . ثم كرر القائد الروماني ديديوس هذه الخدعة ذاتها وذبح قبيلة أسبانية بأكملها ، فلما عاد إلى روما بعد ذلك استقبله الرومان استقبال الأبطال . وكان الرومان حين يهزمون ملكاً من الملوك يذبحونه ويتخذون من جمجمته كأساً يشربون فيها الخمر مبالغة في النكاية وإمعاناً في التشفي . وكان القائد الروماني الذي ينتصر في الحرب يدخل روما في احتفال عظيم ، وقد امتطى عربة فاخرة ، يسير خلفها رؤساء العدو المهزوم وهم حفاة الأقدام عراة الرؤوس يرسفون في الأغلال ، حتى إذا بلغ الموكب هيكل الآلهة فوق الكابيتول ، أصدر القائد أمره بذبح أولئك الرؤساء قرباناً للآلهة ، كما تقضي بذلك التقاليد . وهكذا كان ذبح البشر في روما أمراً عادياً ، إذ كانت الوحشية هي الصفة الغالبة على الرومان .

الحروب التوسعية

وقد كان تاريخ الدولة الرومانية كله صراعاً بين طبقات الرومان أنفسهم من ناحية ، وبين الشعب الروماني وغيره من الشعوب من ناحية أخرى . فمن جهة كانت كل من طبقة الأشراف وطبقة العامة تريد أن تخضع الأخرى وتستأثر بالحكم ، ومن الجهة الأخرى كان الشعب كله يريد أن يخضع شعوب العالم كلها ويتحكم فيها ، لأنه كان شعباً جشعاً جائعاً على الدوام إلى المزيد من السطوة

لا يشبع ،ومتعطشاً على الدوام إلي مزيد من الدم لا يرتوى

وقد بدأ الشعب الرومانى غزواته بالشعوب المحيطة به فى شبه الجزيرة الإيطالية فأخضعها ، ورغم أنه جعل من نفسه مع هذه الشعوب دولة واحدة فقد ظل قرنين من الزمان يسيطر عليها سيطرة الغزاة الفاتحين . ومن ثم ظل الصراع محتدماً بين الشعب الرومانى وتلك الشعوب الإيطالية الخاضعة له . ولم تلبث هذه الشعوب حين فاض بها الكيل أن أعلنت الثورة ـ كما سبق أن رأينا ـ عام ٩١ قبل الميلاد وقامت بتأليف دولة مستقلة عن روما أطلقت عليها إسم « إيطاليا » فأعلنت روما الحرب عليها وهاجمها الجيوش الرومانية فخربت مدنها وقتلت منها نحو ثلاثمائة ألف نفس، وقد وصف« فيريرو »هذه الحرب الأهلية التى دامت ثلاث سنوات قائلا : « إن القواد الرومان المدربين على فنون الحرب العدوانية كانوا لايفتأون يذرعون إيطاليا طولا وعرضاً يحرقون المزارع وينهبون المدن ويقتلون الرجال والنساء والأطفال أو يحملونهم ليبيعوهم فى أسواق العبيد ، دون أن تداخلهم بالناس رأفة ولا رحمة » . بيد أن مجلس الشيوخ الرومانى لم يسعه بعد هذه الحرب إلا أن يعترف بشيء من المساواة فى الحقوق بين أهالي الولايات الإيطالية ومواطني روما . ولكن مجلس الشيوخ لم يلبث أن أخذ باليسار ما أعطاه باليمين ، فاحتدم الصراع من جديد . وقد حدث حين نشب النزاع الدامى بين الأشراف والعامة فى روما عام ٨٧ قبل الميلاد ، أن انتهزت قبائل السامنيين الإيطالية فرصة هذا النزاع وتمردت على سلطان روما وزحفت عليها بجيش عظيم يبلغ مائة ألف رجل . وكان سيللا قد عاد إلى روما بعد انتهاء الحرب الميثريداتية فاشتبك بهم ، وأباد معظمهم فى معركة بوابة كولين الرهيبة ، ثم انتقم أبشع انتقام من المدن التى أيدتهم فى تمردهم. ومن ثم أصبحت روما سيدة إيطاليا كلها وصبغت كل مدنها

بالصبغة الرومانية . وبذلك اتسعت رقعة روما فشملت شبه الجزيرة الإيطالية كلهـــا .

ثم لم تلبث روما أن تطلعت إلى السيطرة على الشعوب الأخرى المحيطة بشبه الجزيرة فأعلنت عليها سلسلة من الحروب الوحشية الضارية ، ولم تلبث أن هزمت دولة قرطاجنة العظيمة وأذلتها بعد حرب إستمرت بينهما مائة عام وقد استولت منها على جزيرة صقلية ، ثم على جزيرتي سردينيا وكورسيكا ، ثم أجبرتها على أن تتخلى لها عن أسبانيا وعن كل الجزر التى تملكها فى البحر الأبيض المتوسط، ثم فى النهاية قضت عليها هى ذاتها وأزالتها من الوجود واستولت على الأرض التى كانت قائمة عليها وضمتها إلى أملاكها باسم « ولاية أفريقيا » . ثم استدارت إلى مقدونيا وسائر بلاد اليونان فأخضعتها ، وأجبرت أنطيوخوس الثالث ملك سوريا على التخلى عن جميع ممتلكاته فى أوروبا وآسيا ، ثم أخضعت برجاموم وهزمت ميثريداتس ملك بنطس واستولت على بلاده وكل ممتلكاته فى آسيا الصغرى ، ثم استولت على برغامة وسوريا وفلسطين ومصر وكل البلاد الواقعة على الساحل الشمالى لأفريقيا ، ثم أخضعت فرنسا وبلجيكا وألمانيا والمجر وروسيا الجنوبية وبريطانيا . وبذلك سيطرت على العالم بأسره واستعبدت شعوبه ونهبت خيراته ، ومن ثم بلغت من القوة والسطوة مالم تبلغه دولة فى التاريخ القديم كله بعدسقوط الامبراطورية المصرية . وقد استخدمت فى حكم الشعوب التى وقعت تحت ربقتها أبشع صنوف الوحشية التى لم يعرف العالم لها مثيلا ، والتى أدت فى النهاية إلى إنهيار تلك الدولة الباغية الغاشمة .

الفساد السياسي

حين توالت فتوح الدولة الرومانية وتدفقت عليها الثروة من كل جانب ، خطف بريق المال أبصار الرومان وأطار صوابهم جميعاً على اختلاف طبقاتهم ، فاتجه الأشراف بكل ما فيهم من قوة إلى العمل على استغلال امتيازاتهم لتكوين الثروات لأنفسهم ، واتجه العامة بكل مافيهم من قوة كذلك إلى العمل على انتزاع تلك الإمتيازات من الأشراف لانتزاع الثروات منهم والاستئثار بها دونهم ، ومن ثم كانت غاية الطبقتين واحدة ، وكانت الوسائل والأساليب التي استخدمتاها للوصول إلى هذه الغاية واحدة كذلك . وقد صدرت كلها عن طبيعة الرومان الجشعة البشعة ، فكانت من أدنأ الوسائل وأحط الأساليب التي يمكن أن تتصف بها الحياة السياسية في دولة من الدول ، مهما بلغت من التعفن والفساد .

وإذ وجد أعضاء مجلس الشيوخ أن غزو الأمم الأخرى هو أعظم مصدر للثروة ، راحوا يتلمسون الأسباب تلمساً ويختلقون المبررات اختلاقاً لمهاجمة البلاد الآمنة ، والاعتداء على الشعوب المسالمة لغير جريرة على الإطلاق إلا أنهم رأوها على شيء من الثراء ، وحقدوها عليها لما تتمتع به من رخاء . حتى إذا غلبوا أمة من الأمم على أمرها ، جعلوا منها فريسة لأشنع صنوف النهب والسلب والاغتصاب . فكان الحاكم الذي يبعثونه لحكمها يعرف أنه لن يمكث فيها إلا عاماً واحداً ، ومن ثم يجعل همه الأول بل الأوحد هصرها هصراً واعتصارها إعتصاراً ليعود منها آخر الأمر بما يكفي من الأموال لسداد ديونه وادخار ما يكفل له حياة رغيدة تليق بالروماني العظيم . وقد رأينا كيف قضى قيصر سنة واحدة في أسبانيا فعاد منها ومعه من الأموال ما ملأ به الخزانة العامة ، وسدد ديونه الطائلة ، واستبقى لنفسه بعد ذلك ما جعله أغنى رجل في الدولة

الرومانية . كما رأينا كيف ذهب بومبي إلى بلاد الشرق ثم عاد منها ومعه من المال ما أغرق به الدولة ، وأغدقه على جنوده ، واستطاع بما تبقى منه أن يحيا حياة الملوك وينغمس فيما ينغمسون فيه من فسق وخلاعة ومجون . وكان أعضاء مجلس الشيوخ يدركون ما تدره تلك المناصب من مغانم فجعلوها وقفاً عليهم ، كما كانوا يتقاضون ممن يرشحونه لها من الرشوة ما يتناسب مع مغانمها . وكان المرشح بدوره يضع فى حسابه أن يعوض مبلغ الرشوة الذى دفعه مما ينهبه من الولاية التى بعثوا به إليها ، كما يضع فى حسابه أن يجيء من تلك الولاية بمبلغ آخر يدفعه رشوة لشراء منصب جديد . ومن ثم يغدو راشياً ومرتشياً فى ذات الوقت ، وتغدو الرشوة هى العملة المتداولة فى شراء المناصب وبيعها فى الدولة الرومانية والولايات الخاضعة لها ، وكان الذى يفوز بتلك المناصب هو الذي يعرض أعلى الأسعار ، بل أصبحت الرشوة هي العملة المتداولة فى كل المعاملات الرومانية وبين كل الموظفين الرومان . ومن الأمثلة الصارخة التى سجلها التاريخ لذلك أن يوجورتا ملك نوميديا أثار ببعض تصرفاته غضب الرومان فأرسل اليه مجلس الشيوخ مندوبين ينذرونه ، فأعطاهم الملك رشوة أسكتتهم ، فأرسل مجلس الشيوخ بعض أعضائه للتحقيق فى ذلك ، فأعطاهم الملك رشوة كذلك أسكتتهم ، وعندئذ أرسل مجلس الشيوخ بعض قواده على رأس جيش لتأديب الملك فأعطاهم بدورهم رشوة أسكتتهم ، وعاد الجيش دون قتال . ولم يلبث العامة فى روما أن سمعوا بهذه الفضيحة التى كان كل أبطالها من أعضاء مجلس الشيوخ فانفجروا ثائرين .

ولم يقتصر الأمر — بالنسبة للحكام وغيرهم من الموظفين الرومان — على الرشوة والارتشاء ، وإنما تعداها إلى السرقة ، فقد أصبح من الأمور المألوفة

أن يستولى أولئك لأنفسهم على الأموال التى يجمعونها للدولة من الولايات التى يحكمونها أو يعملون بها . وكان أعضاء مجلس الشيوخ يتواطأون فى ذلك معهم فيغمضون أعينهم ولا يوجهون إليهم أى اتهام . وفى ذلك يقول الزعيم الرومانى كاتو « إن الذى يسرق مال فرد من الأفراد يقضى بقية عمره مكبلا بالأغلال فى السجن . أما الذى يسرق مال الدولة بأسرها فيقضى أيامه رافلا فى أفخر الثياب ومتحلياً بالذهب الوهاج » .

وقد أدت الرشوة والسرقة إلى آفة أخرى من آفات الفساد ، وهي استخدام المال فى شراء ذمة القضاة والشهود فى المحاكم ، فأصبحت الأحكام تصدر بإدانة البرىء وتبرئة المجرم ، وأصبحت العدالة سلعة تباع لمن يدفع الثمن . وقد فشت شهادة الزور بين الناس حتى أصبحت مهنة تدر كثيراً من المال على أصحابها ، ومن ثم قال أحد المحامين فى تلك الأيام « إنه بغير المال وبغير محام قدير ، قد يصدر الحكم بالموت على أى إنسان من أجل جريمة لم يرتكبها قط » .

وقد أصبح المال كذلك هو اللغة التى لا يمكن التفاهم بغيرها فى الانتخابات لأى منصب ، ومن ثم أصبح الأشراف يمرغون كبرياءهم وعجرفتهم فى التراب ويهرولون فى الشوارع وأكياس المال فى أيديهم يشترون به الأصوات من العامة ، وأصبح العامة يتخذون من ذلك تجارة ، فلا يعطون أصواتهم إلا لمن يدفع أعلى الأسعار . بيد أن المال وحده لم يكن يكفى أحياناً ، فكان السياسيون يلجأون إلى التهديد بالعنف أو الفضيحة ، فإذا لم يكف ذلك لجأوا إلى الاغتيال . وقد عمد كل زعيم — ولا سيما فى القرن الأول قبل الميلاد — إلى تكوين عصابة من أحط الطبقات كى تسانده وتفتك بخصومه ، فكان الصراع لا يفتأ ناشباً

فى شوارع روما بين العصابات المختلفة ، ولا تفتأ المذابح الرهيبة تجرى بينها . وقد كتب شيشرون بعد إحدى هذه المذابح قائلا : « لقد امتلأ نهر التيبر بجثث القتلى ، وقد فاضت البالوعات بالدماء حتى اضطرت الحكومة إلى امتصاصها بالإسفنج من الشوارع » .

وهكذا أصبح الشغل الشاغل للرومان هو جمع المال عن طريق السلطة أو عن طريق السرقة أو عن طريق القتل أو عن أى طريق آخر مهما بلغ من الدناءة والإجرام . حتى إذا اجتمعت للرجل منهم ثروة بعد المشقة والجهد راح يعمل على تنميتها دون مشقة ولا جهد ، وذلك بأن يقرضها بالربا الفاحش . وكان كبار الساسة ينتهزون فرصة عجز مدينة أو ولاية عن دفع ما عليها من الخراج أو الضرائب فيقرضونها ما تحتاجه من المال بفوائد باهظة قد تصل إلى ستين فى المائة ، حتى إذا عجزت بعد ذلك عن السداد حاصروها بواسطة الجيش الرومانى ونهبوها ، فكانوا يحصلون بذلك على أضعاف القرض الذى دفعوه . ولذلك فان بعض المدن اضطرت فى سبيل الوفاء بالدين الذى عليها أن يبيع أبناؤها أطفالهم فى سوق العبيد .

وقد أدى هذا الفساد الذى لا مثيل له إلى قيام طبقة من الانتهازيين الرومان أتقنوا وسائل الحصول على المال ، واستخدامه فى توفير كل ما يخطر لهم من أسباب الترف والنعيم . ومن أمثلتهم التى ذكرها التاريخ ثلاثة أشخاص بلغوا من الثراء حداً لم يعرف العالم القديم له نظيراً ، وهم كراسوس وأتيكوس ولوكولوس : فقد جمع كراسوس ثروة تقدر بما قيمته عشرون مليوناً من الجنيهات . وقد ورث أتيكوس عن أبيه ما قيمته مليون جنيه فما فتىء يستثمره حتى ضاعفه

ثلاثين مرة . وكان لوكولوس يملك ضيعة تمتد عدة أميال ، وقد اشترى قصراً وحديقة بما قيمته مليونان من الجنيهات ، كما اشترى جزيرة بأكملها لتكون مصيفاً له ، لا يشاركه فيه سواه ، وكانت الدولة الرومانية كلها تتناقل أخبار إسرافه وبذخه .

وقد برز في بداية القرن الثانى قبل الميلاد خطيب رومانى يدعى ماركوس بورسيوس كاتو ، كان لا يفتأ يندد بفساد الرومان ، ثم اختير قنصلا فأصدر القوانين الصارمة لمحاربة الرشوة والسرقة والإسراف ، حتى إذا اعتزل منصبه راح يرتكب كل ما كان يندد به ويعاقب على ارتكابه ، وقد راح يقرض المال بالربا الفاحش ويتاجر في العبيد ، ومن ثم أصبح من أثرياء روما . ومن الطريف الذى يبعث على السخرية أنه انقطع بعد ذلك لتأليف الكتب التى تحض على الفضيلة وتحارب الفساد .

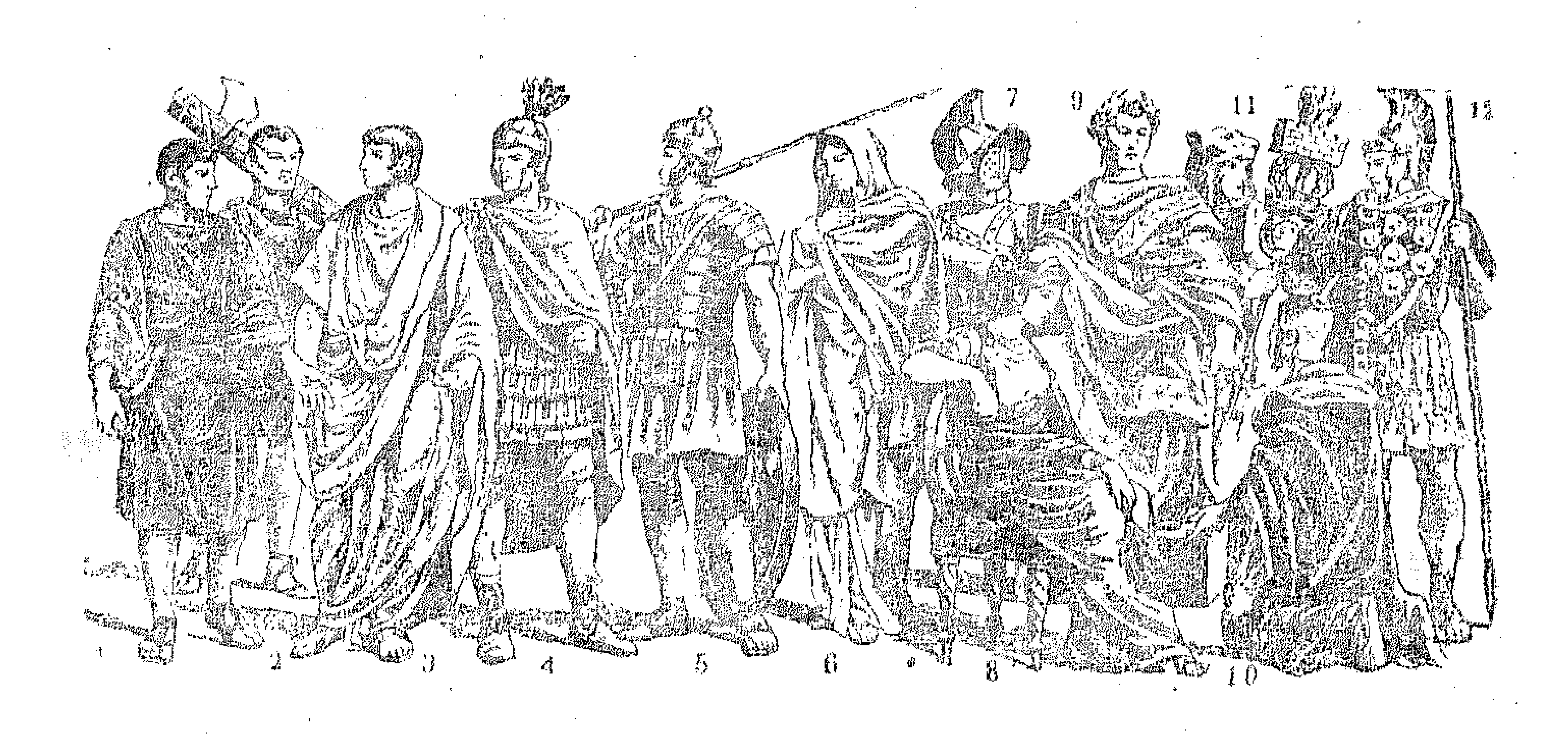
الفساد الاجتماعى

تدفقت الثروة كما رأينا على روما بعد فتوحها الكثيرة ، وغزواتها المتعددة ، وما نهبته من البلاد التى هزمتها من غنائم وأسلاب ، وما فرضته على تلك البلاد من ضرائب وغرامات ، وما استولت عليه من ملايين الأسرى الذين باعتهم فى فى أسواق العبيد أو استخدمتهم بلا رحمة فى مرافقها المختلفة . وقد أصبح العالم المعروف كله بمثابة ضيعة تمتلكها روما وتستأثر بخيراتها ، وأصبحت شعوبه كلها بمثابة عبيد لا يملكون إزاءها إلا الخضوع والطاعة . وكان ابتداع النقود يومذاك لايزال قريب العهد ، بيد أنها لم تلبث — بسبب سهولة استخدامها وتداولها — أن أصبحت وسيلة رهيبة فى يد روما لامتصاص ثروات العالم وتركيزها فى يدها .

ومن ثم فإنها ، إلى جانب كونها عاصمة العالم السياسية ، أصبحت عاصمته المالية كذلك ، وأصبحت هي مركز النشاط المالي والسوق الكبرى لرؤوس الأموال ومضاربات الرأسماليين ، وأصبح المال هو مقياس المكانة الاجتماعية للإنسان في روما ، فالكرامة كلها والاحترام كله للأغنياء . وأما الفقراء فلا كرامة لهم ولا احترام . ومن ثم اندفع الجميع إلى اكتناز المال فى تعطش وشره ، وفى غير تورع — من أجل هذه الغاية — عن ارتكاب أى جريمة أو موبقة . وقد راجت بين جماهير الشعب كما راجت بين رجال الحكم سوق السرقة والرشوة وشهادة الزور ، كما راج الربا الفاحش والغش والخديعة في المعاملات ، بعد أن انحدرت روح الجميع إلى أحط دركات الخسة والوضاعة ، لا فرق في ذلك بين الحاكمين والمحكومين ، أو بين الأشراف والعامة . وقد اغتنى الفقراء وازداد غنى الأغنياء ، وراح الجميع يتسابقون فى هذا المضمار على قدم المساواة . وثم نشأت إلى جانب طبقة الأشراف التى كان لها نصيب الأسد في مغانم الدولة ، طبقة أخرى نبعت من طبقة العامة ، ولكنها أصبحت تقارب فى ثرائها الأشراف ، وتلك هى طبقة رجال الأعمال . كما نشأت الطبقة الوسطى التى رغم أنها كانت أقل ثراء ، فإنها جرت فى أحوالها الاجتماعية على تقاليد طبقتى الأشراف ورجال الأعمال .

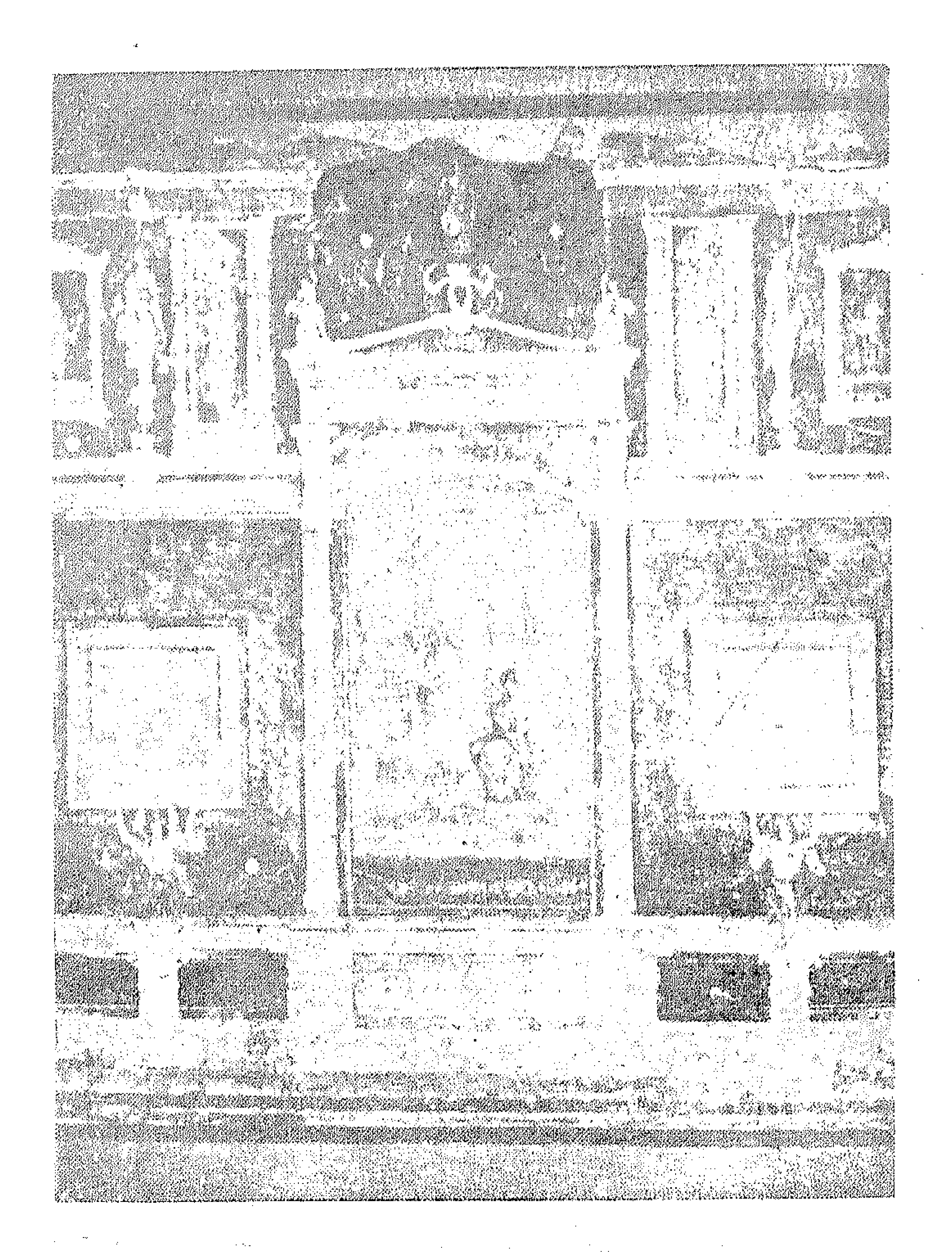
وقد أدار المال رؤوس الرومان وسلبهم عقولهم ، ومن ثم فإنه كما أدى إلى فسادهم فى وسائل جمعه ، أدى إلى فسادهم أكثر وأكثر فى وسائل إنفاقه ، إذ كانوا أقرب إلى البهيمية فى طباعهم ، وإلى الحيوانية فى ميولهم ، فاستخدموا المال فى إرضاء هذه الطبائع ، وإشباع هذه الميول ، وانحدروا فى ذلك إلى الدرك الذى لا تنحدر إليه حتى البهائم والحيوانات .

وقد وضع أثرياء الرومان كل همهم فى توفير المسكن والملبس ، والإكثار من المأكل والمشرب ، ثم الانغماس بعد ذلك فى أقذر ما يمكن أن يتصوره العقل من ألوان الفسق والتهتك والفجور : وقد أقاموا القصور الفاخرة الفخمة ، وأثثوها بأبدع وأروع منتجات العالم الذى استعبدوه من الرياش الثمينة والطنافس الغالية ، والمقاعد المصنوعة من العاج والأبنوس ، والموائد المطعمة بالذهب والفضة ، وملأوها



« الملابس الرومانية »

بأعداد ضخمة من الخدم والأقنان والجوارى الحسان ، وأحاطوها بجداول الماء والحدائق الغناء ، وأنفقوا فى ذلك كله مبالغ طائلة . وقد رأينا كيف أن لوكولوس — أحد أثرياء الرمان — أنفق على قصره وحديقته ما يوازى مليونين من الجنيهات ، وقد بنى كلوديوس قصراً كلفه ما يوازى خمسة ملايين من الجنيهات . وكان الزعماء وأعضاء مجلس الشيوخ وكبار المحامين أمثال شيشرون وهورتنسيوس يتنافسون فى تشييد القصور وما ينفقون عليها من أموال ، وكان لكل منهم فى الغالب عدة قصور فى العاصمة وفى الريف وعلى شواطىء البحر ، فكان لا يفتأ



« أحد الأبهاء الفاخرة فى قصر رومانى »

يتنقل بينها فى فصول العـام المختلفة . وكانوا ينفقون أموالا طائلة فى تأثيث قصورهم . وقد دفـع شيشرون ما يـوزاى عشرة آلاف من الجنيهات فى شراء منضدة من خشب الليمون ، كما دفع سيستروس مايوازى عشرين ألفاً من الجنيهات فى شراء مكتب من خشب السرو . واشترى كاتو أغطية خوان من بابل بمايوازى خمسة وعشرين ألفاً من الجنيهات .

وقد أصبحت ولائم الأكل والشرب هى الشغل الشاغل فى ذلك الوقت للطبقات الغنية فى روما ، وقد جعلوا شعارهم فى ذلك مبدأ مترودوروس الذى كان يقول بأن « الخير هو كل ما له صلة بالبطن » . وقد تفننوا فى اختيار الأطعمة وتنويعها والإكثار منها ، حتى لقد بلغ عدد الأصناف التى قدمت منها فى وليمة حضرها قيصر مائة صنف . وقد دفع الممثل الرومانى إيزديوس ما يوازى ثلاثة آلاف جنيه فى شراء صنف واحد من أصناف المأكولات التى قدمها فى وليمة أقامها ، وهو أطباق الطيور المغردة . ولم تـكن تخلو وليمة أو مائدة من موائد الأثرياء الرومان من أثمن الأطعمة وأندر التوابل والمشهيات التى كانوا يستوردونها من أقصى أنحاء العالم ويدفعون فيها الآلاف المؤلفة من الجنيهات . أما الخمر فـكانت تسيل فى تلك الولائم كالأنهار ، وكانوا لا يشربونها إلا فى كؤوس ضخمة من الذهب كأنها الدنان ، ولا يفتأون يعبون منها عباً حتى تحمرّ عيونهم وتـكفهرّ وجوههم وتفرّ من فرط ما يسكرون عقولهم ، فيصخبون ويعربدون ، وينتقلون من الأكل والشراب إلى الخلاعة والمجون .

ولم يلبث الرجال ــ فى هذا المجتمع الفاسد ــ أن فقدوا سلطانهم على النساء ، وانعكست الآية فأصبحت النساء متسلطات على الرجال ، وأصبحن هنّ الحاكمات

بأمرهن فى كل الشئون . وفي ذلك يقول كاتو « إن الرجال فى جميع أنحاء العالم يحكمون النساء ، وأما نحن الرومان الذين نحكم جميع رجال العالم ، فإن النساء يحكمننا » . ومن ثم انحل رباط الأسرة ، بعد أن كان يحكمه قانون صارم ، فتحللت المرأة من كل القيود والتقاليد ، وانصرف الرجال عن الزواج إلى اتخاذ الخليلات ، وانتشرت الدعارة انتشاراً لم يسبق له مثيل فى أى دولة من دول العالم . بل انتشر ما هو أسوأ من الدعارة ، إذ لم يقتصر احتراف الفجور على النساء ، بل تعداه إلى الرجال المتشبهين بالنساء ، فأصبحت العلاقات الشاذة الشائنة مشاعاً بين الجميع على السواء ، وأصبح آلاف الرقعاء من الشبان ولا سيما من أبناء الأشراف وأعضاء مجلس الشيوخ يقضون الوقت كله متسكعين فى الشوارع ، وقد ارتدوا ثياب الغانيات وتزينوا بحليهن وتعطروا بعطورهن وتمثلوا بهن حتى فى مشيتهن . وقد إزداد عدد المواخير التى تجمع الساقطات والساقطين من الجنسين حتى أصبح لأصحابها دولة ذات سطوة وسلطان ، وقد بلغ من نفوذها فى وقت من الأوقات أن كان الساسة يلجأون إليها فى الانتخابات للحصول على أصوات العدد الضخم من الناخبتين الذين يترددون عليها . وقد كثر الزنا بدرجة لا يتصورها العقل . فأصبح الزوج يخون زوجته ، وأصبحت الزوجة تخون زوجها ، وأصبح لكل منهما أن يطلق الآخر إذا شاء دون وازع من دين ولا رادع من قانون . وقد خلعت النساء العذار واتخذن لهن أثواباً من الحرير الشفاف المستورد من الصين والهند ، وغشين المجتمعات ، ورقصن وغنين فى الملاهى ، واشتركن فى حفلات المنادمة والسمر وفى رحلات الفروسية والصيد . ولعل أصدق مثال لنساء ذلك العصر امرأة تدعى كلوديا ، كانت من أكبر العائلات الرومانية ، وكانت أخت القائد الشهير بيبلوس كلوديوس ،

ولكنها كانت أكثر نساء ذلك العصر تهتكاً وفجوراً ، وقد تحدثت روما كلها عن خياناتها لزوجها ، وعن علاقاتها الشائنة بمعظم الزعماء اللامعين في المدينة ، وعن تنافس أولئك الزعماء على الحظوة بها ، وتكلم شيشرون في إحدى خطبه عن « زناها وعهرها وعشاقها وما كانت تقيمه لهم من مقاصف الشراب في البر والبحر » . ومع ذلك كان المجتمع يضعها في أرفع مكان ، ويعتبرها من نجومه اللامعة .

وهكذا كانت الثروة التي نهبتها روما من العالم هي سبب قوتها وارتفاع كيانها ، وكانت في ذات الوقت هي سبب ضعفها وتصدع أركانها ، لأنها لم تقم دعائم بنيانها على أساس راسخ من الأخلاق ، فسقطت في النهاية وانهارت .

المبحث الثاني

الحياة الاقتصادية عند الرومان

كانت روما فى بدية عهدها مدينة تعتمد اعتماداً كاملا على الزراعة ، ومن ثم كان أغلب أهلها من الفلاحين ، وكان المحصول الرئيسى لها هو الحبوب ولا سيما القمح . وكانت هذه هى الحال كذلك فى أغلب المدن والولايات الإيطالية الأخرى : فقد كانت صقلية وجنوب إيطاليا من أغنى أسواق الغلال فى العالم . وكانت أترووريا تغذى بغلالها قرطاجنة وأملاكها فى أفريقيا . كما كانت المستعمرات اليونانية فى شبه الجزيرة تصدر مقادير عظيمة من الغلال إلى بلاد اليونان ، فضلا عن أنها كانت تقوم بزراعة الكروم والزيتون على نطاق واسع . أما الشعوب السلتية التى كانت تقطن شمال إيطاليا فكانت تعتمد اعتماداً رئيسياً على الرعى وتربية الماشية .

حتى إذا بدأت روما فتوحها وأخضعت الولايات الإيطالية الأخرى ، إزدادت مساحة الأراضى الزراعية التى تمتلكها ، ومن ثم ازداد عدد الفلاحين ، وازدهرت الزراعة ازدهاراً عظيماً . بيد أنه حين استولت روما بعد ذلك على ممتلكات قرطاجنة ، بدأت تعتمد على الغلال الواردة منها ، وقد أصبحت أسبانيا وصقلية وسردينيا على الخصوص بمثابة مزارع لروما تتولى توريد الغلال إليها .

ثم حين توسعت روما فى فتوحها ، وسيطرت على بلاد الشرق ، إنهالت الأموال عليها ، كما انهال عليها العبيد من الأسرى . فتضخمت أملاك الأشراف ولا سيما أعضاء مجلس الشيوخ ، كما تضخمت أملاك أصحاب الأعمال الأثرياء ، وأصبحوا يشترون الضياع الواسعة ويشترون العبيد لتسخيرهم في زراعتها ، ومن ثم ضاقت فرص العمل أمام الفلاحين فهجر كثيرون منهم الزراعة ، وهاجروا إلى المدن سعياً وراء اكتساب المال من أهون سبيل . كما أصبح الجيش يستوعب أعداداً ضخمة من الفلاحين الذين كانوا هم على الدوام عماده . وبذلك ازداد عدد الضياع الكبيرة التي يزرعها العبيد من ناحية ، وتناقص عدد الفلاحين الأحرار الذين يزرعون أرضاً مملوكة لهم من ناحية أخرى . فكان من نتيجة ذلك أن أصبح يسيطر على الدولة الرومانية عدد لا يفتأ يتزايد من رؤوس الأموال الضخمة المركزة فى يد عدد قليل من الأشراف ورجال الأعمال ، بينما تدهور حال صغار الملاك من الفلاحين ، حتى أفلس عدد كبير منهم وأصبحوا يتضورون جوعاً . وكان من العوامل التي أدت إلى ازدياد هذا الموقف سوءاً كذلك ، أنه بعد أن كانت العملة المتداولة فى البيع والشراء هى الماشية ، لم تلبث الدولة أن طرحت عملة نحاسية للتعامل بها وكانت تسميها « بيكونيا » ، وقد اشتقت اسمها من كلمة « بيكوس » أى ماشية . ومن ثم أصبحت هذه العملة الجديدة قابلة للانتقال بسهولة ، وقابلة للتجميع والتكديس ، فكانت النتيجة أنها تضخمت فى يد الأقلية ذات الامتيازات ، بينما تسربت من يد الأغلبية العظمى من العامة والفلاحين ، فلم يلبث أن أدى ذلك — كما سبق أن رأينا — إلى ثورة عارمة إجتاحت البلاد كلها ، وقد تزعمها تيبريوس جراكوس ، الذى نادى بوجوب إعادة تقسيم الأرض تقسيماً عادلا بين جميع المواطنين ، والأخذ

بيد الطبقات الفقيرة ولكن أعضاء مجلس الشيوخ رفضوا هذه الإصلاحات وذبحوا تيبريوس جراكوس . حتى إذا قام أخوه كايوس جراكوس بعد ذلك محاولاً تنفيذ برنامجه ذبحوه كذلك ، وقضوا على كل دعوة للإصلاح . ومن ثم لم تعد روما دولة زراعية تعتمد على الملكيات الصغيرة كما كانت في بدية عهدها ، وإنما أصبحت دولة استعمارية رأسمالية ، تعتمد فى الخارج على استغلال الولايات الخاضعة لها أبشع استغلال والاستيلاء على منتجاتها ، وتعتمد فى الداخل على استثمار رؤوس الأموال بالعمليات المالية الصرفة ، وبتشغيل العبيد في الزراعة وغيرها من النواحى الاقتصادية فى البلاد .

وقد كانت أرض روما وغيرها من أنحاء شبه الجزيرة الإيطالية غير غنية بالمعادن ، فلم تتقدم فيها صناعة التعدين أو غيرها من الفنون الصناعية ، ومن ثم ظل النشاط الصناعى بها محدوداً ومحصوراً فى الصناعات الصغيرة التي يقوم بها أفراد من الأحرار . بيد أنه لم يلبث العبيد أن تدفقوا كذلك على مجال الصناعة ، فأدى ذلك إلى انخفاض أجور العمال الصناعيين وانحطاط مستواهم إلى درجة دفعت بهم إلى الانضمام إلى صفوف الثائرين . وقد كانت المدن الكبيرة المعروفة قبل قيام روما مدناً صناعية فى الغالب ، فهكذا كانت كورنثوس وقرطاجنة وسيراكوز والإسكندرية . أما روما فلم تكن مدينة صناعية في وقت من الأوقات ، وإنما كانت عاصمة سياسية ومالية فحسب ، وكانت تستورد المصنوعات التى تحتاج إليها من الولايات الخاضعة لها أو من بلاد الشرق الأقصى كالصين والهند .

وكان الرومان يحتقرون الاشتغال بالتجارة فلم تزدهر التجارة فى روما كما ازدهرت في غيرها من الدول الكبرى المعاصرة لها كقرطاجنة مثلا . وحتى

حين أنشأت روما شبكة عظيمة من الطرق المعبدة فى كل أنحاء إيطاليا وقضت على قوة قرطاجنة وقوة المدن اليونانية التى كانت تسيطر على الطرق البحرية ، كما قضت على القرصنة ، لم تزدهر التجارة مع ذلك بين روما والبلاد الأخرى ، وإنما اقتصرت روما على الاستيراد دون التصدير ، لأنها كانت تغتصب أموال العالم لتؤدى منها ثمن وارداتها ، فلم تكن فى حاجة لأن ترد مقابلها أى نوع من الصادرات . فكانت روما تشبه رجلا غنياً يمتلك ضياعاً عظيمة ولا يؤدى أى عمل إلا أن يتلقى منها ما تفيض به من خيرات ، ثم يبددها فى شهواته وملذاته .

المبحث الثالث

الديانة الرومانية

كانت الديانة الرومانية تجمع بين عبادة الطبيعة والإيمان بالسحر والخرافات . وكانت بعض معتقدات هذه الديانة منحدرة من عصر ماقبل التاريخ ، وبعضها منحدرة من القبائل التى غزت شبه الجزيرة الإيطالية منذ ألفى عام قبل الميلاد . وقد تأثرت الديانة الرومانية على الخصوص بعقائد الأتروريين الذين حكموا روما فى بداية عهدها ، وكانوا يؤمنون — كما كان يؤمن اليونان — بوجود مجمع للآلهة يتألف من اثنى عشر إلهاً يرأسهم الإله «تينيا» وكانوا جميعاً موضع الخوف والرهبة من رعاياهم ، حتى لقد كان مجرد ذكر أسمائهم يعتبر جريمة لاتغتفر . وكان أشدهم سطوة الإله «مانتوس» سيد العالم السفلى وزوجته الإلهة «مانيا» ، وكان لكليهما حشد عظيم من الشياطين يأتمرون بأمرهما . كما كان من أقوى أولئك الآلهة وأكثرهم نفوذاً الإلهة «مين» إلهة القمر . وكانت لهذه الديانة الأترورية طقوس رهيبة تقتضى تقديم الذبائح البشرية لاكتساب رضا الآلهة واجتناب غضبها . وقد أخذ الرومان عن الأتروريين هذه الطقوس ، فكانوا كلما نزلت بهم نازلة بادروا إلى ذبح البشر فى هياكل الآلهة استرضاء لها وتقرباً إليها .

وكان الرومان يعتقدون أن كل شيء فى الطبيعة يرمز لإله من الآلهة ، ومن ثم فإن كل إله منها يتولى حماية الشيء الذى هو رمزه : فكانت النار هي رمز الإلهة

« فستا » فكانت لاتفتأ تحوم حولها وتؤججها . وكانت عتبة الدار هى رمز الإله « يانوس » ، فكان يقبع عندها ، وكان له وجهان يراقب بأحدهما الداخلين إليها وبالآخر الخارجين منها . وكانت الأرض ترمز لعدة آلهة ، فهى الإلهة « تيراماتر » أى الأرض الأم ، وهى الإلهة « بونادّيا » أى الإلهة الصالحة ربة الخصب ، وهى الإله « مارس » إله الحرث . وكان الإله « لار » هو المنوط



« الإله فولكان »

بحراسة الحقول ، والإلهة « بينات » هى المنوطة بحراسة المخازن . وكان « ساتر » للزرع ، و « سيريز » للمحصول ، و « ساتا » للبذور ، و « باليس » للمراعى ، و « امستاركيولوس » للسماء ، و « جوبيتر » للمطر ، و « فولكان » لإيقاد النار ، و « فورناكس » لتحميص الذرة فى التنور . وكان « ترمينوس » يحرس الحدود ويتمثل فى الحجارة والأشجار القائمة عندها . وكان « نبتون » إله البحار ، و « سلفانوس » إله الغابات ، و « ديانا » إلهة القمر ، و « مركورى » راعى

التجار واللصوص . وكانت الآلهة تتقمص بعض الحيوانات المقدسة كالخيل والأوز والحيوان أو الطير الذبيح . وكما كان للأشياء المحسوسة آلهة تمثلها ، كان كذلك للمعنويات غير المحسوسة آلهة تمثلها وترعاها : فكان « هيركليوس » إله الفرح ، و« مينرفا » إلهة الحكمة ، و « آبس » إله الثروة ، و « بيلونا » إلهة الحرب ، و « فينوس» إلهة الحب، و« يونوريجينا » إلهة الزواج . وكان الإله «تتومس» يشرف على حمل المرأة ، والإلهة « لوسينا» تشرف على ولادتها. وكان «بريابوس»



« الإله جوبيتر »

إله التناسل عند اليونان ، ولكنه انتقل إلى روما وسكن فيها ، وكان له فى كل حديقة من حدائقها العامة تمثال فاضح لاتفتأ تتهافت عليه العذارى الراغبات فى إنجاب الأطفال . وهكذا كان لكل شىء ولكل شخص ولكل عمل من الأعمال ولكل معنى من المعانى ، إله يمثله عند الرومان ، ومن ثم كانت آلهتهم كثيرة جداً ، حتى قيل أنها تبلغ ثلاثين ألفاً .

وقد عينت الدولة بعض هذه الآلهة لتكون آلهتها القومية ، ونظمت لها

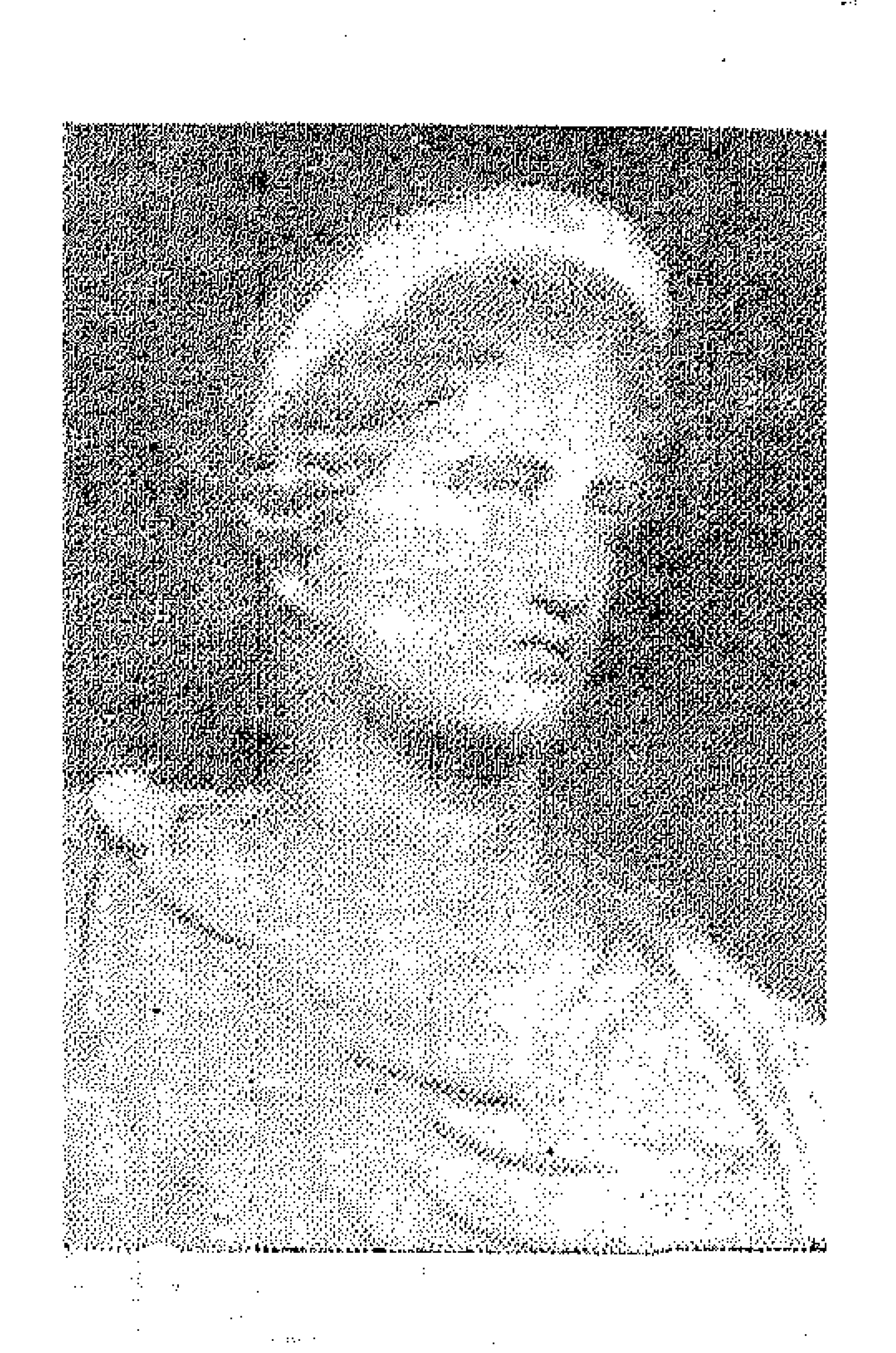
عبادات رسمية ومعابد خاصة . وقد كان الإله «جوبيتر» أو « جوف » هو أحب هذه الآلهة القومية لدى الشعب الرمانى وإن لم يتخذ فى البداية مكانة « زيوس » عند اليونان . وكان هذا الإله يتمثل فى صور مختلفة أهمها صورة «جوبيتر فلوفيوس» إله المطر، فكانت نساء أكبر العائلات فى روما ، إذا أجدبت السماء، سرن حافيات الأقدام فى موكب عظيم إلى هيكل « جوبيتر » فوق الكابيتول ، والتمسن من



« الإله مارس »

ذلك الإله وهن راكعات أن يأمر المطر فينهمر . كما كان الرومان يحبون الإله «مارس» الذى كان فى بداية الأمر إله الحرث ، ثم لم يلبث أن أصبح إله الحرب، كما أصبح رمزاً لمدينة روما وشعاراً لها . وكانوا يحبون الإلهة « يونوريجينا » ملكة السماء وإلهة الزواج وحامية الأنوثة والأمومة ، وقد أطلقوا اسمها على أحد الشهور وهو شهر يونيو ، وكانوا يعتقدون أن أسعد الزيجات هى التى تتم فى هذا الشهر . وكانوا يحبون كذلك «فينوس» إلهة الحب والشباب ، وكان شهرها

المقدس هو شهر أبريل الذى تتزاوج فيه الطيور وتتفتح الأزهار . وكانو ايحبون « ديانا » إلهة القمر ، وقد كانت كذلك إلهة النساء والعبيد والغابات ، وكان ثمة أيكة بالقرب من أريشيا كان الرومان يعتقدون أن عندها إلتقت ديانا بالإله « فربيوس » ملك الغابات ، فأدى لقاؤهما إلى خصب الأرض ، ولكي يضمنوا دوام هذا الخصب ، كانوا يكلفون في كل عام عبداً قوياً بأن يتسلح بغصن من



« الإلهة يونو »

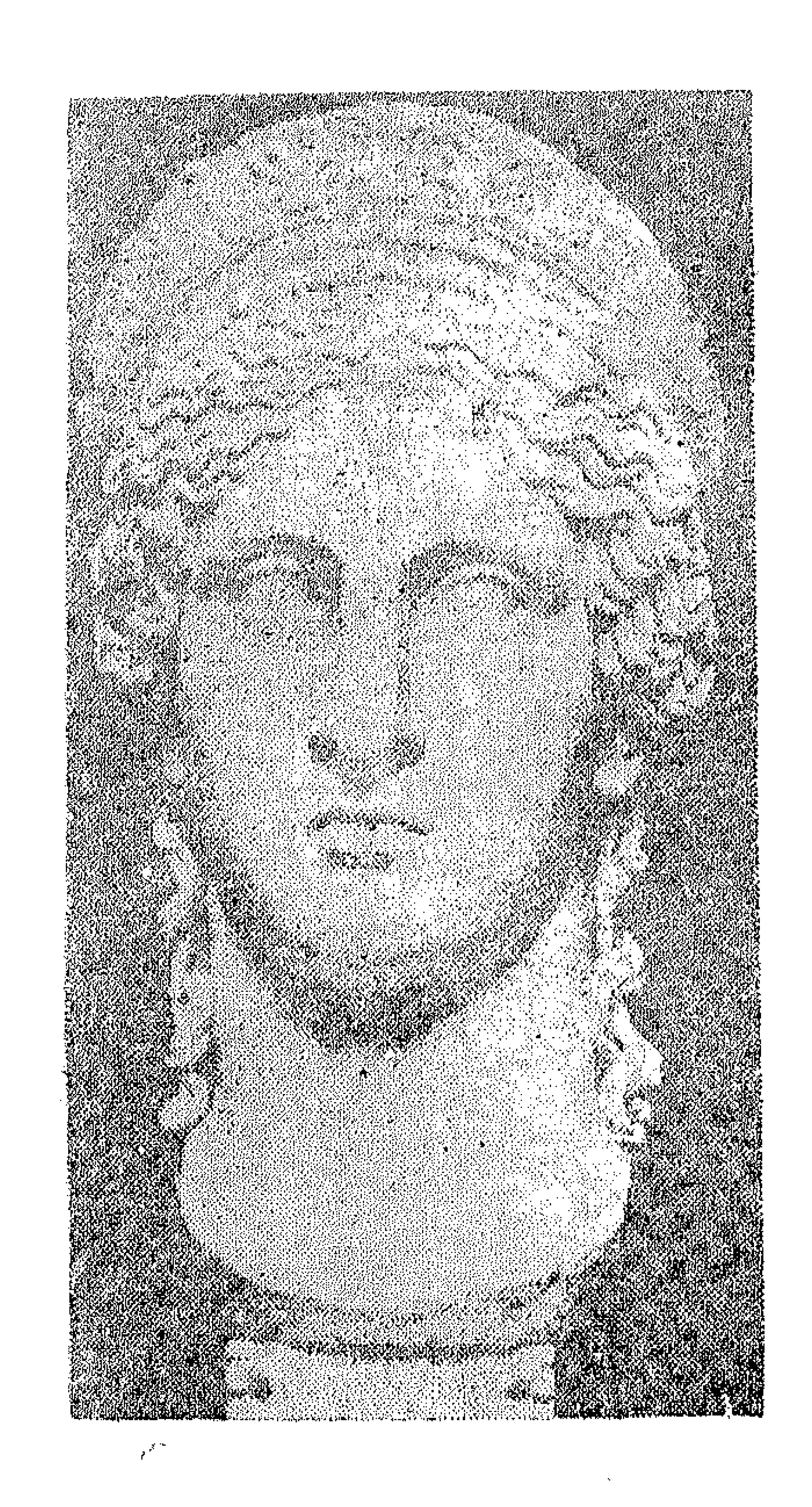
أغصان الأيكة المقدسة ويهجم على ملك الغابات ـ ممثلا فى أى صورة له — ثم يذبحه . وبقيت هذه العادة جارية حتى القرن الثانى بعد الميلاد .

وكان الرومان يعتقدون أن بعض الآلهة لها هيئة كهيئة البشر ، وتتصرف كما يتصرف البشر وإن كانت خالدة ، وأن بعضها الآخر ليس إلا أرواحاً كالأطياف ، بيد أن لها قوة سحرية تستطيع بها أن تنفع الناس أو تؤذيهم ، وتستطيع أن تسعدهم أو تشقيهم . فكانوا يطلبون رضاها أو يتقون شرها ، بأن يواظبوا على

تقديم القرابين إليها يقتضى طقوس سحرية ذات ألفاظ معينة وحركات محددة ، وكانوا يعتقدون أنهم لو أدوا هذه الطقوس على الوجه الأكمل وكما هى مرسومة بالضبط دفعوا بذلك القوى الإلهية إلى أداء عملها ونالوا منها ما يبتغون. أما إذا وقع أى خطأ ولو طفيف فى قول من الأقوال أو فعل من الأفعال التى تقتضيها الطقوس فلا تثمر هذه الطقوس ثمرها وينبغى عندئذ إعادتها من جديد ، ولو تطلب ذلك تكرارها ألف مرة . وكان القربان الذى يقدمونه فطيرة يضعونها على الموقد ، أو كأساً من النبيذ يلقونه فى النار ، أو كبشاً أو كلباً أو فرساً يذبحونه فى المعبد . أما فى المناسبات الهامة فكان القربان خنزيرا أو شاة أو ثوراً ، وكانوا يذبحون هذه الثلاثة مجتمعة في العيد المسمى « سو أوفى فو إيللا » أى عيد الخنزير والشاة والثور . وكانوا يعتقدون أنهم إذا تلوا صيغة خاصة على الضحية استحالت على الفور إلى الإله الذى يقدمونها إليه ، وعندئذ يقسمها الحاضرون فيما بينهم ويأكلونها لتنتقل قوة الإله إليهم . وكانوا أحياناً — إذا أحسوا بأن الآلهة قد اشتد غضبها عليهم — يذبحون الآدميين ويقدمونهم قرباناً لهم .

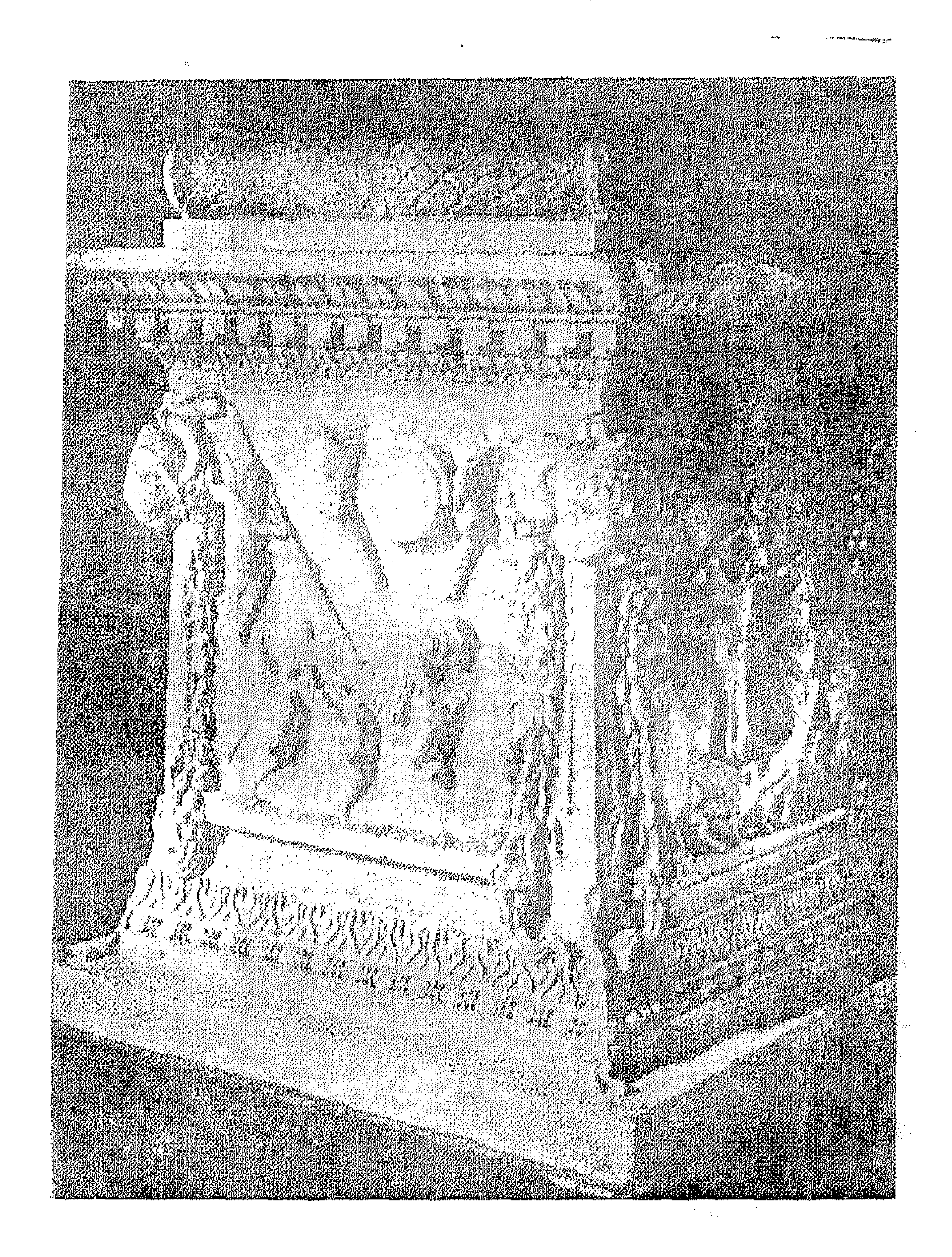
ولما كانت الطقوس السحرية هى الوسيلة الوحيدة لدى الرمان لتحقيق آمالهم ودفع الشرور عنهم ، لجأوا — فضلا عن تقديم القرابين — إلى استخدام التعاويذ والتمائم والطلاسم والرقى السحرية ، ومن ثم سيطر عليهم السحر كما سيطر عليهم السحرة ، الذين كانوا يؤمنون بقوتهم الخارقة ويعتقدون أن فى استطاعتهم أن يطيروا فى الهواء ويختفوا فى جوف الأرض ، وأنهم بكلمة منهم يميتون الأحياء ويحيون الموتى .

وإذ كان الرومان يؤمنون بأن الآلهة يسيطرون على كل أفعالهم وتصرفاتهم ، وأن بيدهم السعادة والشقاء ، والسعد والنحس على السواء ، كانوا لا ينجزون عملا



« الإلهة ديانا »

من الأعمال مهما كان صغيراً أو كبيراً ، أو تافهاً أو خطيراً ، إلا بعد استشارة الآلهـة عن طريق العرافين الذين كانت وسيلتهم إلى ذلك أن يفحصوا أكباد



« مذبح رومانى »

المذبوحين قرباناً للآلهة من إنسان أو حيوان، ويقرروا على ضوء محتوياتها ما إذا كانت الآلهة راضية أو غير راضية عن العمل الذى يراد إنجازه . وكثيراً ما كان

يحدث أن تنفضّ الجمعية الشعبية بعد انعقادها ، أو يتقرر تأجيل حرب ، أو إلغاء معاهدة ، أو العدول عن عمل من أخطر أعمال الدولة لأن العرافين قرروا أنهم رأوا فى أكباد الذبائح مايدل على أن الآلهة غير راضية .

ولم يكن لدى الرومان كهنة بالمعنى الذى عرفه المصريون أو البابليون : إذ كان رب الأسرة هو الكاهن فى بيته . وكان يرأس الصلوات العامة فى المعابد



« عذراء فستية »

جماعات من الكهنة يرأسهم حبر أعظم . بيد أنه كان فى وسع كل مواطن أن ينضم إلى هذه الجماعات أو يخرج منها ، فهى لم تكن تؤلف طبقة متميزة ، ولم يكن لهـا أى امتياز اجتماعي أو سلطان سياسى . ولكنها أصبحت مع مرور الزمن عظيمة الثراء بما كان يحبسه عليها المتدينون من أموال . وكانت الهيئة الدينية العليا فى روما خلال القرن الثالث قبل الميلاد تتألف من تسعة أعضاء ، كانوا يحتفظون

لديهم بالحوليات التاريخية ، ويسجلون القوانين ، ويقدمون القرابين فى المذبح ، ويقرأون الغيب ويطهرون روما مرة كل خمس سنوات . وكان يساوى هؤلاء الأحبار فى القيام بالشعائر الدينية خمسة عشر كاهناً يسمون « فلامينى » أى موقدى نيران الأضاحي . وكان ثمة طوائف أخرى من الكهنة أقل مرتبة من أولئك ، وتختلف ألقابهم حسب تخصص كل طائفة منهم : فكان « السالى »



« الإلهة سيبيل »

يؤدون الرقص المقدس فى هيكل مارس ، وكان « الفيتالى » يصدقون على إعلان الحرب وعقد الصلح ، وكان « اللوبرسى » أو إخوان الذئاب يقومون بطقوس لوبركاليا العجيبة . وكان ثمة طائفة من الكاهنات المعروفات بالعذارى الفستية يتم اختيارهن من بين الفتيات اللاتى تتراوح أعمارهن بين السادسة والعاشرة ، على أن يقسمن بأن يبقين عذارى فى خدمة الإلهة « فستا »

ثلاثين سنة ، فاذا حنثت إحداهن فى قسمها كان جزاؤها أن تدفن حية .
وكان من واجبات هاتيك العذارى أن يعنين بموقد الدولة ، ويرششنه كل يوم بالماء المقدس الذى يأخذنه من عين الإلهة الحورية « إيجيريا » . بيد أن أعظم طوائف الكهنة نفوذاً ، كانت هى طائفة العرافين التسعة الذين كانوا يدرسون



« الإلهة يونو »

إرادة الآلهة بفحص أكباد الأضاحي ، أو باتجاه الطيور أو لمعان البرق أو هزيم الرعد أوهبوب الريح أو ما شابه ذلك من الظواهر الطبيعية التى كان العرافون يزعمون العلم بما تنطوى عليه من معان ودلالات ، وكانوا يتخذون ذلك سبيلا إلى الكسب ويستغلونه أسوأ استغلال . فأى قانون لا يتفق مع مصلحة طائفة

من الناس كان يمكنهم تعطيله إذا اتفقوا مع العرافين كي يقولوا أن الآلهة غير راضية، وأي حرب تتفق مع مصلحة طائفة من الناس كان يمكنهم إشعالها إذا اتفقوا مع العرافين كي يقولوا أن الآلهة راضية. وكانت الحكومة في الأزمات الخطيرة تزعم أنها تعرف ما تريده الآلهة بالرجوع إلى الكتب السيبيلية، وهي التي تتضمن نبوءات سيبيل كاهنة أبوللون في كوماي. كما كانت تبعث بالرسل أحياناً



« الإله زيوس »

إلى معبد دلفي ببلاد اليونان لتقنع الشعب الروماني — عن طريق ما تزعم أنه نبوءات الآلهة في ذلك المعبد — بالرضوخ لما تصدره من تشريعات أو تتخذه من إجراءات.

حتى إذا بدأت روما تبسط سلطانها على الشعوب المحيطة بها، كانت حين تقهر مدينة من المدن لا تأسر حكامها فحسب، وإنما تأسر آلهتها كذلك، وتجيء بهم إلى روما لتضمهم إلى آلهتها. وقد فعلت ذلك مع « يونو » إلهة « فياى » حين قادتها أسيرة إلى روما. بيد أنه حدث أن بعض الآلهة الأجنبية كانت هي الغازية

لروما . ومن ذلك أن مجموعة من الآلهة اليونانية إقتحمت روما منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد تقدمها « ديونيسوس » ثم « ديميتير » ثم تبعهما « كاستور » و « بولايكس » اللذان بلغ من نفوذهما أن أصبحا الحاميين الرسميين للمدينة . ثم جاء بعدهما « أبوللون » و « أسقلابيوس » و « خرونوس » . ثم فتح الرومان بلاد اليونان وجاءوا منها مع غنائمهم بطائفة أخرى من الآلهة مزجوها بآلهتهم ، فمزجوا



« الإله باخوس »

بوسيدون بنبتون ، وأرتميس بديانا ، وهيفايستوس بفولكان ، وهيراكليس بهيراكليوس ، وهاديس ببلوتون ، وهرميس بمركورى . وإذ وجد الرومان أن اليونان جعلوا لآلهتهم رئيسا هو زيوس ، فعلوا هم ذلك كذلك فجعلوا جوبيتر رئيساً لآلهتهم . وهكذا بدأ الرومان يتأثرون بالديانة اليونانية . ولم يلبث الأسرى اليونان أن تدفقوا على روما ، فجاءوا بعقائد هذه الديانة وطقوسها وشعائرها ، كما جاءوا معهم بكثير من مذاهبها وأفكارها وخباياها وأسرارها ،

فلم يلبث الرومان أن فتنهم ديونيسوس إله الحب وباخوس إله الخمر وإفروديتي إلهة الجمال ، كما سحرتهم العقيدة الأورفية والعقيدة الديونسية والعقيدة الديمترية وغيرها من العقائد اليونانية التي تجرى طقوسها فى الخفاء ، والتي تتسم بكل ما تتصف به الطبيعة الرومانية من الإنحلال والانطلاق ، وتمتلىء بكل ما تصبو إليه من القسوة وانحطاط الأخلاق ، وقد كان من مقتضيات تلك الطقوس ذبح الأطفال



« الإلهة سيبيل »

وارتكاب أبشع أعمال التهتك والفسق والفجور . وقد وقع مجلس الشيوخ الروماني نفسه تحت تأثير العقائد الرومانية فراح يتصرف حتى فى أخطر شئون الدولة بناء عليها . ومن ذلك أنه حين عجز الرومان سنوات طويلة عن هزيمة هانيبال الذى غزا إيطاليا وأذل روما ، أعلن مجلس الشيوخ أن الكتب السيبيلية تتنبأ بأن هانيبال لن يغادر إيطاليا إلا إذا جىء بالأم الكبرى من بيسينيوس في فريجيا إلى روما . وكانت الأم الكبرى هى حجر أسود يعتقدون أنه جسد الإلهة سيبيل ، وكان فى

حوزة أتالوس ملك برجاموم ، ومن ثم راح مجلس الشيوخ يفاوض ذلك الملك حتى أقنعه بالموافقة على نقل هذا الحجر إلى روما . وفى اليوم المحدد لوصول السفينة التى تقل الحجر المقدس إحتشد على الشاطىء عشرات الألوف من الرومان يتقدمهم القنصلان وأعضاء مجلس الشيوخ وأشراف البلاد ، حتى إذا بلغت السفينة الشاطىء تقدمت العذارى الفستية فرفعنه وسرن به فى موكب مهيب إلى هيكل النصر ، وكان أهالى المدينة جميعاً يحرقون البخور أمام بيوتهم عند مرور الموكب ، وترتفع الصلوات والابتهالات فى كل مكان . وقد قررت الدولة أن يكون اليوم الذى رحلت فيه الأم الكبرى عيداً قومياً تحتفل به الدولة كل عام . ومن الطريف أنه لم تمض على ذلك اليوم بضعة أشهر حتى اضطر هانيبال إلى مغادرة إيطاليا ، فأصبح الحجر الأسود منذ ذلك الحين كعبة الرومان ، وأصبحت الأم الكبرى أعظم الآلهة الرومانية .

ولم يتأثر الرمان بالديانة اليونانية وحدها ، فإنهم لم يلبثوا كذلك أن تأثروا بالديانة المصرية ، فلم تلبث إلهة المصريين « إيزيس » أن غزت روما ، بل غزت الإمبراطورية الرومانية كلها حتى بلغت هولندا واسكتلندا ، وقد أقيم لها معبد فى كل مدينة ، وأقيم لها بداخل كل معبد تمثال عظيم يمثلها فى صورة ربة السماء وهى تحمل بين ذراعيها طفلها المقدس حوريس ، وقد أضيئت حولها الشموع وارتفع أريج البخور . كما دخلت إلى روما كذلك عبادة الإله المصرى « أوزوريس » بعد أن أطلق عليه اليونان إسم « سيرابيس » وقد احتل مكانة رفيعة بين الآلهة الرومانية ، وأصبح الرومان يعبدونه فى الخفاء ، ثم لم يلبثوا أن عبدوه علانية .

وكان من بين الديانات التى دخلت روما كذلك مع فتوحها الديانة الفارسية ، وقد أصبح للإله الفارسى «ميترا» على الخصوص أثر عظيم فى الرومان ، ولاسيما أنه كانت له طقوس خفية تشبه الطقوس الخفية للعقائد اليونانية ، وكان اعتناق عقيدته يتطلب العماد ، ولكن ليس بالماء بل بالدم .

وهكذ أصبحت روما وكل مدينة رومانية أخرى تضم هياكل الآلهة من كل جنس ، فهناك يجتمع معبد جوبيتر الرومانى ، ومعبد زيوس اليونانى ، ومعبد سيرابيس المصرى ، ومعبد ميترا الفارسى ، وقد أصبحت الديانة الرمانية تتسع لأولئك لآلهة جميعاً ، ومن ثم أصبحت خليطاً من ديانات مختلف الشعوب .

وكان الرومان يعتقدون أن روح الإنسان تنزل بعد موته إلى باطن الأرض لتستقر فى مملكة الأشباح التى يسيطر عليها الإلهان بلوتون وأوركوس . وكان بلوتون هو أعظم الأرباب فى باطن الأرض ، وأعلاها مقاماً ، وكان يحمل فى يده مطرقة يضرب بها الميت حتى يغيب عن وعيه . أما أوركوس فكان هو الهولة التى تتلقف الميت بعد ذلك وتلتهم جثته . بيد أن أرواح الأموات لاتفتأ ترقب الأحياء وترصد كل حركاتهم وتصرفاتهم ، ومن ثم كان الرمان يخشون هذه الأرواح كما يخشون الآلهة ، وكانوا لذلك يسترضونها بالهدايا والقرابين كما كانوا يفعلون مع الآلهة . وكانت جنازات الرومان تشبه فى ضجتها وفخامتها احتفالات النصر لديهم . فكان يتقدم موكب الجنازة جماعة من النادبات المأجورات يصرخن ويولولن ، ثم يأتى بعد ذلك الزمارون ينشدون التواشيح والأغانى ، ثم الراقصون يمثل واحد منهم الميت ، ثم الممثلون يلبسون أقنعة الموت أو وجوهاً من الشمع تمثل أجداد الميت الذين شغلوا مناصب ذات شأن في الدولة ، ثم تأتي

بعد ذلك جثة الميت محوطة بمظاهر التكريم كأنه القائد المنتصر ، وقد رقدت فى نعش ملفوف بأغطية أرجوانية مطرزة بالذهب ، واكتست بالحلة المخصصة لأكبر منصب شغله الميت فى حياته ، ومن حولها الأسلحة والدروع التى غنمها ممن قتلهم من الأعداء ، ويسير خلف النعش أبناء الميت وعليهم أثواب وأقنعة سوداء ، وبناته سافرات ، ثم يأتى بعد ذلك أقاربه وأبناء عشيرته وأصدقاؤه وعبيده . وكان الرومان فى القرون الأولى من تاريخهم يحرقون جثث موتاهم ، ثم أصبحوا بعد ذلك يدفنونها ، بيد أن المحافظين منهم ظلوا يحرقونها طبقاً للتقاليد القديمة . وفى الحالتين كانت جثة الميت أو بقاياه تدفن فى قبر يغدو بعد ذلك مزاراً لأهله ومعبداً يعبدونه فيه ، ويقدمون إليه التقدمات والقرابين .

وكانت الأعياد الدينية لدى الرومان كثيرة جداً تكاد أن تستغرق معظم أيام العام ، وكانوا يقصدون بالأعياد استرضاء الآلهة وأرواح الأموات . بيد أن العامة كانوا يتخذون من الأعياد فرصة للعربدة والتهتك والمجون ، ولاسيما فى عيد الليبيراليا ، وهو عيد إلهى العنب « ليبر » و « ليبيرا » ، فقد كانت الغالبية العظمى من الرومان فى ذلك العيد تطلق لنفسها عنان الفجور إلى درجة فاحشة فاضحة .

وهكذا كانت الديانة الرومانية عنصراً من العناصر التى تتألف منها طبيعة الرومان السطحية الشهوانية القاسية ، فقد كانت تصور الآلهة على مثال الرومان أنفسهم ، ماديين نفعيين غلاظ القلوب مجردين من الأخلاق ، لا يكافئون الإنسان إذا كافأوه من أجل صلاحه وفضيلته ، وإنما بسبب ما يقدمه لهم من الهدايا وما يذبحه فى هيكلهم من الأضاحى والقرابين . فإذا لم يفعل أنزلوا به الأذى وعاقبوه أشد عقاب ،

ومن ثم لم يفكر الرومان فى التذرع بأى صلاح أو فضيلة لاكتساب رضا الآلهة ، وإنما وضعوا كل همهم فى رشوتهم بالماديات ، لكي يوفر الآلهة لهم بدورهم ما يطمحون إليه من الماديات . فكان هذا هو دستورهم الذى ساروا عليه فى كل شئون حياتهم وكل معاملاتهم مع أبناء بلدهم أو مع التعساء من أبناء البلاد الأخرى الذين أوقعهم حظهم العاثر تحت رحمتهم . وهكذا استطاع الرومان بالقوة المادية وحدها أن يفتحوا العالم وينشئوا دولتهم الضخمة .

البحث الرابع

الثقافة الرومانية

ظلت الدولة الرومانية زمناً طويلا منذ نشأتها متخلفة الثقافة ، وقاصرة في الآداب والعلوم . إذقامت الدولة على أساس القوة العسكرية والتطلع الدائم إلى السطوة والبطش ، فغفلت عن كل ماعدا ذلك من عناصر المدنية ومظاهر الحضارة ، بل استخفت بكل ما عدا ذلك واحتقرته ، واعتبرته من اهتمامات الضعفاء والعبيد . ولذلك ظل التعليم متخلفاً فى روما ومقصوراً على العاطلين وذوى الفراغ ، وظل الرومان أجيالا عديدة لا يعرفون المدارس . إذ يقول بلوتارك أن أول مدرسة رومانية أنشئت عام ٢٥٠ قبل الميلاد . وكان الذين تولوا التعليم في البداية هم العبيد المتعلمون الذين كان الرومان يأسرونهم من أبناء البلاد الأكثر منهم حضارة . فكان العبد يتولى تعليم أبناء سيده ، حتى إذا شاء سيده أن يمنحه حريته أنشأ لنفسه مدرسة خاصة يتولى فيها تعليم أبناء سادة عديدين ، ولم يكن هذا النوع من التعليم يشمل فى البداية إلا مبادىء القراءة والكتابة ومبادىء الحساب .

وكانت اللغة التي يتكلم بها الرومان هى اللغة اللاتينية، التى كانت فى الأصل لغة قبائل اللاتين ، وكانت ذات صلة باللغات السنسكريتية والكلتية ، كما كانت ذات صلة باللغة اليونانية وقد أخذت منها حروفها ، وهى جميعاً من أسرة اللغات الهندوأوروبية .

وقـد فرض الرومان لغتهم على كل الأمم التى أخضـعوها . بيد أن هـذه اللغة لم تـكن لهـا الغلبة أبداً فى البلاد ذات المدنيات القديمة واللغات العريقة الأصل : فقد ظل المصريون يتكلمون باللغة المصرية ، وظل اليونان وكل البلاد الهيلينستية — حتى المواطنون المتمتعون بالجنسية الرومانية منهم — يتكلمون باللغة اليونانية . ومن ذلك أن بولس الرسول كان فى الأصل يهودياً ، وكان معتبراً من الوجهة الرسمية مواطناً رومانياً ، ولـكنه كان مع ذلك يتكلم باللغة اليونانية ، وقد كتب بها كل رسائله . بل لقد بلغ الأمر باللغة اليونانية أن انتشرت فى روما نفسها وأصبحت لغة الأثرياء والمثقفين . وكذلك صمدت اللغة القرطاجنية فى فى بعض أصقاع أفريقيا وأسبانيا زمناً طويلا رغم هزيمة قرطاجنة وزوالها من الوجود . بل لقد كانت اللغة القرطاجنية هى اللغة القومية لأحد الأباطرة الرومان أنفسهم ، وهو سبتيموس سفيروس ، الذى حكم الدولة الرومانية فى أوائل القرن الثالث بعد الميلاد ، ولم يتعلم اللاتينية إلا باعتبارها لغة أجنبية ، وكانت له أخت لم تتعلم اللاتينية قط . أما فى البلاد التى لم تـكن بها مدنيات قديمة ولا لغات عريقة ، فقد تغلبت اللغة اللاتينية على لغاتها الأصلية . ومن تلك البلاد بريطانيا وبعض مناطق أسبانيا وبلاد الغال وهي فرنسا وولاية داكيا وهى رومانيا وولاية بانونيا وهي المجر . فقد تأثرت لغة البريطانيين تأثراً عظيماً باللغة اللاتينية . بيد أن أثرها كان أعظم وأعمق فى اللغات الفرنسية والأسبانية والرومانية والمجرية . أما اللغة الإيطالية الحديثة فقد انحدرت مباشرة من اللغة اللاتينية القديمة .

ولم تـكن حصيلة الأدب فى الثلاثة قرون الأولى من عهد الجمهورية الرومانية إلا طائفة من الأغانى الدينية ، ومجموعة من القصائد الشعبية التى تقص تاريخ روما وأساطيرها ، وبعض المسرحيات البدائية التى تتضمن ألواناً من الهزل الماجن

والغزل الفاحش والمجون البذىء . فلم يبدأ الرومان يعرفون شيئاً عن الأدب الراقى إلا فى عام ٢٧٢ قبل الميلاد، على يد عبد يونانى يسمى ليفيوس أندرينيكوس، كان الرومان قد جاءوا به أسيراً من تارنتوم بعد أن استولوا على هذه المدينة وذبحوا أهلها جميعاً ، فراح يعلم أبناء سيده اللغتين اللاتينية واليونانية ، وترجم لهم الأوذيسة ــ وهي ملحمة اليونان الكبرى ــ فى قصائد من الشعر اللاتينى ، ثم راح يكتب المسرحيات على النمط اليونانى باللغة اللاتينية ويشترك فى تمثيلها . ثم فى عام ٢٣٥ قبل الميلاد جاء جندى قديم من كمبانيا يدعى كانوس نيفيوس وقام بتأليف وتمثيل روايات هزلية سخر فيها من المفاسد السياسية فى روما على طريقة الأديب اليونانى أرستوفانيس . كما قام بتأليف مسرحية شعرية تتضمن تاريخ روما ، فضلا عن ملحمة شعرية تتضمن وصفاً كاملا لأحداث الحرب البونية الثانية. وهكذا كان رسل الثقافة إلى روما في البداية من اليونان أو المتشبعين بالثقافة اليونانية والناسجين على منوالها . فلئن كان الرومان قد سيطروا على اليونان بجيوشهم ، فقد سيطر اليونان فى ذات الوقت على الرومان بثقافتهم . وفى ذلك قال الخطيب الرومانى شيشرون « لم يكن الفيض الذى أقبل من بلاد اليونان وأغرق بلادنا غديراً صغيراً ، وإنما كان نهراً خضماً من الثقافة والعلم» . ومن ثم لم تلبث روما أن أصبحت من الوجهة الثقافية والعلمية جزءاً من العالم الهيلينستى المصطبغ بالصبغة اليونانية . حتى لقد قال الشاعر الرومانى هوراس « لقد أسرت بلاد اليونان المغلوبة غالبها الهمجى » . وهكذا وجد الغزاة اليونان فى مدارس روما ثغرة ينفذون منها للسيطرة على الرومان، فجاء فى أعقاب الجيوش الرومانية المنتصرة سيل منهمر من أولئك الذين كان الرومان يحتقرونهم فيسمونهم « جريكولي » أى « اليونان الصغار »، واشتغلوا بتعليم النحو والبلاغة والخطابة والفلسفة ،

فراح الرومان يتلقون على أيديهم قواعد اللغة اليونانية إلى جانب اللغة اللاتينية ، وراحوا يقلدونهم فى التأليف الأدبى والشعرى والمسرحى ، كما راح كبار خطبائهم من أمثال شيشرون وكاتو يتخذون خطب كبار الخطباء اليونان من أمثال ليسياس وهوبريديس وديموستينوس نماذج لهم ينسجون على منوالها . بيد أن أكبر أثر تركه المعلمون اليونان فى تلاميذهم من الرومان كان فى دروس الفلسفة التى كانت تتضمن أكبر انتقاد وتجريح لمفاسد الرومان وحطة أخلاقهم وحقارة



« شيشرون »

وسائلهم وغاياتهم ، حتى لقد غضب مجلس الشيوخ الرومانى وأصدر قراراً فى عام ١٧٣ قبل الميلاد يقضى بنفى اثنين من الفلاسفة اليونان من روما ، ثم لم يلبث أن أصدر قراراً آخر فى عام ١٦١ قبل الميلاد ، يقضى بأن « لا يبقى فى روما أحد من الفلاسفة على الإطلاق » . بيد أنه حدث بعد ذلك فى عام ١٥٩ قبل الميلاد أن جاء إلى روما فيلسوف يونانى هو كراتسى الماليوسى ، مدير المكتبة الملكية فى برجاموم ، وكان معتزماً أن يقضى بضعة أيام بالمدينة فى مهمة رسمية ، ولكنه انكسرت ساقه فى حادثة ، فاضطر لأن يقيم هناك ، وراح يلقى محاضرات فى

البلاغة والفلسفة ، أعادت إلى أذهان الرومان ذكرى الفلاسفة المطرودين ، ثم لم تلبث أثينا أن بعثت بعد ذلك بأعوام قليلة ثلاثة سفراء إلى روما ، كانوا من أشهر فلاسفة اليونان ، وهم كارنيدس الأفلاطونى ، وكريتولوس الأرسطالى وديوجين الرواقى ، فانتهز أولئك الفلاسفة فرصة مهمتهم السياسية وراحوا يلقون محاضرات كذلك فى البلاغة والفلسفة ، وقد التف شباب روما حولهم وافتتن بفصاحتهم وقوة حجتهم حتى لقد أخاف ذلك مجلس الشيوخ فأمرهم بالعودة إلى بلادهم . ولكنهم كانوا قد تركوا من الأثر في الرومان ما دفع بالكثيرين منهم لأن يتبعوهم إلى أثينا ليستزيدوا من أفكارهم الخلابة ومجادلاتهم الممتعة . بل أن بعض القواد الرومان أنفسهم استطاعوا أن يدركوا ما تنطوى عليه الثقافة اليونانية من روعة ، فقد حدث أن إيميليوس باولوس بعد أن هزم الملك برسيوس لم يستبق لنفسه من الغنائم العظيمة التي جاء بها إلى روما إلا مكتبة ذلك الملك . وقد حرص على أن يتعلم مع أبنائه كل ما تضمنته مخطوطات هذه المكتبة من بلاغة اليونان وفلسفتهم . حتى إذا مات إيميليوس باولوس ، قام صديقه كرنيليوس سيبيو بتبنى إبنه الأصغر . ومن ثم أضاف هذا الابن إسم متبنيه إلى اسمه على عادة الرومان وأصبح اسمه الكامل كرنيليوس سيبيو إيميليانوس ، ولم يلبث أن تزعم حركة من أكبر الحركات الأدبية والفلسفية فى تاريخ روما ، إذ أحاط نفسه بجماعة من الرومان الشغوفين بالثقافة اليونانية ، وراحوا ينهلون من ينابيع تلك الثقافة ، وقد انتفعوا فى ذلك إلى أقصى الحدود بمكتبة إيميليوس باولوس ، كما انتفعوا بتوجيهات إثنين من الفلاسفة اليونان ، هما بوليبوس ، وباناتيوس اللذين استضافهما سيبيو سنوات عديدة فى بيته . وقد شرح باناتيوس فلسفته الرواقية فى كتاب له سماه « الواجبات » ، فلم يلبث هذا الكتاب أن أصبح إنجيل روما ، وأصبح هو

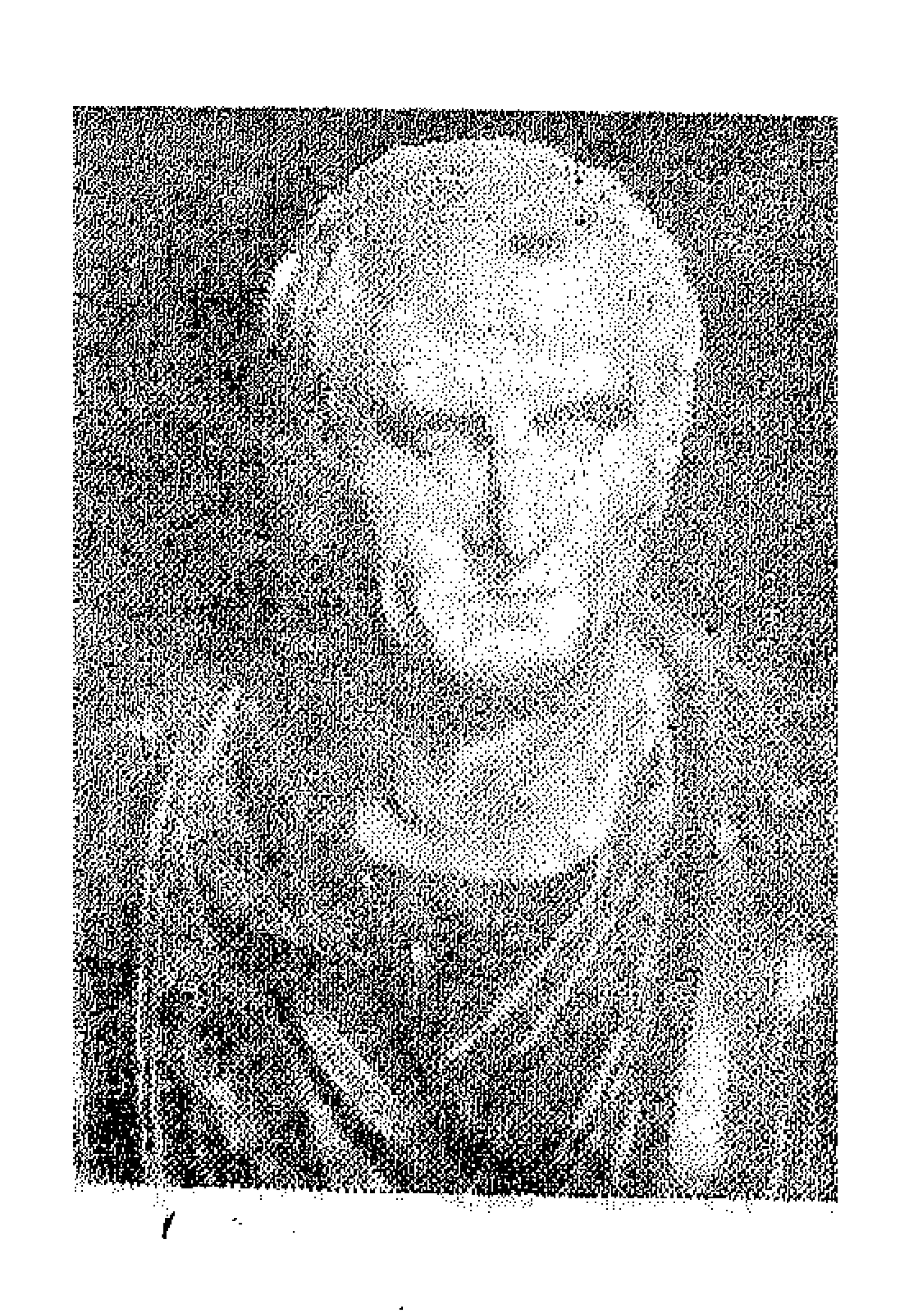
الملهم لكل المفكرين الرومان الذين جاءوا بعد ذلك ، ولاسيما شيشرون وسينيكا وماركوس أوريليوس ، وقد استعاضوا بمبادئه عن كل مبادئهم الدينية والأخلاقية السابقة . وهكذا استطاعت جماعة سيبيو المتأثرة بالثقافة اليونانية أن تترك أثراً عظيماً فى المجتمع الرومانى . وقد ظهر بتشجيع هذه الجماعة أديب ممتاز هو جايوس ليليوس ، وقد أعجب به شيشرون بعد مائة عام من وفاته فأطلق اسمه



« ماركوس أوريليوس »

على إحدى مقالاته . كما ظهر بتشجيع هذه الجماعة شاعر مرموق هو كوينتوس إينيوس ، وقد كتب ملحمة شعرية فى تاريخ روما . وعن طريق هذه الجماعة كذلك بدأ المسرح يزدهر فى روما ، وقد تولى التأليف له مؤلفون من اليونان وتولى التمثيل فيه ممثلون من اليونان كذلك . أما الرومانى الذى يتخذ التمثيل حرفة له فكان يفقد حقوقه المدنية ، أى يفقد جنسيته الرومانية . وأما الذى يتجرأ على هجاء الحكام فى التمثيليات على نمط الكوميديات القديمة فكانت

عقوبته الإعدام. وقد كان من أشهر الكتاب المسرحيين الأوائل تيتوس بلوتوس، ويقال إنه كتب أكثر من مائة وثلاثين مسرحية، ولكنه لم يبق منها إلا عشرون. وكذلك بيبليوس ترتينيوس وكان عبداً فينيقياً أعتقه سيده، فانقطع إلى كتابة المسرحيات، ويرجع إليه الفضل فى تهذيب اللغة اللاتينية وتطويعها للتأليف الأدبى. وقد كان الخطيب الرومانى ماركوس بورسيوس



« شيشرون »

كاتو من ألد أعداء جماعة سيبيو بسبب دعوتها للأدب اليونانى حتى لقد كتب يقول « إن اليونان جنس مجرم عنيد. وأؤكد أن هذا الشعب إذا غمر روما بأدبه سيقضى على كل شيء فيها ». ومع ذلك فإنه كان فى خطبه يقلد الخطباء اليونان، ثم حين انقطع للكتابة في أواخر أيامه انتهج ذات الأسلوب الذى ابتدعته جماعة سيبيو، ولا سيما ترنتيوس فى استخدام اللغة اللاتينية.

وقد كان من ثمار هذه النهضة التي أحدثها اليونان فى الأدب الرومانى عدد

من الأدباء والخطباء والفلاسفة الذين اشتهروا فى تاريخ روما خلال القرن الأول قبل الميلادوفى مقدمتهم شيشرون وكان اسمه الكامل ماركوس تيليون شيشرون، وقد درس فى حداثته الأدب اليونانى والقانون . ثم حدث فى عام ٨٠ قبل الميلاد أن ندد بحكم الارهاب الذى أقامه سيللا ، فلما شعر بأن يد البطش ستمتد إليه سافر إلى بلاد اليونان حيث درس الخطابة والفلسفة ، ثم انتقل إلى رودس فدرس البلاغة ، ثم عاد أخيراً إلى روما واشتغل بالمحاماة فأهاج عليه طبقة الأشراف ، لأنه هاجم الفساد السياسى هجوماً عنيفاً ، ومن ثم اكتسب تأييد الشعب ، وقد أدى ذلك إلى انتخابه قنصلا عام ٦٣ قبل الميلاد . ولكنه لم يلبث أن انقلب على العامة وانضم إلى صفوف الأشراف الذين بدأوا يشيدون به واصفين إياه بأنه « أبو الوطن » ، وقد انغمس فى المؤامرات والمفاسد السياسية التى كان فى شبابه يندد بها ، مستخدماً فى ذلك بلاغته الخطابية التى كان يمزق بها سمعة أعدائه شر ممزق ، والتى جعلته أشهر خطباء التاريخ . وقد كتب إليه يوليوس قيصر يقول « لقد كشفت كل كنوز الخطابة ، وكنت أول من استخدمها ، فكانت لك اليد الطولى على جميع الرومان وكنت مفخرة وطنك ، إذ نلت نصراً دونه نصر أعظم القواد ، لأن ثمار العقل البشرى أنبل وأثمن من كل فتوح الإمبراطورية الرومانية » . وقد كتب شيشرون عدة رسائل طويلة فى فن الخطابة وتاريخ البلاغة ، كما كتب كثيراً فى الفلسفة ، فكان في كل ما كتبه رائداً كما هو رائد فى الخطابة . ولكن نهايته كانت بشعة إذ قتله ماركوس أنطونيوس وقطع رأسه ويده وعلقهما فى السوق العامة .

وقد اشتهر من أدباء ذلك العصر تيتوس لوكريشيوس كاروس ، وقد ولد فى نحو عام ٩٥ قبل الميلاد ومات فى نحو عام ٥١ قبل الميلاد فى بيت من بيوت

الأشراف ، وقد كتب كثيراً من القصائد الشعرية والأبحاث الفلسفية ، وكان متأثراً بالفلسفة الأبيقورية ومشغوفاً بالطبيعة كثير الوصف لها والإشادة بها ، وقد ترك أثراً من أشهر آثار الأدب الروماني ، وهو قصيدته التي سماها « في طبيعة الأشياء » يندد فيها بآلهة الرومان وما يتصفون به من شره وقسوة واستبداد ، ويعترف بأنه لا ينكر وجود الآلهة ولكنه يعتقد أنها متسامية جداً وبعيدة عن الاهتمام بشئون العالم ، وأنها لم تخلق العالم وليست هي السبب فيما يقع به من أحداث ، وإنما الطبيعة هي التي تفعل كل شيء من نفسها وبقوتها الذاتية ، فلا وجود إلا للذرات والفراغ ، أي المادة والفضاء . والذرات هي أجسام صلبة لا تقبل الانقسام ، واختلاف ترتيبها في الأشياء المختلفة هو السبب في اختلاف أحجام هذه الأشياء وأشكالها ، وفي انقسامها إنقساماً رئيسياً إلى نار وهواء وماء وتراب . أما الحياة فلا تختلف في جوهرها عن غيرها من خصائص المادة ، فهي نتيجة حركة الذرات التي لا حياة في كل منها بمفردها . وما الروح إلا مادة شفافة مكونة من ذرات دقيقة جداً تنتشر في الجسم كله وتبعث الحياة في كل جزء من أجزائه . بيد أنها لا تختلف عن الجسم في جوهرها، ولا تبقى بعد موت الجسم ، بل تفنى بفنائه لأنها ليست خالدة ، ولأنه لا وجود لأي حياة بعد هذه الحياة الدنيا ، فلا نعيم ولا جحيم ، ولا ثواب ولا عقاب ، فكل هذا من صنع خيال الإنسان ، والحقيقة أن الأرض هي نعيمه وجحيمه ، وعليها ينال ثوابه وعقابه . فكان لوكريشيوس بهذه الأفكار الفلسفية ثائراً على كل معتقدات الديانة الرومانية ، بل ثائراً على معتقدات الأديان جميعاً ، ولكنه صب هذه الأفكار في قالب شعري بلغ من بلاغته وجزالة عبارته ، أنه نقل زعامة الأدب من بلاد اليونان إلى روما .

كما اشتهر من أدباء ذلك العصر كوينتوس فاليريوس كاتولوس ، وكان يتزعم مجموعة من الأدباء ، منهم ماركوس كاتيليوس وليسينيوس كالفيس وهيلفيوس سينا ، وكانوا كلهم من دعاة الإنحلال الخلقي والاستهتار بكل المبادىء والمعتقدات، وتمجيد الغرائز والشهوات والتحريض على التهتك والانغماس فى الملذات . وقد كان أدبهم وشعرهم كله يدور حول النساء الساقطات ومجالس العربدة والمجون . وكان كاتولوس أسبقهم فى ذلك وأقدرهم عليه . وقد كان على علاقة مع كلوديا أخت كلوديوس التى سبق أن أشرنا إلى سوء سمعتها رغم انحدارها من بيت معروف . فكان الرومان يتغنون فى الشوارع بالقصائد التى وضعها ذلك الشاعر فى وصفها والتغزل فيها ، ولكنها لم تلبث أن انصرفت عنه إلى عشاق آخرين فراح يهجوها أقذع هجاء، حتى جعل منها أشهر امرأة متهتكة فى عصرها . وقد مهد كاتولوس بأسلوبه فى الشعر إلى ظهور أكبر شعراء الرومان بعد ذلك من أمثال هوراس وأوفيد وفرجيل ، فكان أستاذهم جميعاً فى هذا الميدان .

وكان من المؤرخين فى ذلك العصر كايوس سالوستيوس كريسبوس، وقد كتب تاريخا لروما ندد فيه بما كان يسودها من فساد وانحلال خلق . كما كان من المؤرخين القائد الحربى فارو ، ويقال إنه كتب ما يزيد على سبعين كتاباً ، منها كتاب « حياة الشعب الرومانى » وكتاب « الآثار المقدسة »، وكتاب « الحياة الريفية » . وكذلك كتب يوليوس قيصر تاريخاً لحروبه فى بلاد الغال .

وقد اشتهر بالخطابة بعد شيشرون كثيرون منهم لوسيوس كراسوس ، وسلبيسيوس روفوس ، وكوينتوس هورتنسيوس ، وماركوس أنطونيوس ، وهو ابن أنطونيوس الشهير الذى انتحر فى مصر .

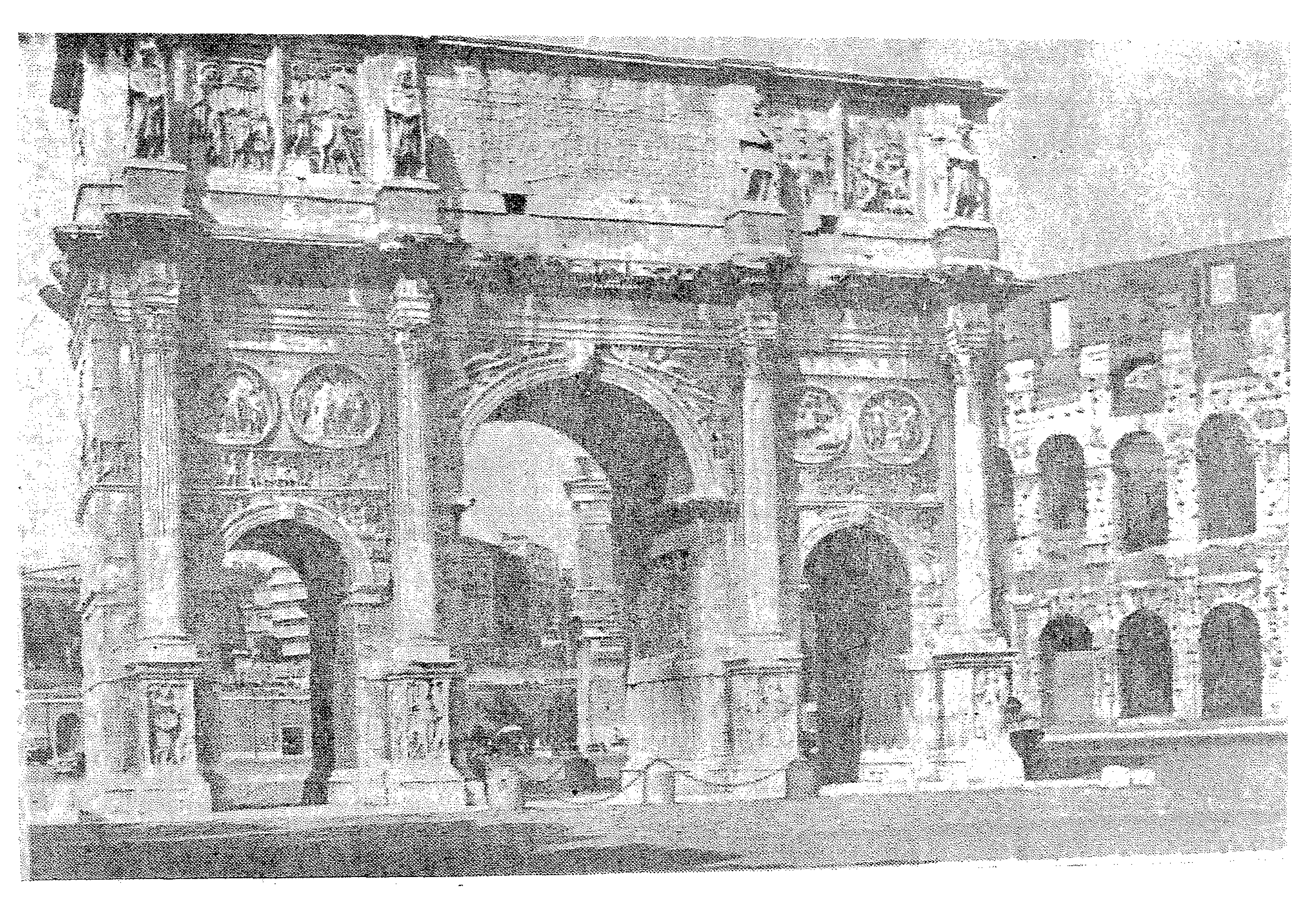
أما العلوم كالرياضيات والفلك والطب ، فلم يكن للرومان منها فى ذلك العصر



« نقش على عامود تراجان »

السابق على المسيح أى نصيب ، وقد اقتصرت معلوماتهم فى الحساب على مبادئه الأولية ، وفى الهندسة على القدر اللازم لبناء منزل أو تخطيط مزرعة ، وفى الفلك على التقويم الذى كان مليئا بالأخطاء ، والتنجيم الذى كان قائماً على الأوهام والخرافات. أما الطب فقد ظل قاصراً لديهم على استخدام السحر والتمائم والتعاويذ. وقد كانوا يعتقدون أن الآلهة وحدها هي القادرة على شفاء المرضى ، ومن ثم كان هيكل أسقلابيوس إله الطب اليونانى الذى انتقل إلى روما هو ملجأهم ومستشفاهم الوحيد . بيد أنه لم يلبث بعض الأطباء اليونان أن نزحوا إلى روما فى أعقاب إلههم المذكور ، وعملوا على إقناع الرومان بأن فى مقدورهم — هم أيضا — شفاء الأمراض. ولم يلبث الرومان أن اقتنعوا بذلك بالتدريج ، فأصبحت صناعة الطب بعد ذلك فى روما وقفاً على اليونان ، كما كانت صناعة الأدب والشعر من قبل .

وأما بالنسبة للفنون فقد ظل الرومان زمناً طويلا متأثرين بالأتروريين الذين حكموا روما فى بداية عهدها نحو مائة عام . وكان الملوك الأتروريون هم الذين شيدوا أسوار روما ، كما كان المهندسون الأتروريون هم الذين شيدوا فيها أول العمارات الكبيرة ، وحولوها من قرية ليس بها إلا الأكواخ ، إلى مدينة ترتفع فيها المنازل والقصور ، وقد ظلت تنمو حتى أصبحت من أكبر المدن الواقعة على البحر الأبيض المتوسط وأصبح أهلها يتجاوزون المليون . وقد زخرت بالمعابد والتماثيل ولاسيما فوق تل الكابيتولين. وكان طراز المعابد والتماثيل الرومانية يميل إلى الضخامة ، ولكنه يتصف بالخشونة ويفتقر إلى التناسق والجمال ، حتى غزا الرومان بلاد اليونان فافتتنوا بمعابدهم وتماثيلهم الرشيقة المتناسقة التى تكاد من فرط جمالها أن تدب فيها الحياة ، ومن ثم أغاروا على تلك الكنوز الفنية فنهبوها كلها . ومن ذلك أن القائد الرومانى إيميليوس باولوس عاد إلى روما ومعه فى موكب



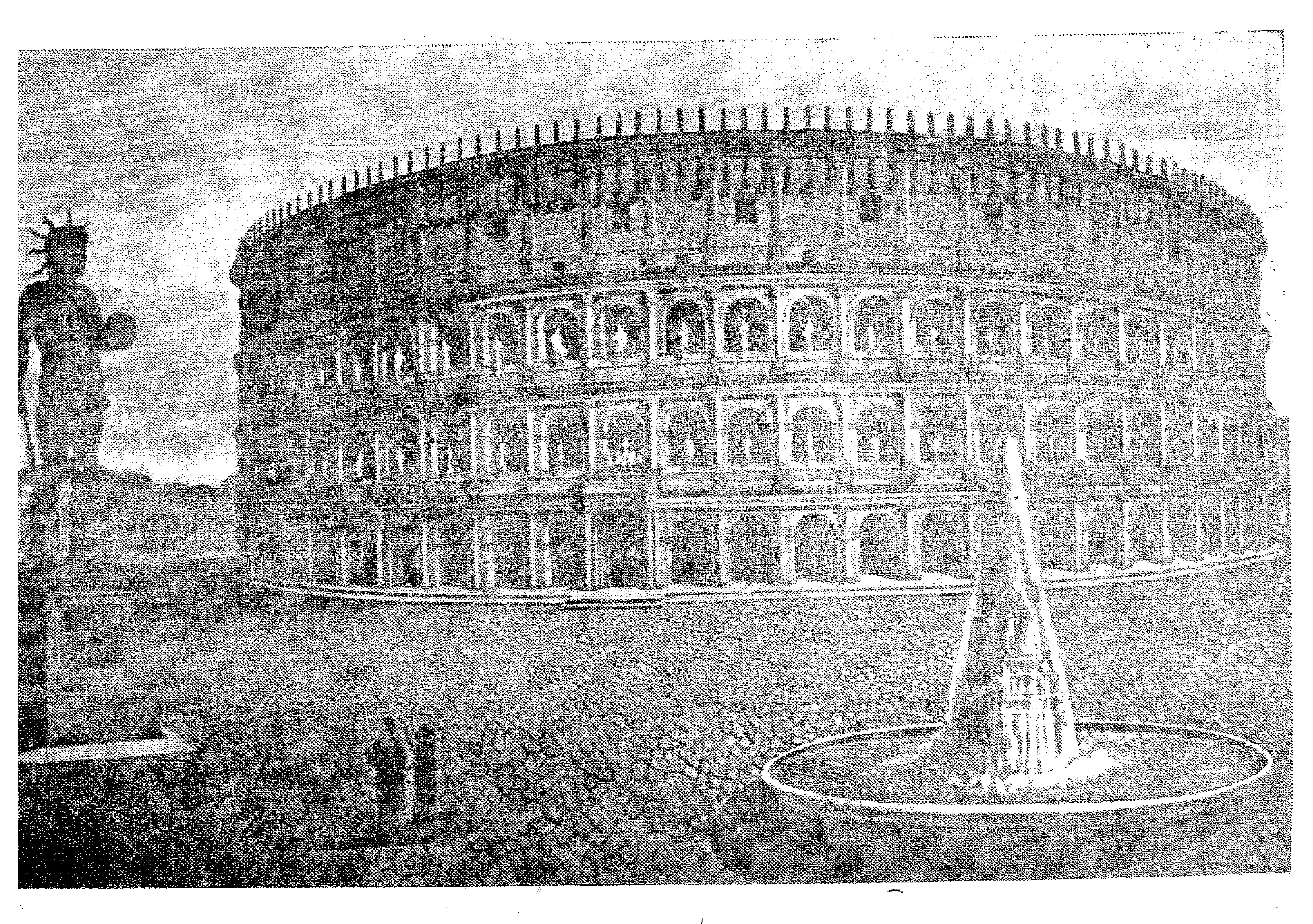
« قوس النصر الرومانى ».

نصره خمسون عربة كبيرة ممتلئة بما سلبه من بلاد اليونان من روائع فنونها كالتماثيل البديعة والصور الملونة والمعادن المنقوشة والمرايا النادرة . وقد حذا كل القواد الرومان بعد ذلك حذوه ، حتى أقفرت بلاد اليونان من كل تحفها التي انتقلت إلى روما . ومن ثم فإنه كما سيطرت الديانة اليونانية والفلسفة اليونانية والأدب اليوناني على روما ، سيطر عليها كذلك الفن اليوناني . ومنذ ذلك الحين



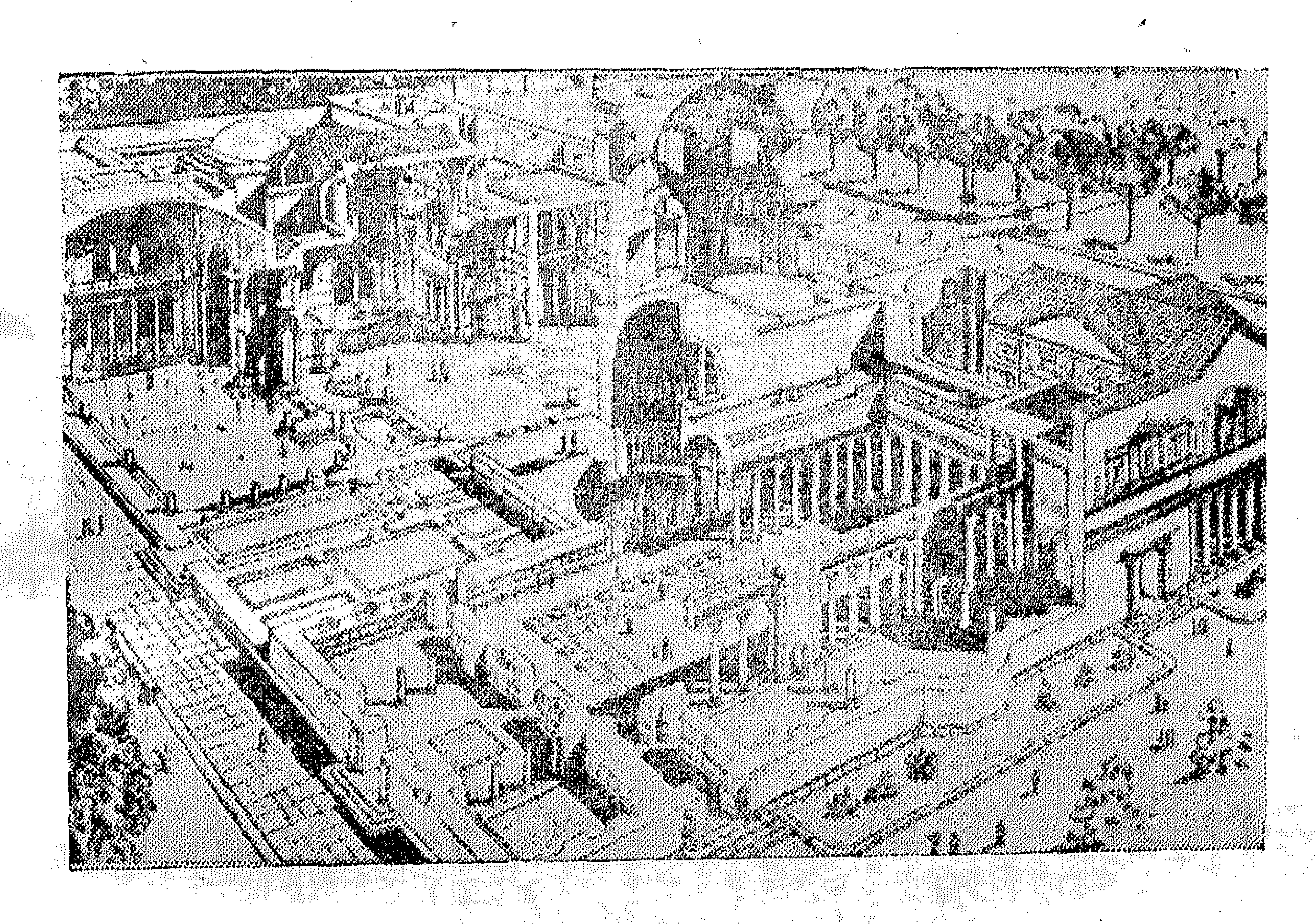
« نقش على مذبح السلام »

شرع الرومان يشيدون معابدهم وقصورهم على الطراز اليوناني ويزينونها بالأعمدة والتماثيل والصور اليونانية . ولم يلبث المهندسون والمثالون اليونان أن نزحوا إلى روما وأقاموا بها أضخم الصروح وأقواس النصر وأبدع المعابد على تل الكابيتولين للآلهة جوبيتر ومارس ويونو ومينرفا وديانا وغيرهم . وقد أقاموا على ذلك التل تمثالاً لجوبيتر بلغ من ضخامته أنه كان يمكن رؤيته من تل ألبان على بعد عشرين



« ملعب رومانى »

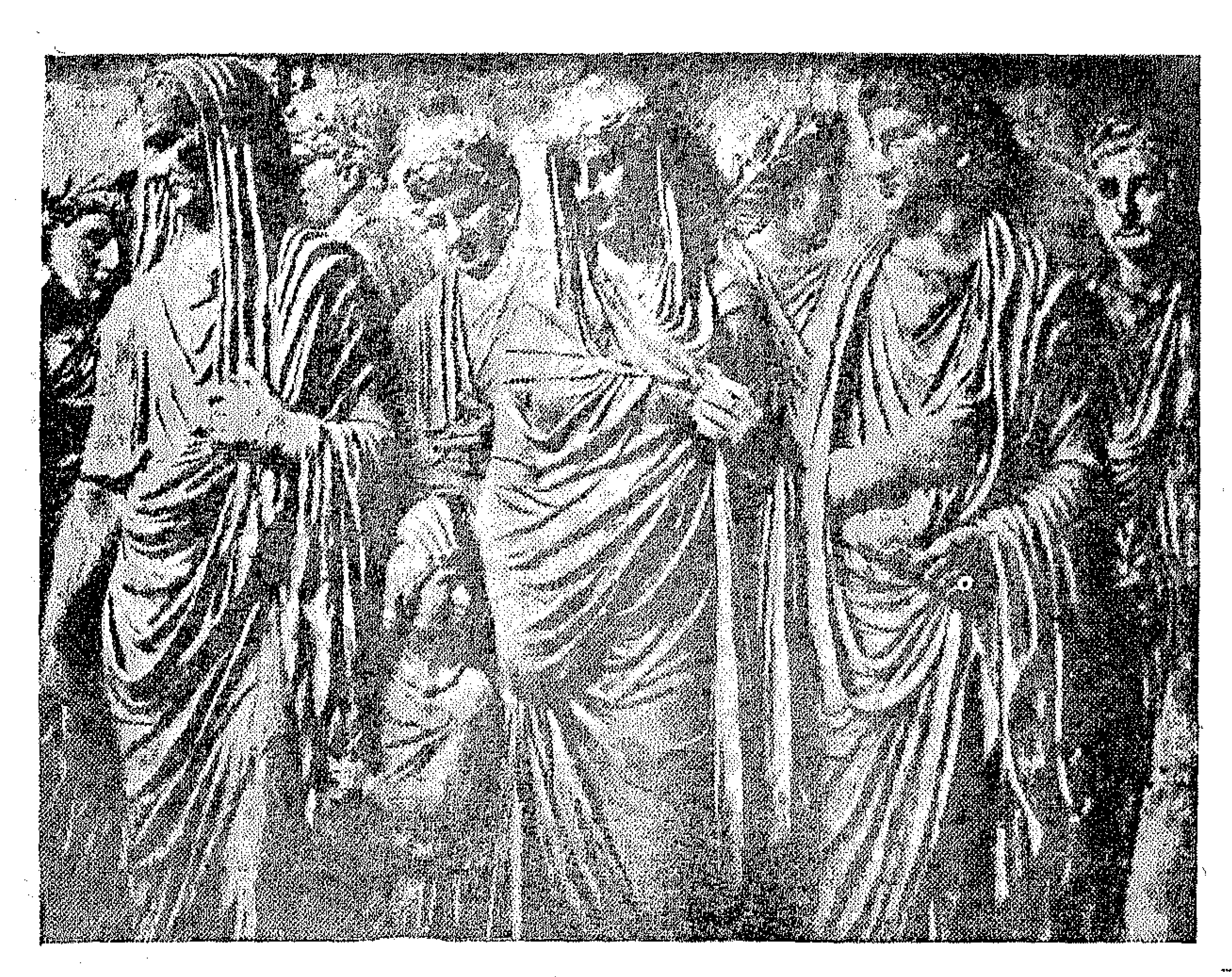
ميلا . كما أقاموا تمثالا ضخما من البرونز للذئبة التى تمثل روما يحف بها روميولوس وريموس مؤسسا روما فى الأساطير الرومانية . وكان هذا التمثال آية فنية رائعة . وقد اتجه الرومان إلى استخدام الفن اليونانى فى إنشاء المسارح والملاعب والحمامات الضخمة . ومن ذلك أن إيميليوس سكوروس أقام صرحاً يحتوى على ثمانية آلاف مقعد وثلاثمائة وستين عموداً وثلاثة آلاف تمثال، ومسرحاً ذا ثلاث طبقات وثلاثة



« حمام رومانى »

صفوف من الأعمدة ، منها صف من الخشب وصف من الرخام وصف من الزجاج . وبعد أن فرغ من البناء تمرد عليه عبيده لشدة ما أرهقهم فى العمل فأحرقوا الصرح كله بعد أن أنفق فيه مايوازى عشرة ملايين من الجنيهات. وشيد بومبى مسرحاً يحتوى على سبعة عشر ألفا وخمسمائة مقعد . كما شيد أسكريبوتيوس كوريو أحد قواد قيصر مسرحين من الخشب كلاهما على شكل نصف دائرة يتصلان بظهريهما ،

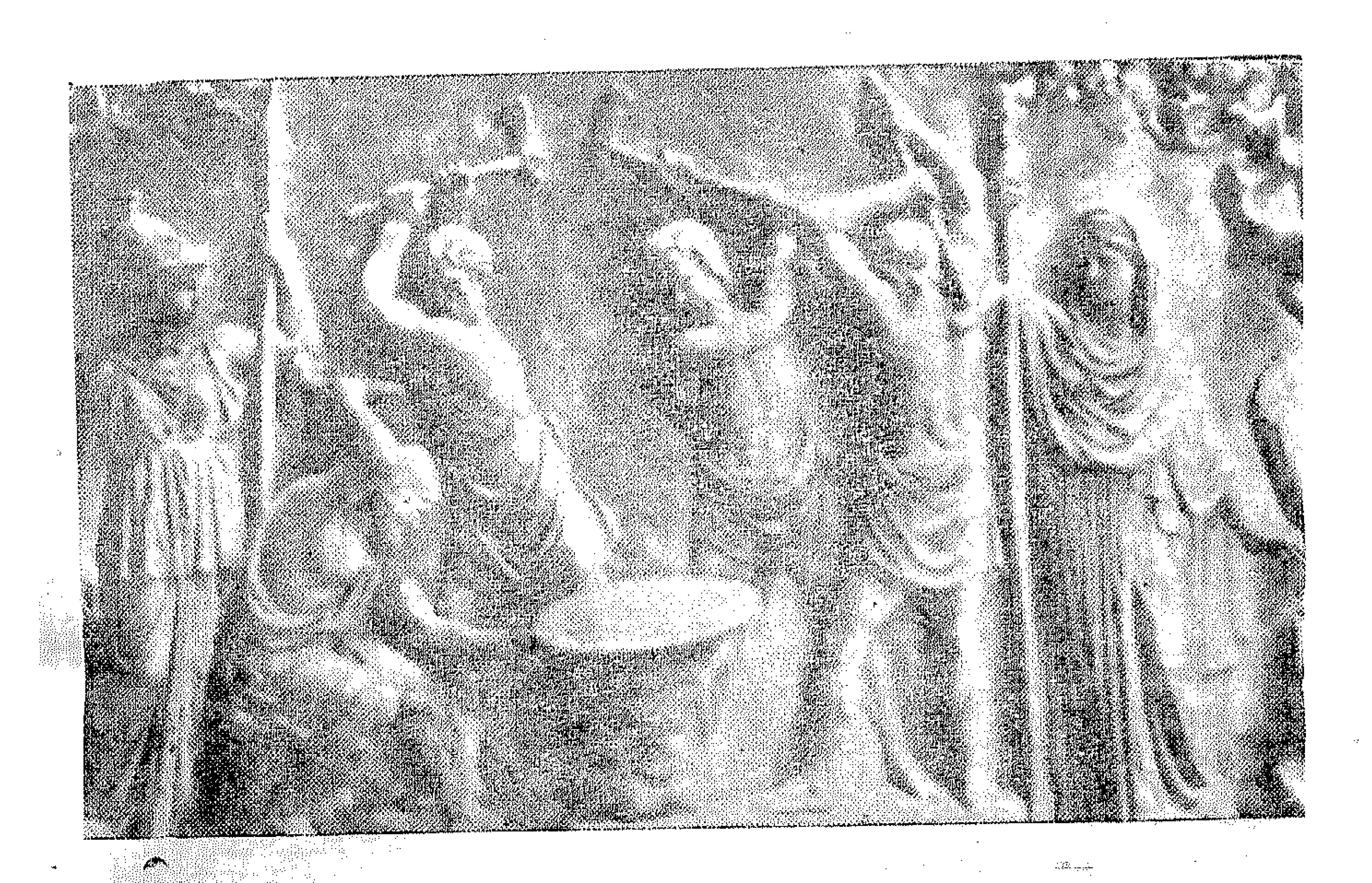
وكانا يعرضان تمثيليات فى الصباح ، حتى إذا انتهى التمثيل دار البناءان على قطبيهما — والمتفرجون لايزالون فى مقاعدهم — فاستحال نصفا الدائرة مدرّجاً ، واستحال المسرحان حلقة مصارعة . وكانت هذه المسارح كلها على الطراز اليونانى ، وقام بتشييدها مهندسون من اليونان .



« نقش رومانى متأثر بالفن اليونانى »

وهكذا كان لليونان الأثر الأكبر فى بعث الحياة الثقافية والفنية فى روما ؛ بيد أن الرومان بدلا من أن تسمو الثقافة بهم ، ويخفف الفن من غلظتهم وفظاظتهم ، كانت النتيجة هي انحلال أخلاقهم واضمحلال حتى قوتهم المادية التي كانوا يفاخرون بها ، فانساق شباب روما — تحت تأثير الفلسفة الإلحادية والأدب الماجن — إلى الابتعاد عن الحياة العسكرية الصارمة والإخلاد إلى حياة الخلاعة

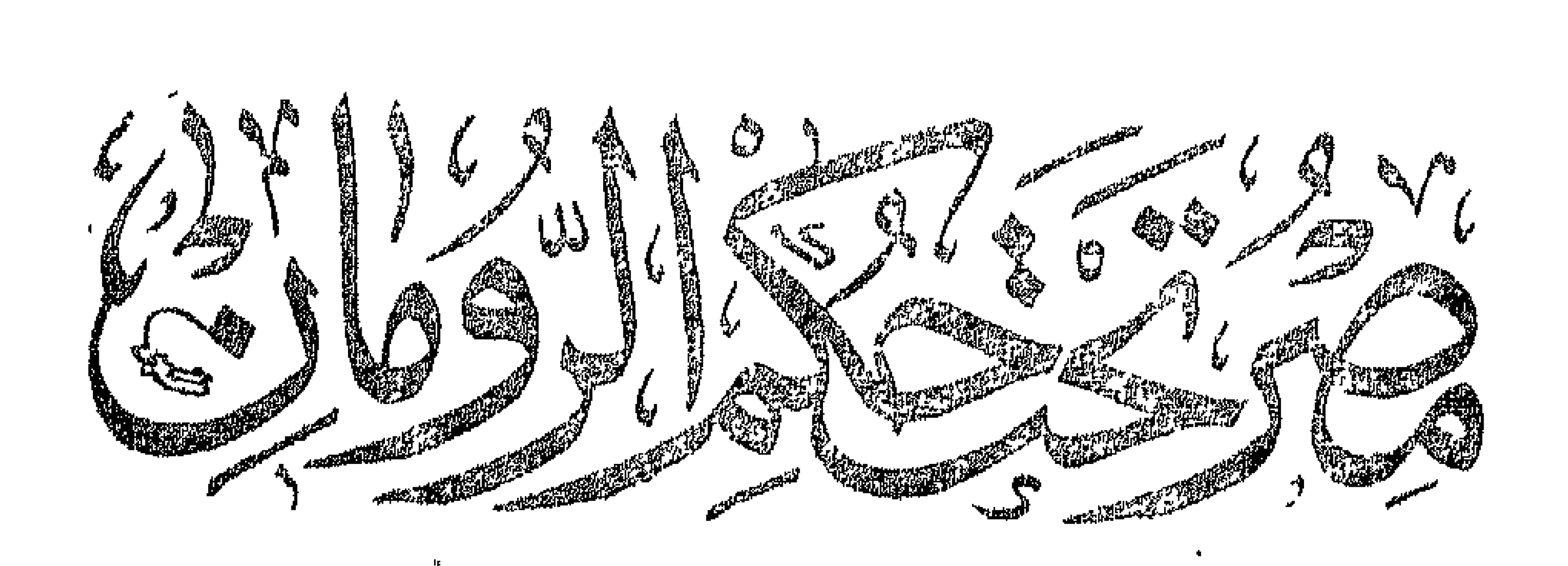
والمجون . ويبدو أن هذا هو الهدف الذى كان يرمى إليه اليونان فى قرارة نفوسهم ، للكسر من شوكة أولئك الرومان الذين هزموهم وأذلوهم واستولوا على بلادهم



« نقش رومانى آخر متأثر بالفن اليونانى »

وكل البلاد التى كانت خاضعة لهم ، واستأثروا من بعدهم بالسطوة والسلطان فى العالم . وبالفعل كانت الثقافة اليونانية من أسباب ضعف الدولة الرومانية وانهيارها فى النهاية .

الباب الثاني



الفصل الأول

أباطرة الرومان الذين حكموا مصر

من أغسطس الى نيرون

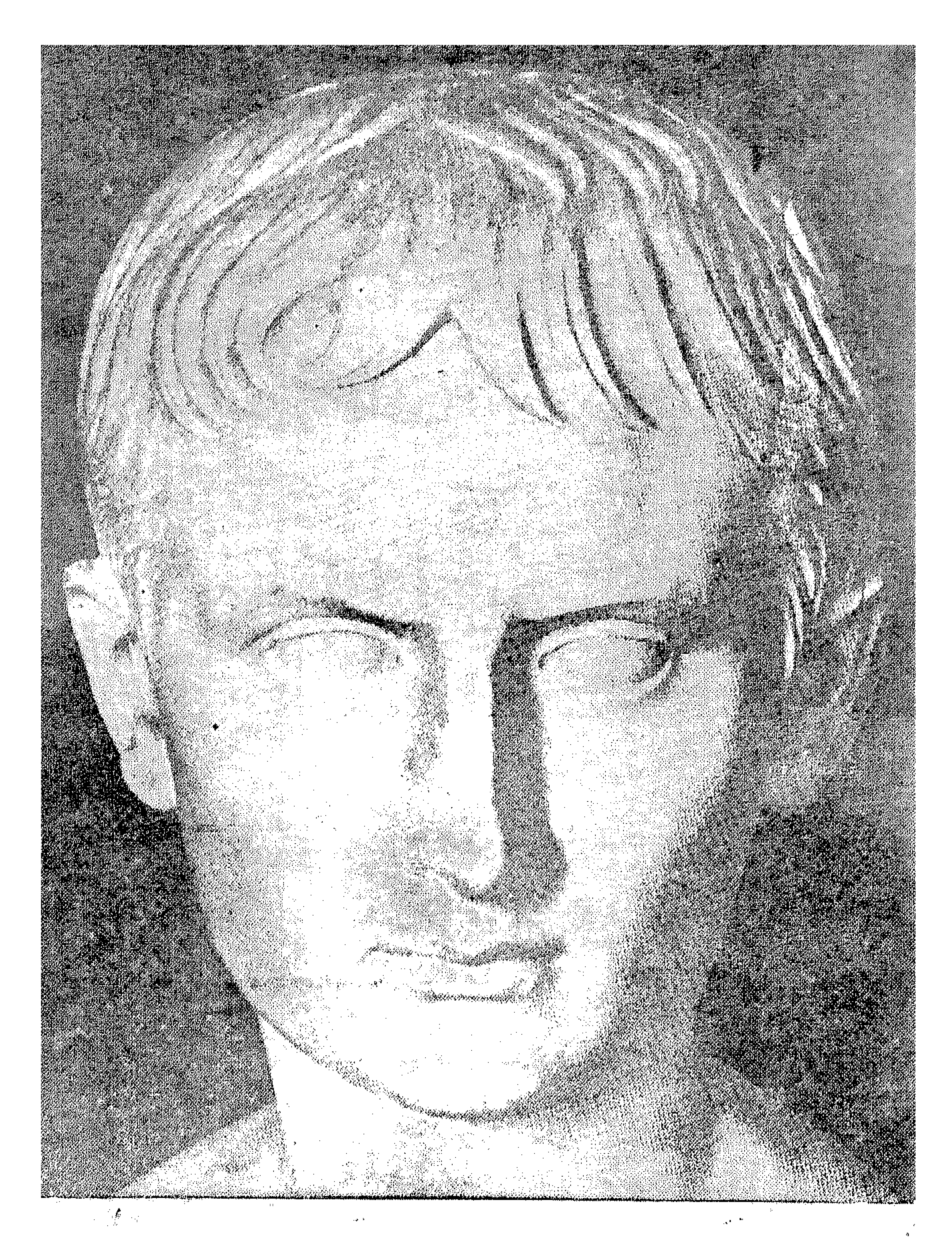
أغسطس

رأينا كيف ظل النظام الجمهورى يضمحل فى روما حتى انهار فى عهد يوليوس قيصر ، ورأينا كيف نشب الصراع بين أنطونيوس وأوكتافيوس على السلطان بعد مقتل قيصر ، وكيف انتهى بمصرع أنطونيوس واستئثار أوكتافيوس بالسلطان كله ، فكان بذلك أول من أنشأ النظام الإمبراطورى فى روما ، وكان أول امبراطور للدولة الرومانية ، وقد اشتهر بعد ذلك باسم أغسطس ، ثم أصبح اسمه أغسطس قيصر .

وكان أغسطس فى الثامنة عشرة من عمره حين ورث سلطان قيصر ، وكان فتى نحيف الجسم ، سقيم البنية ، غير متسق التقاطيع ، يشكو من أمراض عديدة ، ويتعثر فى مشيته بسبب داء فى ساقيه . ومع ذلك كان يطلق العنان لشهواته ،

ويمعن فى التهتك والمجون ، ويرتكب أبشع الأعمال وأفظع الجرائم فى فظاظة بشعة وغلظة لا رحمة فيها ولا وخز ضمير ، فكان مثالا صادقاً وصارخاً للحاكم الرومانى ، وقد اتصف بكل ما اشتهر به الطغاة الجبابرة فى كل عصور التاريخ ، فأمكنه بذلك أن يقبض على زمام امبراطوريته المترامية الأطراف بيد من حديد ، وظل زهاء نصف قرن من الزمان هو الحاكم بأمره فى العالم كله .

وقد عاد أغسطس إلى روما عقب انتصاره على أنطونيوس فى معركة أكتيوم عام ٣١ قبل الميلاد ، واستيلائه على مصر ، فاستقبله الرومان استقبالا منقطع النظير ، وقد بهرهم بانتصاراته العظيمة وغنائمه الضخمة التى جاء بها من مصر ، وأغدقها على العامة والجنود ، فلم يسع مجلس الشيوخ إلا الرضوخ له والتخلى عن كل سلطاته إليه ، فأصبحت في يديه السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية والعسكرية مجتمعة . وفى عام ٢٧ قبل الميلاد أسبغ عليه مجلس الشيوخ لقباً كان قاصراً من قبل على الآلهة ، وهو لقب « أغسطس » ، وإذ كان اسم قيصر قد أصبح لقباً للأباطرة ، أضيف إلى لقبه الأول فأصبح يسمى « أغسطس قيصر » . وبالرغم من أنه كان يسمى نفسه « زعيما » فحسب ، فقد أصبح ملكاً بالفعل وإن لم يسبغ على نفسه هذه الصفة ، بل أصبح ملك الملوك ، بوصفه امبراطور الدولة الرومانية . ثم لم يلبث مجلس الشيوخ أن اعتبره إلهاً وأضاف اسمه إلى أسماء الآلهة الرسميين لروما ، وأصبح يوم ميلاده يوماً مقدسا تقام الطقوس فيه لعبادته والتوجه إليه بالصلوات والترانيم . وقد بلغ من إيمان بعض الرومان به أنهم وهبوا حياتهم له فقطعوا على أنفسهم عهداً بأن يقتلوا أنفسهم حين يموت . ويقول سوتونيوس « إن الناس جميعاً على اختلاف طوائفهم وطبقاتهم كانوا يقدمون له الهدايا والقرابين فى عيد رأس السنة » . ثم سرعان ما امتدت عبادة أغسطس من روما إلى غيرها من الولايات



« أغسطس قيصر »

الرومانية . وقد اتخذت بعض ولايات آسيا عبادته ديانة رسمية لها وعينت لخدمة مذبحه طائفة جديدة من الكهنة اسمهم الأغسطيون . بل لقد زعم البعض أنه هو المسيح ابن الله المنتظر . وهكذا أصبح ذلك الفاسق الزانى ، والآثم الظالم ، عند الرومان وأتباع الرومان ، إلهاً ابن إله ، وأصبح فى زعمهم هو الذى ينتظره العالم كي يخلص البشر .

وقد قام أغسطس بتنظيم الحكم فى الولايات الخاضعة لروما : فأقام على الولايات التى تحتاج إلى رقابة إدارية قوية وتتطلب وجود حامية عسكرية ، حكاماً من أعضاء مجلس الشيوخ يحمل كل منهم لقب « إيجاتوس أوجوستى » أى « نائب أغسطس » وكانت هذه الولايات تحت الإشراف المباشر لأغسطس ، وأقام على الولايات التى لا تحتاج إلى أى رقابة أو حامية حكاماً من أعضاء مجلس الشيوخ كذلك يحمل كل منهم لقب « بروبرايتور » أو « بروكونسول » . وكانت هذه الولايات تحت إشراف مجلس الشيوخ . أما الولايات الصغيرة فأقام عليها حكاماً من طبقة الفرسان يحمل كل منهم لقب « بروكيوراتور » أو « برايفيكتوس » وقد وطد قيصر سلطانه فى أسبانيا وفارس وأرمينيا وأخضع القبائل الألمانية وسيطر على بلاد إلليريا وتراقيا وبانونيا وريتيا وموزيا وليزيا وجالاتيا وبمفيليا ، وبذلك امتدت حدود امبراطوريته حتى نهر الفرات شرقاً والمحيط الأطلنطى غرباً والبحر الأسود ونهر الدانوب وجبال الألب شمالا ، والصحراء الكبرى جنوباً ، فكانت أكبر امبراطورية شهدها التاريخ حتى ذلك الحين .

وقد ظلت الدولة الرومانية فى عهد أغسطس دولة رأسمالية يسيطر عليها كبار الأغنياء من أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان . وكان الإمبراطور هو الرأسمالى الأول فى الدولة فكان أغنى أغنيائها ، وقد اعتبر أموال الدولة كلها أمواله ،



« أغسطس قيصر »

فاختلطت خزانة الدولة بخزانته الخاصة ، وأصبح يتصرف فى موارد الدولة بنفس الطريقة التى يتصرف بها فى موارده الشخصية ، وقد ترك هذه وتلك فى أيدى عبيده الخصوصيين بغير حسيب أو رقيب ، ومن ثم سيطر عبيده على كل شئون الدولة ، وأصبح بأيديهم الأمر والنهى فى طول البلاد وعرضها . وكان أغنى الناس فى روما بعد الامبراطور هم أقاربه وأصدقاؤه الذين تربطهم به أوثق الصلات ، إذ كان رضا الإمبراطور هو الوسيلة السحرية إلى الثروة التى لا حدود لها . أما سخطه فكان وسيلة الخراب والهلاك .

وقد تزايد الثراء فى روما على عهد أغسطس فتزايد الفساد ، واشتد انحطاط أخلاق الرجال وانحلال أخلاق النساء ، واضمحلال الروابط بين الزوج وزوجه والوالد وولده ، فانطلق كل منهم فى سبيل ، وأطلق كل منهم العنان لشهواته لا يردعه رادع ولا يدفعه دافع من عقل أو عقيدة أو ضمير . وقد زهد أغلب الرجال والنساء على السواء فى رباط الزوجيه فأصبحت العلاقات غير الشرعية هى السائدة ، وأصبح الزنا هو القاعدة ، كما زهد الجميع فى إنجاب الأبناء ، فأصبحوا يمنعون الحمل أو يجهضون الحاملات أو يقتلون الأطفال بعد ولادتهم . وقد تفاقم هذا كله حتى أصبح يهدد الرومان بالاندثار ويهدد الدولة الرومانية بالانهيار ، ومن ثم سارع أغسطس إلى إصدار سلسلة من التشريعات محاولا أن يوقف هذا الطوفان قبل فوات الأوان : فمنع الزنا بقانون ، وأعطى الحق للأب فى أن يقتل إبنته الزانية مع شريكها ، كما أعطى الحق للزوج فى أن يقتل زوجته الزانية مع شريكها كذلك ، وأوجب على زوج الزانية أن يبلغ عنها وإلا تعرض للعقاب . أما زوجة الزانى فلا يحق لها أن تبلغ عنه لأن القانون يبيح له الاتصال بالعاهرات . وقد أصبح الزواج مفروضاً بحكم القانون على كل الصالحين له من

الرجال والنساء ، وإلا تعرضوا لعقوبات صارمة ، منها الحرمان من الميراث ، والحرمان من مشاهدة الحفلات والأعياد العامة . بيد أن هذه القوانين قد أغضبت الرومان جميعاً بغير استثناء ، ولاسيما أنهم كانوا يعلمون أن الذى اقترحها هو « ماسناس » الذى كان مضرب الأمثال فى الفجور والفحشاء ، وكانت زوجته عشيقة أغسطس ، وكان أغسطس نفسه من أكثر الرومان عهراً وعاراً ، وكانت الفضائح التى تحدث فى بيته تزكم أنوف القريبين والبعيدين فى كل أنحاء الإمبراطورية . وكانت له إبنة وحيدة تدعي جوليا ملأت روما بأخبار زناها وخيانتها لأزواجها المتعاقبين وانتقالها من عشيق إلى عشيق وعربدتها التى كانت تملأ السوق العامة صخباً وضجيجاً طول الليل. ولذلك سخر الرومان من أغسطس قائلين كيف تريد بقوانينه أن يصلح أخلاق الدولة كلها ، بينما هو عاجز عن إصلاح الأخلاق في بيته . ومن ثم اضطر أغسطس أن يبعد إبنته جوليا عن روما. ولكن جوليا كانت لها إبنة لم تلبث أن بدأت تسلك مسلك أمها وتثير الفضائح كذلك فاضطر أغسطس أن يبعدها عن روما هي الأخرى . وهكذا فشلت قوانين أغسطس ، وقد فشل فى إصلاح أخلاق بيته وأخلاق دولته ، لأنه هو نفسه — ككل الرومان — كان فاسد الأخلاق ، وكانت الفضيلة والرذيلة عنده سواء .

وقد انصرف أغلب الشعراء فى عهد أغسطس إلى المجون والتغنى بالأشعار الماجنة ، وراحوا يسخرون من الذين يسعون إلي الموت فى ميادين القتال ويحرضونهم على أن يسعوا بدلا من ذلك إلي حياة اللذة والتمتع بالنساء . فكان سكستس بروبورتيوس يملأ أناشيده بالدعارة ، ويقول إن كل ما فى العالم من أمجاد عسكرية لا يساوي لحظة واحدة مع امرأة فاتنة . وكان ألبيوس تيبلس

يشيد بالفجور والفحشاء ويدعو إلى العلاقات الشاذة الشائنة متغزلا فى الفتيات والفتيان على السواء . وكان بوبليوس أوفيديوس يفاخر بعهره ويجاهر بعاره ، قائلا أن المغازلة هى غاية الحياة ، بل هي الحيـاة . وقد أصـدر كتاباً يشرح فيه أساليب التغرير بالنساء وسماه « فن الغرام » . وحين نفى أغسطس إبنته جوليا من روما نفى أوفيديوس كذلك إذ اعتبره سبب فسادها ، فقضى بقية عمره فى المنفي يذرف دموع النـدم ويتضرع إلي أغسطس كى يعفو عنه فى مجمـوعة من الأشعار بلغت حداً كبيراً من الجزالة والجمال ، وأصبحت من روائع الشعر اللاتينى فى كل العصور . وكذلك اشتهر من شعراء ذلك العهد فرجيل الذى كتب ملحمة عن تاريخ روما والأحداث التى خاض الرومان غمارها ، وقد سماها « الإنياذة » على غرار الالياذة والأوذيسة ملحمتى هوميروس الخالدتين . فـكانت « الإنياذة » هي مفخرة الرومان التى كانوا يحفظونها عن ظهر قلب ويتغنون بها على مدى التاريخ ، وقد نسج دانتى وملتون على منوالها ، واعتبرها فولتير أجمل ماخلفه لنا الأقدمون من تراث أدبى . كما اشتهر من شعراء ذلك العهد كـوينتوس هوراسيوس فلاكوس — الذي عرفه التاريخ باسم « هوراس » — وقد درس البلاغة في روما والفلسفة فى أثينا ، وصور فى أشعاره حياة الرومان أبدع تصوير ، منددا بما انغمسوا فيه من رذائل ومظالم ، قائلا « هل ثمة إثم تورعنا عن أن نقترفه نحن الرومان ، وهل ثمة ظلم لم نرتـكبه ؟ » . وقد أبدى رأيه فى الدولة والدين والحياة والموت والآلهة والبشر والأخلاق والتقاليد ، وكان يحترم الفضيلة احترام الرواقيين . ولـكنه فى ذات الوقت كان يندفع إلى اللذة اندفاع الأبيقوريين ، وكان يقول عن نفسه إنه « خنزير من حظيرة أبيقور » . وكان يدعو إلى الإيمـان بالدين ، ولـكنه كان كافراً لا دين له ؛ بيد أن

أشعاره كانت من البلاغة والبداعة بحيث رفعته إلى مصاف أعظم الشعراء فى عصره .
ولم يظفر النثر فى عهد أغسطس بما ظفر به الشعر من وفرة وذيوع ، فلم ينتج ذلك العهد آية أدبية خالدة إلا « تاريخ روما » الذى كتبه « تيتوس ليفيوس » أو « ليفى » ، وقد درس البلاغة والفلسفة ، وندّد بما كان شائعاً فى عصره من فساد وانحلال، قائلا إنه دفن نفسه فى الماضى لكى ينسى مساوىء الحاضر . ولذلك اعتكف أربعين عاماً يكتب تاريخ روما، حتى لقد بلغ عدد مجلدات ذلك التاريخ مائة واثنين وأربعين مجلداً لم يصلنا منها إلا خمس وثلاثون . وكان الرومان يعتبرون هذا الكتاب ملحمة منثورة ، وقد ظل إلى عهد قريب هو المرجع الأول فى تاريخ الدولة الرومانية .

وكان العالم كله قد ركع جاثياً عند أقدام أغسطس ، فلم تعد أمة تجرؤ على أن تقف فى وجهه أو تناوئه أو تخالف له أمراً بعد أن أنزل الخراب والبؤس بكل البلاد وجعل أهلها تحت نير العبودية ، ومن ثم ساد الدولة الرومانية سكون يسميه المؤرخون سلاماً . وقد أغلق أغسطس معبد يانوس للدلالة على أن الحروب قد انتهت ، وأنقص عدد الجيش من سبعمائة ألف إلى ثلاثمائة ألف جندى ، وقام بتأليف الحرس الامبراطورى ، متخذاً مظهر ملك الملوك . وقد بدأت الولايات تؤدى الضرائب المفروضة عليها بانتظام ، فلم تكن إحداها لتجرؤ على أن تؤخره أو تماطل فى أدائه ، ومن ثم تدفق المال على أغسطس كالسيل المنهمر ، فسمى المؤرخون عصره عصر الرخاء ، وانطلق هو يزيد صرح عظمته ومجده اتساعاً وارتفاعا ، فوضع كل همه فى تجميل روما بأضخم وأفخم العمائر كى تغدو جديرة بأن تكون عاصمة امبراطوريته المترامية الأطراف ، وقد كلف المهندس ماركوس فسبانيوس أجريبا — وهو زوج ابنته جوليا — بتشييد عدد عظيم من الهياكل

والملاعب والمسارح والحمامات . غير أن ذلك المهندس النابغ لم يحتمل فجور زوجته إبنة الإمبراطور فمات قبل أن يتجاوز الخمسين من عمره .

وحين انتصر أغسطس على أنطونيوس وكليوبترا فى موقعة أكتيوم عام ٣١ قبل الميلاد ، أصبح الطريق مفتوحاً أمامه للاستيلاء على مصر والقضاء على البطالمة ، الذين كان قد زعزع كيانهم وضعضع قوتهم تطاحنهم فيما بينهم وثورة الشعب المصرى عليهم ، فضلا عن انحرافهم وانصرافهم إلى حياة التهتك والخلاعة والمجون ، ولا سيما كليوبترا التى جعلت عرشهم عش غرام لهـا ، وجعلت من أنوثتها وسيلة لتحقيق مطامعها ، فسقطت في هوة عارها ، وسقطت مصر معها بين براثن الرومان ، فاستولى أغسطس عليها دون مقاومة فى أول أغسطس عام ٣٠ قبل الميلاد ، وأصبحت ولاية رومانية منذ ذلك التاريخ ، ولـكنها ولاية ذات مركز خاص نظراً لأهميتها التاريخية والسياسية والاقتصادية ، وموقعها الممتاز وصلابة أهلها الذين لم يستسلموا أبداً للغاصبين أو يستكينوا للغزاة ، وإنما كانوا على الدوام ــ رغم وداعتهم ــ حرباً على الغاصبين وكانت بلادهم مقبرة للغـزاة . ولذلك جعلها أغسطس تحت إشرافه المباشر ، بل اعتبرها ملـكاً خاصاً له ، فأبعد عنها كل نفوذ لمجلس الشيوخ ، بل لقد منع أعضاء ذلك المجلس من زيارتها إلا بعد استئذانه . وقد ظل هذا المبدأ مرعياً حتى بعد موت أغسطس ، فقد حدث أن أرسل الإمبراطور طيباريوس ولى عهده جرمانيكوس إلى الشرق لتنظيم بعض ولاياته فلما سمع أنه انتهز هذه الفرصة وزار مصر عنفه تعنيفاً شديداً لأنه فعل ذلك دون استئذانه . وبذلك ضمن الإمبراطور سيطرته الـكاملة على مصر ، وحال دون تطلع أى حاكم رومانى إلى الاستقلال بحكمها كما سبق أن استقل بطليموس بحكمها عن عرش مقدونيا . وقد عين أغسطس نائباً عنه فى مصر من طبقة الفرسان ، يسمى «حاكم مصر». بيد أنه احتفظ لنفسه

بالسلطة العليا بها معتبرا نفسه ملك مصر ووارث عرش الفراعنة . وقد أمر برسم صورته على الآثار مقرونة بالألقاب الإلهية التى كانت مألوفة فى العصر الفرعونى.

وقد خصص أغسطس لاحتلال مصر والسيطرة على أهلها أضخم حامية رومانية فى الولايات الرومانية كلها ، وعقد لواء قيادتها لحاكم مصر الذي كان مسئولا أمامه عن كل الشئون العسكرية والإدارية والمالية والقضائية فى البلاد ، وكان أول حاكم عينه أغسطس لمصر هو كورنيليوس جاللوس .

ولم يكتف أغسطس بالقوة وحدها للسيطرة على سكان مصر ، وإنما لجأ كذلك إلى السياسة والدهاء ، فطبق المبدأ الخبيث الذى طالما طبقه الغزاة والمستعمرون فى كل العصور، وهو مبدأ « فرق تسد ». وإذكان سكان مصر يتألفون من المصريين ومن عدد كبير من اليونان واليهود ، راح يضرب كل طائفة من هذه الطوائف بالأخرى ، ولاسيما فى الإسكندرية التى كان يدرك أن إخضاعها يكفل إخضاع القطر كله ، فرفض أن يعيد إلى يونان الإسكندرية «مجلس الشورى» الذى كانوا يعتبرونه بمثابة برلمان لهم . وفى ذات الوقت منح اليهود فى تلك المدينة كل الحقوق والامتيازات التى كانوا يتمتعون بها فى عصر البطالمة ، فاستمرت جاليتهم تحتفظ باستقلالها الذاتى ، وبمجمع شيوخها ، وبالحرية الكاملة فى إقامة معابدها ، وممارسة شعائرها الدينية . ومن ثم تملك الحنق والحقد قلوب اليونان ، وقد عز عليهم زوال دولتهم واضمحلال سطوتهم وخضوعهم للرومان الذين لم يكونوا فى نظرهم إلا قطيعا من البرابرة المتوحشين الذين لا مدنية لهم كمدنيتهم ، ولا حضارة كحضارتهم . ثم ازداد حنقهم وحقدهم على الرومان إذ رأوهم يميزون عليهم اليهود الذين كانوا يحتقرونهم ويعتبرونهم من حثالة الشعوب . فسرعان ما نشب

الصراع بين اليونان واليهود ، وقد كان هذا الصراع قديما بين الطائفتين ، ولكنه اتخذ عندئذ شكلا عنيفاً ومخيفاً. أما المصريون فقد اعتبرهم أغسطس دون الطوائف جميعاً في بلادهم ، وعاملهم معاملة العبيد الأذلاء ، وفرض عليهم ضريبة الرأس . كما كان يفعل البطالمة من قبل ، بينما أعفى منها اليونان واليهود . بل لقد عمد إلى التفريق بين المصريين أنفسهم في المعاملة وتقسيمهم إلى طبقات ، محاولا أن يضرب كل طبقة بالأخرى ، ولا سيما طبقة الفلاحين وطبقة سكان المدن . فكانت الصورة العامة لنظام الحكم في ذلك العهد تتمثل في حكومة مركزية قوية ، تحميها قوة عسكرية ضخمة ، وتوطد سلطتها سياسة ماكرة تعمل على التفريق بين طوائف السكان وطبقاتهم المختلفة ، لتهدم قوتهم وتهزم مقاومتهم وتجثم على صدورهم جميعاً .

بيد أن المصريين كانوا كعهدهم على الدوام ، شعباً حراً ، صعب المراس ، صلبا لا يلين . فما انقضى عام واحد على الفتح الروماني حتى هبوا ثائرين ، وقد اندلعت نار غضبهم في كل أنحاء مصر واندفعت جموعهم تهاجم الغاصبين هجوماً عاتياً عنيفاً ، حتى لقد ذعر أول حاكم روماني لمصر وهو كورنيليوس جاللوس ، وسارع على رأس القوات الرومانية كلها لمهاجمة الثائرين في طيبة ، ثم عاد لمهاجمتهم في الدلتا ، ولكنه فشل في قمع الثورة فعزله أغسطس وعين مكانه إيليوس جاللوس . ولم تلبث قبائل البدو أن أغارت على مصر من سينا والصومال والحبشة ، فقام الحاكم الجديد على رأس القوات الرومانية لصدها . بيد أنه ما ابتعد من وادي النيل حتى أغار النوبيون على جنوب مصر ونهبوه وأسروا كثيراً من أهله واستولوا على كثير من تماثيل الآلهة هناك ومنها تمثال أغسطس نفسه فغضب أغسطس على إيليوس جاللوس وعزله وعين مكانه بيترونيوس . وقد أسرع هذا فهاجم النوبيين وردهم

على أعقابهم واستولى على عاصمتهم نباتا واسترد الأسرى الذين أسروهم والتماثيل التى استولوا عليها . بيد أنه ما كاد ينتهى من ذلك حتى شبت الثورة فى الإسكندرية فعاد مسرعاً لقمعها . وهكذا كانت الثورات فى مصر لا تخمد نارها إلا لتشتعل ضد الرومان من جديد ، رغم أنهم كانوا يحكمون البلاد بيد من حديد . وإذ كان الكهنة المصريون هم الذين يتزعمون الثورات ، كما كانوا يفعلون فى عهد البطالمة ، عمل أغسطس على كسر شوكتهم، فأمر بالاستيلاء على أملاكهم، كما أمر بالاستيلاء على جانب من أملاك المعابد وإخضاع الباقى منها للرقابة الحكومية . فوضع بذلك الأغلال فى أعناق المصريين وزعمائهم .

وقد أبقى أغسطس النظام الإدارى الذى كان سائداً فى مصر على عهد البطالمة وإن كان قد عدله بما يلائم العقلية الرومانية وجعله تحت إشراف موظفين من الرومان ، وقسم القطر إلى ثلاثة أقسام كبرى ، هى طيبة ومصر الوسطى والدلتا، وعين لحكم كل منها موظفاً تابعاً له يسمى « الإنستراتيجوس » ، وقد ظلت الدولة كما كانت فى العصر اليونانى هى المشرفة على موارد البلاد والمالكة لمرافقها وأراضيها ، وإن كان أغسطس قد منح كثيرين من الرومان ضياعاً يمتلكونها ملكية خاصة ، وظلت الضرائب التى كانت مفروضة فى عهد البطالمة على حالها ترهق المصريين وتضغط ضغطاً عنيفاً على أعناقهم . ويقول المؤرخ سترابون أن فداحة الضرائب كانت من أسباب ثورة المصريين فى عهد أغسطس . وقد استمرت التجارة فى ذلك العهد بين مصر وأواسط أفريقيا وجنوب شرقى آسيا والهند والصين . واستمرت الصناعة مزدهرة فى مصر ولاسيما فى الإسكندرية التى كانت تنتج أفخر أنواع الزجاج والأوانى المعدنية ، كما كانت تزدهر فى كل أنحاء مصر صناعة

المنسوجات الصوفية والكتانية وصناعة أوراق البردى . وكان حاكم مصر هو المتصرف فى الشئون القانونية والقضائية ، وكان يرأس محكمة تنعقد ثلاث مرات فى السنة : منها مرة فى الاسكندرية للنظر فى قضايا العاصمة وغرب الدلتا ، ومرة ثانية فى بيلوزيون للنظر فى قضايا شرق الدلتا ، ومرة ثالثة فى منف للنظر فى قضايا مصر العليا والوسطى . وكانت كل الأعمال الإدارية والقضائية فى مصر تجرى باللغة اليونانية التى ظلت هى اللغة الرسمية للبلاد ، فلم تستعمل اللغة اللاتينية إلا فى الأوامر العسكرية واللوائح المتعلقة بالقانون الرومانى . وهكذا بقيت كل الأنظمة التى وضعها البطالمة للسيطرة على المصريين وإذلالهم واستغلالهم قائمة فى عهد أغسطس ، فلم تتغير إلا جنسية الحاكم الذى أصبح أكثر قسوة وأكثر فظاظة ، وأقدر على البطش والتنكيل .

ولما كان أغسطس قد أصبح معدوداً ضمن الآلهة فى روما وأصبح يتعين على الرومان وسكان الولايات عبادته مع آلهتهم ، فقد أقام تماثيله فى مصر ليعبدها المصريون . وهكذا ظل أولئك البائسون عبيداً لكل حاكم يحكمهم ، وعابدين لكل زاعم أنه إله .

وفى عهد أغسطس ولد يسوع المسيح فى بيت لحم ، وهي إحدى مدن اليهودية بفلسطين ، إذ كانت أمه مريم العذراء من مدينة الناصرة إحدى مدن الجليل ، وقد ذهبت مع خطيبها يوسف للاكتتاب فجاءها المخاض وولدت ابنها هناك . وقد جاء فى الكتاب المقدس أنه «فى تلك الأيام صدر أمر أغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة . وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والى سورية ، فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد فى مدينته ، فصعد يوسف أيضا من الجليل من

مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داوود التى تدعى بيت لحم لكونه من بيت داوود وعشيرته ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى . وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد فولدت إبنها البكر » (لوقا ٢ : ١ — ٧). وحين علم هيرودس ملك اليهودية بميلاد يسوع من بعض المجوس الذين قالوا له إن هذا الطفل سيكون ملكاً لليهود ، تملكه الذعر ، وأمر بقتل جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وفى كل تخومها من سنتين فما دون عسى أن يقتل يسوع من بينهم . وحينئذ أخذ يوسف الطفل وأمه وهرب إلى مصر عن طريق صحراء سينا . وقد دخلوها من جهة الفرما القريبة من العريش الحالية، ثم اتجهوا منها إلى مدينة بسطة التى كانت تقع بالقرب من مدينة الزقازيق ، واتجهوا نحو فرع النيل الشرقى فعبروه عند سمنود ، ثم عبروا فرعه الغربى حتى إذا بلغوا وادى النطرون اتجهوا جنوباً فنزلوا بمدينة الأشمونين ، ثم مضوا إلى القوصية ثم إلى قرية ميرة المسماة الآن «مير» ، وهبطوا بجهة قسقام — حيث يوجد الآن دير العذراء الشهير بالمحرق — وظلوا مقيمين هناك نحو عامين حتى علم يوسف أن هيرودس قد مات فأخذ الصبى وأمه وانحدروا شمالا حتى جاءوا بابيلون المسماة الآن مصر القديمة ، ونزلوا فى الموضع الذى فيه الآن كنيسة القديس سرجيوس، ثم اتجهوا إلى عين شمس فأقاموا هناك يستظلون بالشجرة المعروفه اليوم بشجرة مريم بالمطرية ، ومن هناك عادوا إلى فلسطين .

وكانت ليفيا زوجة أغسطس قد أنجبت ولداً من زوجها الأول يدعى طيباريوس، فتبناه أغسطس وأشركه معه فى الحكم فى أواخر أيامه. حتى إذا توفى أغسطس فى ١٩ أغسطس عام ١٤ بعد الميلاد جلس على العرش بعده طيباريوس .

وقد ظل أغسطس يحكم الإمبراطورية الرومانية منذ مقتل قيصر عام ٤٤ قبل الميلاد إلى عام ١٤ بعد الميلاد أى ثمانية وخمسون عاماً ، وظل يحكم مصر من عام ٣٠ قبل

الميلاد إلى عام ١٤ بعد الميلاد أى أربعة وأربعون عاماً . وقد توفى وهو فى السادسة والسبعين من عمره .

طيباريوس

وإذ كان أغسطس قد وقع اختياره على طيباريوس ليخلفه فى الحكم بادر مجلس الشيوخ بعد وفاة أغسطس إلي منح طيبارس كل سلطاته وألقابه ، فأصبح اسمه طيباريوس قيصر . وكان عندئذ فى الخامسة والخمسين من عمره ، وكان رجلا فظاً ، صارم التقاطيع ، طويل الصمت ، بطيء الحديث ، سريع الغضب ، شديد البطش ، لاضمير له ولا رحمة فى قلبه . وقد أقام حكمه على الطغيان العسكرى والطخ يديه بدم الآلاف من الضحايا . وكان لايفتأ يطارده الرعب من أن يقتله المحيطون به ، فكان لايفتأ يقتلهم واحداً بعد الآخر ولو كانوا من أقرب الناس إليه . ومع أنه بدأ عهده بشىء من الحرص والتعقل ، حتى لقد ضاعف أموال الخزانة العامة سبعاً وعشرين مرة ، وحتى لقد كفل السلام فى الإمبراطورية بضع سنوات . إلا أنه لم يلبث أن أطلق العنان لشهواته ، ولم يلبث أن نشب الصراع بينه وبين أمه ليفيا التى كانت تريد أن تتسلط عليه ، كما نشب الصراع بينه وبين زوجته جوليا التى كان لها ابنة تسمى أجريبينا من زوجها السابق أجريبا . وكانت أجريبينا قد أنجبت ولداً يسمى نيرون ، فما فتئت تتآمر مع أمها على أن يغتصبا لهذا الولد عرش طيباريوس . أما الإبن الوحيد لطيباريوس وهو دروسوس فكان فتاً رقيعاً فاجراً فاسد الأخلاق منصرفاً كل الإنصراف إلى شهواته وشروره ، ومن ثم كان يناصب أباه العداء ، وكان أقسى عليه من الأعداء . وحين ضاق الإمبراطور ذرعاً بعائلته هذه ، كما ضاق ذرعاً بكل القيود التى يفرضها عليه منصبه ،

ترك روما إلى جزيرة كابرى حيث راح يحيا حياة الفسق والفجور ، متحرراً من كل اعتبار، ومنطلقاً من كل قيد. وقد أناب عنه صديقه سيجانوس فى تصريف شئون الدولة ، فانتهز هذا الصديق تلك الفرصة لتحقيق مطامعه والوصول إلى أغراضه والانتقام البشع من أعدائه . وفى هذه الأثناء ماتت ليفيا أم طيباريوس فلم يحضر جنازتها ، ثم أخبره سيجانوس بأن أجريبينا إبنة زوجته تحيك مع ابنها



« طيباريوس فى صباه »

نيرون مؤامرة لقتله ، فنفى أجريبينا إلى بانداتيرا ونفى نيرون إلى بونتيا حيث انتحر بعد قليل . وبعد ذلك كتب طيباريوس إلى مجلس الشيوخ يرشح جايوس ابن أجريبينا ليخلفه ، ولكنه لم يلبث أن علم أن جايوس يدبر مؤامرة لقتله فقبض عليه وأعدمه . ثم استولت عليه بعد ذلك سورة جنونية رهيبة ، فقتل كل من خامره الشك فى أنه يتآمر عليه أو يضمر له العداء ، ولو كان من أقرب أقربائه . فكان ممن قتلهم ابنته الصغرى . وقد أراد أن يقتل زوجته السابقة أبيكاتا فانتحرت ، إلا أنها قبل أن تفعل ذلك أرسلت إليه خطاباً تخبره فيه بأن الذى

قتل ابنه دروسوس هو زوجته ليفيللا إذ دسّت له السم، فأمر طيباريوس بمحاكمة ليفيللا ولكنها انتحرت، كما انتحرت بعد ذلك أجريبينا فى منفاها، وانتحر أصغر أبنائها. ولم يلبث سيجانوس صديق طيباريوس ونائبه أن اغتيل، فأصيب طيباريوس بالجنون المطبق وارتكب من أعمال القسوة والقتل مالا يكاد يصدقه العقل.

وقد ظلت مصر فى عهد طيباريوس خاضعة للنظام الذى وضعه لها أغسطس، رازحة تحت نير حكامها المحليين من الرومان، وقد انشغل عنها طيباريوس كما انشغل عن غيرها من الولايات بشهواته من ناحية، وبحملاته الإرهابية على أعدائه فى روما من ناحية أخرى.

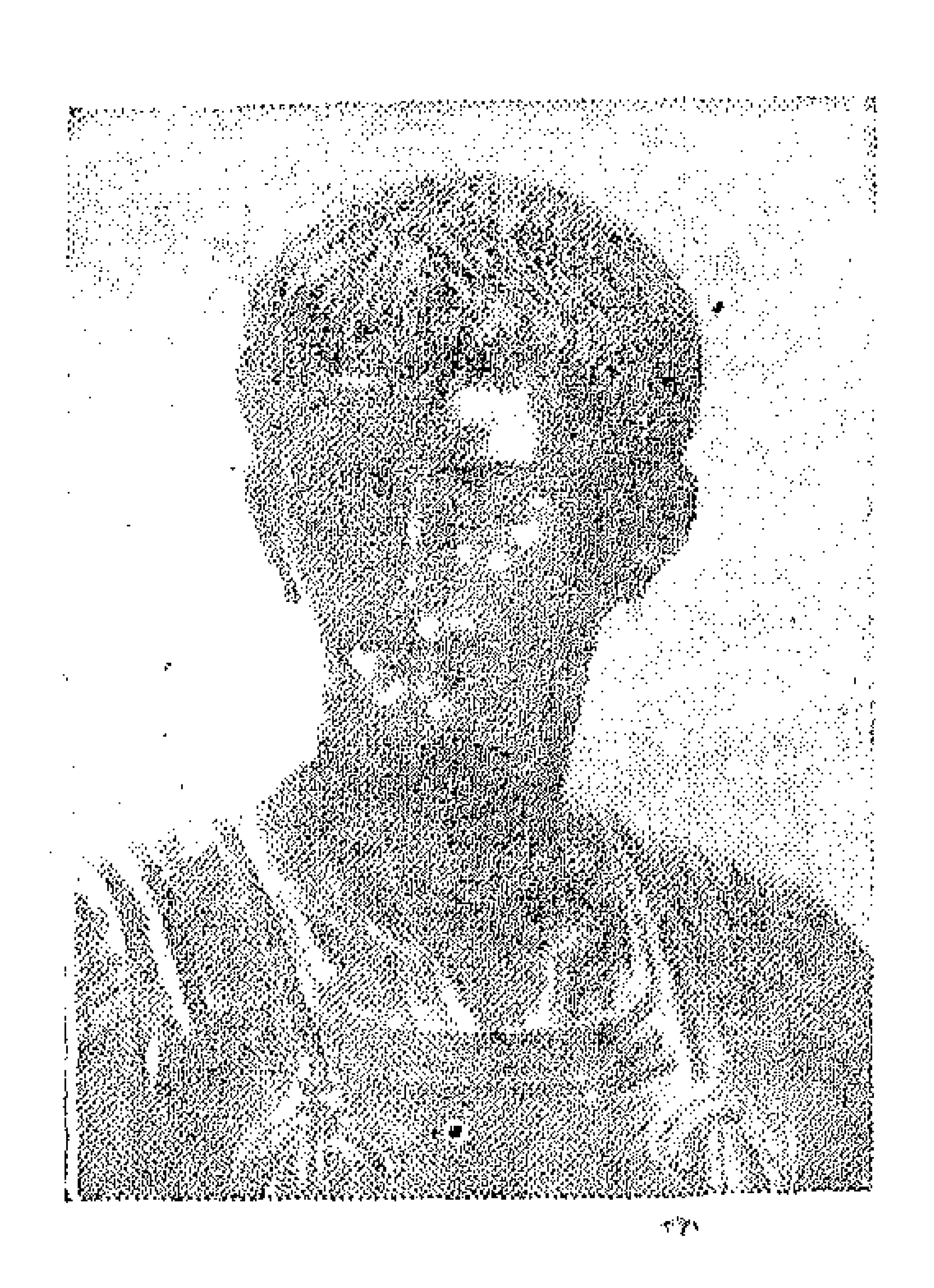
وفى عهد طيباريوس ظهر يوحنا المعمدان فى فلسطين مبشراً بمجىء يسوع المسيح، وكان يعمّد الناس فى نهر الأردن، فجاء يسوع حين كان فى نحو الثلاثين من عمره واعتمد منه. وقد جاء في الكتاب المقدس إنه « فى السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر، إذ كان بيلاطس البنطي والياً على اليهودية وهيرودس رئيس ربع على الجليل وفيلبس أخوه رئيس ربع على إيطورية وكورة تراخونيتس وليسانيوس رئيس ربع على الأبلية، فى أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا، كانت كلمة الله على يوحنا ابن زكريا فى البرّية، فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بعمودية التوبة لمغفرة الخطايا.. وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون فى قلوبهم عن يوحنا لعلّه المسيح، أجاب يوحنا الجميع قائلا أنا أعمدكم بماء ولكن يأتى من هو أقوى منى الذى لست أهلا أن أحلّ سيور حذائه، هو سيعمّدكم بروح القدس ونار.. ولما اعتمد جميع الشعب

إعتمد يسوع أيضاً » . (لوقا ٣ : ١ و٢و٣و١٥و١٦و٢١) ــ وفى عهد طيباريوس كذلك حكم كهنة اليهود على يسوع المسيح بالموت ، وطلبوا إلى الحاكم الرومانى بيلاطس البنطى أن يصلبه ، فلما تردّد فى ذلك هدّدوه قائلين أنه غير محب لقيصر فرضخ لهم وصلب يسوع . وقد جاء فى الكتاب المقدس إنه « لما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه ، فأوثقوه ومضوا به ودفعوه إلى بيلاطس البنطى الوالى . . فقال الوالى وأى شر عمل ، فكانوا يزدادون صراخاً قائلين . . إن أطلقت هذا فلست محباً لقيصر . كل من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر . . فلما رأى بيلاطس أنه لاينفع شيئاً بل بالحرى يحدث شغب أخذ ماء وغسل يديه قدّام الجميع قائلا إنى برىء من دم هذا البار. فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا (متى ٢٧ : ١ ــ ٣ و٢٣ ــ ٣٥ ويوحنا ١٩ : ١٢) .

وفى عام ٣٧ بعد الميلاد بينما كان طيباريوس فى ميسينيوم إنتابته نوبة إغماء فظن المحيطون به أنه مات . وكان يوجد بينهم جايوس أحد أبناء أجريبينا من زوجها السابق جرمانيكوس ، فالتفوا حوله على اعتبار أنه الإمبراطور الجديد . بيد أنهم ذعروا إذ رأوا طيباريوس يفيق من إغمائه ويتلفت حواليه ، فخافوا وانقضوا عليه وكتموا أنفاسه . وإذكان طيباريوس أثناء حياته قد رشح حفيده الصغير طيباريوس جيميللوس، سارع جايوس إلى قتله واحتل العرش باسم جايوس قيصر ، وقد اشتهر باسم كاليجولا ، أى الحذاء الصغير .

كاليجولا

وقد ارتقى جايوس كاليجولا عرش الامبراطورية عام ٣٧ بعد الميلاد ، وهو ابن أجريبينا إبنة زوجة طيباريوس من زوجها السابق جرمانيكوس . وكانت جدته لأبيه ابنة انطونيوس ، بينما كانت جدته لأمه إبنة أغسطس . وكان كاليجولا طويل القامة ضخم الجسم كثيف الشعر غائر العينين ، بشع الصورة



« كاليجولا »

مصاباً بالصرع . ولكنه كان فى بداية حكمه مرحاً طروباً محباً للفكاهة مغرماً بالرقص والتمثيل ، ماهراً فى المبارزة والمصارعة وركوب العربات ، متظاهراً بالرحمة والعدل . وقد أعلن عن اعتزامه انتهاج سياسة أغسطس ، ووعد بتخفيض الضرائب وزيادة احتفلات الألعاب . وقد أعاد كل الذين نفاهم طيباريوس إلى روما . وجاء برماد جثة أمه إلى روما مصحوباً بمظاهر الاجلال والتكريم ، فأحبه الرومان واستبشروا بعهده خيراً ، حتى لقد قدموا أكثر من مائة وستين ألف ضحية فرحاً بارتقائه العرش .

بيد أن السلطة لم تلبث أن أطاحت بعقل كاليجولا ، فراح يطلب إلى أعضاء مجلس الشيوخ أن يقبّلوا قدميه تعظيما له ، ثم يتقبل الشكر منهم إذ منحهم هذا الشرف . وقد أعلن أنه إله لا يقل شأناً عن جوبيتر نفسه ، وحطم تماثيل الآلهة ووضع فى مكانها تماثيله . وكان يجد سروراً عظيما فى أن يجلس فى هيكل الإلهين « كاستور » و « بوليكس » ويتلقى عبادة الناس له ، كما كان يحلو له فى بعض الأحيان أن يوجه الحديث أمام الناس إلى الإله الأعظم جوبيتر منددا به معنفاً إياه . وقد زعم ذات مرة لجلسائه أن إلهة القمر قد نزلت إليه وعانقته ثم التفت إلى تابعه فيتيليوس قائلا « ألم ترها بعينيك ؟ » فأنقذ هذا نفسه بأن أجاب قائلا : « كلا يامولاى ، لأنه لا يمكن إلا لأمثالك من الآلهة أن يروا بعضهم بعضاً » . ولم يلبث كاليجولا أن أقام هيكلا ليعبده الناس فيه ، وخصص له طائفة من الكهنة المبجلين . وقد عين جواده المحبوب أنسيتاتوس ضمن أولئك الكهنة ، ثم اقترح على مجلس الشيوخ تعيين ذلك الجواد قنصلا .

وقد سيطرت على كاليجولا شهوات جنونية شائنة ، فعاشر شقيقاته كلهن معاشرة الأزواج ، وحين تزوجت أخته دروزيللا أرغمها على تطليق زوجها واحتجزها لنفسه كأنها زوجته الشرعية . ولم تكن تروق فى عينيه إمرأة مهما كانت مكانتها إلا انتزعها من زوجها . وقد حضر حفل زفاف ليفيا أورسنيللا إلى خطيبها كايوس بيزو ، فما كان منه — وقد أعجبته — إلا أن اختطفها اختطافاً وهى فى ثوب الزفاف إلى قصره وتزوجها ثم طلقها بعد بضعة أيام . وسمع أن جوليا بولينا بارعة الجمال فاستدعاها وطلقها من زوجها وأمرها ألا تكون لها علاقة بأى رجل سواه . وكانت سيزونيا متزوجة وحاملاً فى شهرها الرابع حين

انتزعها من زوجها وتزوجها . وكان يرسل إلى النساء اللاتى يشتهيهن رسائل باسم أزواجهن يبلغهن فيها نبأ طلاقهن ثم يستدعيهن إلى قصره . فلم تكن ثمة امرأة جميلة من أكبر عائلات روما إلا استدعاها بهذه الوسيلة إليه . ولم تقتصر علاقته الشائنة على النساء ، فقد انغمس كذلك فى أبشع العلاقات الشاذة مع الجنسين على السواء . فكانت حياته أقبح وأقذر صورة يمكن أن يتصورها الخيال لحياة رجل من الرجال .

وكما كان كاليجولا داعراً بجنون ، كان كذلك مسرفاً بجنون ، حتى لقد أفرغ خزانة الدولة فى سنوات قليلة . فلم يكن يستحم بالماء ، وإنما بالعطور . ولم يكن ينفق على وليمة من ولائمه أقل من عشرة ملايين سيستروس ، أى ما يوازى نحو خمسمائة ألف جنيه . وقد أقام قاعات للمآدب ذات جدران من الذهب المطعم بالجواهر الكريمة . وأنشأ قوارب فاخرة للنزهة ذات أعمدة من الذهب والفضة . وكان من نزواته أنه أمر مهندسيه بأن يقيموا على خليج بايا جسراً يرتكز على القوارب ، فجمعوا لهذا الغرض كل قوارب روما ، حتى لقد هددت المجاعة أهلها لعدم وجود القوارب اللازمة لنقل الحبوب إليها . فلما تم بناء الجسر ، أقام الإمبراطور احتفالا عظيما فوق الجسر ، فتدافع الناس عليه يطربون ويشربون فلم يلبث أن انهار بهم وغرق عدد عظيم منهم . وكان من عادة كاليجولا أن يقف مع حاشيته فى شرفة قصره وينثر على الناس من تحته آلافاً من النقود الذهبية والفضية ليستمتع بالنظر إليهم وهم يرتمون على هذه النقود ويتخاطفونها ويتقاتلون عليها . وكان يسرف إسرافاً لا يتصوره العقل فى إقامة حفلات سباق الخيل . وقد رضى عن سائق جواد فى إحدى الحفلات فمنحه ثلاثة ملايين سيستروس ، وأراد تكريم جواده المحبوب أنيستاتوس فدعاه إلى وليمة وأقام له

مزوداً من العاج فى حظيرة من الرخام . وقد أراد كاليجولا أن يجمع المال اللازم لشهواته ونزواته ففرض الضرائب على كل شيء ، وأجبر الأهالى على أن يقدموا الهدايا إليه . وكان يتسلمها منهم وهو جالس فى شرفة قصره ، حتى إذا احتاج إلي مزيد من المال كان يتهم الأغنياء كذباً بالخيانة ويحكم عليهم بالإعدام ويستولى على أموالهم . وكان يتولى بنفسه بيع العبيد بالمزاد ويرغم الأشراف على حضور جلسات المزاد والاشتراك فيه ، فإذا غفا واحد منهم وهو جالس إعتبره موافقاً على الشراء ، حتى إذا استيقظ من إغفائه وجد نفسه مالكا لعشرة عبيد ومديناً نظير ذلك للامبراطور بعشرة ملايين سيستروس .

وقد زاد فى جنون كاليجولا وزاد فى حبه الجنونى للقتل أنه اكتشف مؤامرة لقتله ففرض على البلاد عهداً من الإرهاب الذى تفيض على جنباته بحور من الدماء . وأصبح يجد لذة فى تعذيب ضحاياه ، فكان يأمر الجلادين بأن يقتلوهم قتلا بطيئاً بأن يظلوا يثخنونهم بالجراح الصغيرة بحيث يتجرعون الموت قطرة قطرة ، ويعانون سكراته أطول مدة ممكنة . ويقول سوتونيوس أنه حين نفد ما يلزمه من اللحم لإطعام الوحوش التى كان يستخدمها فى الألعاب ، أمر بذبح جميع المساجين واستخدام لحمهم طعاما لتلك الوحوش . كما صب نقمته على جميع أبناء الطبقة العليا فى روما ، فأمر بإلقائهم للحيوانات الضارية ، أو اعتقالهم فى أقفاص حديدية ونشر أجسامهم بالمناشير ، أو حرقهم بالحديد المحمى . وقد أرغم بعض أعضاء مجلس الشيوخ على مصارعة الوحوش فى حلبة الألعاب ، بدلا من العبيد المصارعين . ويقول ديوكاسيوس أنه أرغم جدته أنطونيا على أن تقتل نفسها ، وأراد أن يقتل عمه كلوديوس لولا أنه تظاهر بالجنون . وأمر

بإعدام الفليسوف سينيكا ثم علم أنه مصاب بمرض خطير فعفا عنه ليتلذذ برؤيته وهو يموت من المرض موتاً بطيئاً .

وفي عهد كاليجولا بدأت تظهر في مصر ثمار السياسة التي وضع أساسها أغسطس ، وهي سياسة «فرّق تسُد» . إذ بلغ العداء بين اليونان واليهود في ذلك العهد ذروته ، وكان كاليجولا قد عيّن الأمير اليهودي أغريبا ملكاً على جزء صغير من فلسطين ، وإذ كان أغريبا قد قضى في الاسكندرية قبل ذلك زمناً طويلاً يعيش عيشة الصعاليك المفلسين ، فقد انتهز اليونان فرصة مروره بالاسكندرية واحتفاء اليهود به لينالوا منه ومن اليهود في شخصه ، وقد نظموا موكباً هزلياً وضعوا في مقدمته رجلا معتوها ألبسوه تاجاً مضفوراً من لحاء البردى وجعلوا في يده صولجاناً مأخوذاً من أعواد الغاب وطافوا به في شوارع المدينة وهم يهتفون بالسريانية قائلين «يحيا الملك» . بيد أنهم ماأفاقوا من نشوتهم بهذا الموكب الهزلي حتى خشوا عاقبة سخريتهم من أغريبا ، إذ كان صديقاً للامبراطور وصاحب حظوة لديه ، فلم يجدوا سبيلا للخروج من هذه الورطة إلا أن يسعوا بالوقيعة بين اليهود والإمبراطور . وإذ كان الإمبراطور قد أمر بوضع تماثيله في كل المعابد ، وقد رفض اليهود تنفيذ هذا الأمر في معابدهم ، راح اليونان يقتحمون هذه المعابد ويضعون فيها تماثيل الإمبراطور بالقوة ، فلما قاومهم اليهود اتهموهم بعدم الولاء للإمبراطور ، ورفعوا أمرهم إلى الحاكم الروماني فلاكوس فغضب على اليهود وحرمهم من امتيازاتهم . وقد انتهز اليونان هذه الفرصة فراحوا ينكلون باليهود ويخربون معابدهم وينهبون حوانيتهم ويضربون من يجدونه منهم . حتى إذا هب اليهود للدفاع عن أنفسهم ألقى الحاكم الروماني القبض على ثمانية وثلاثين من شيوخهم وأمر بجلدهم . بيد أن أغريبا أقنع الامبراطور بعزل فلاكوس ؛

فأرسل كل من اليونان واليهود وفداً إلى روما لعرض قضيته على الإمبراطور ، ولكنه لم يستمع إلى أى من الفريقين ، فظل العداء بينهما قائماً والصراع مستمراً .

ولم تلبث أن جاءت نهاية كاليجولا قبل أن يستكمل على العرش أربع سنوات ، إذ قتله ضابط فى حرسه الإمبراطورى يدعى كاسيوس خايرا فى ٢٤ يناير عام ٤١ بعد الميلاد . حتى إذا ذاع الخبر فى روما لم يصدقه الأهالى فى بداية الأمر ، إذ اعتقدوا أنه مجرد حيلة من حيل امبراطورهم الخبيث لينتقم من الذين يبتهجون بخبر موته . ولكنهم سرعان ما تأكدوا أن الخبر صحيح ، وأن رجال الحرس لم يقتلوا الامبراطور وحده ، وإنما قتلوا معه زوجته الرابعة ، كما أمسكوا بابنته وظلوا يدقون رأسها فى جدار من جدران القصر حتى حطموها ، ثم راحوا يجرّون جثتها فى شوارع روما .

وقد انتهز مجلس الشيوخ فرصة مصرع كاليجولا فحاول إعادة النظام الجمهورى . بيد أن الحرس الإمبراطورى رفض ذلك ، وكان قد أصبح صاحب الكلمة العليا فى البلاد ، فأرغم مجلس الشيوخ على تعيين امبراطور جديد من عائلة أغسطس ، هو طيباريوس كاوديوس ، وهو عم كاليجولا .

كلوديوس

وكان كاوديوس فى الخمسين من عمره حين اعتلى العرش عام ٤١ بعد الميلاد ، وهو حفيد أغسطس . وكان عليلاً يتلجلج إذا تحدث ، ويقهقه إذا ضحك ، ويسيل فمه وأنفه إذا غضب . فكان يبدو فى صورة الأبله ، وكانت حتى أمه تعترف ببلاهته ، بيد أنه أظهر بعد ذلك من الذكاء والمهارة فى تصريف شئون الدولة ما أدهش الجميع ، وقد قال لمجلس الشيوخ أنه كان يتظاهر بالبلاهة لينجو من الموت ،

وكان كاليجولا قد ترك الامبراطورية تهددها الأخطار من كل ناحية : فالخزانة خاوية ، والجيش مستبد بالسلطة ، ومجلس الشيوخ مسلوب الإرادة ، والشعب حانق ثائر ، وبلاد اليهود تغلي بالغضب لأن كاليجولا أصر على أن يضع تمثاله في هيكل أورشليم . فعمل كاوديوس على إرضاء الجميع وإصلاح كل شيء : فمنح كل جندي من جنود الحرس الذين رفعوه إلى العرش خمسة عشر ألف



« كلوديوس »

سيستروس ، واعترف بسلطان الجيش وسيادته ، وأعاد جميع المنفيين إلى أوطانهم ، وردّ الأموال الصادرة إلى أصحابها ، وألغى الضرائب التي فرضها كاليجولا ، ومنع تعذيب المواطنين لأي سبب من الأسباب ، وألغى تقليد السجود للإمبراطور ، معلناً أنه لا يصح اتخاذ الامبراطور إلهاً أو معبوداً ، وسعى إلى تعديل القوانين وإصلاح الإدارات الحكومية ، وعاقب الموظفين المرتشين والذين يسيئون استخدام سلطة وظائفهم ، ورفع من شأن الولايات ، حتى تتساوى فيما بينها

وتتعادل مع روما ذاتها . وقرر أن يتمم مشروعات قيصر فغزا بريطانيا وضم نصفها الجنوبي إلى الإمبراطورية . وحين أقيم له احتفال بالنصر بعد عودته إلي روما خالف جميع السوابق بأن عفا عن «كارا كتا كوس» ملك بريطانيا الأسير ولم يذبحه كما كان يفعل أسلافه بالملوك المهزومين . كما ضم موريتانيا و ليكيا وبمفيليا وتراقيا ومقدونيا وآفايا واليهودية . ولم يدلّل على حزمه وحنكته في شئون الحكم فحسب، وإنما دلّل كذلك على ذكائه وثقافته ، فقد تبحر في اللغة والدين والفلسفة والقانون ، وقد كتب تاريخاً لروما وقرطاجنة وأتروريا ، كما كتب ترجمة لحياته ، ورسالة في النرد ، وملهاة على نسق الكوميديات اليونانية ، ومن ثم كان العلماء والفلاسفة يراسلونه ، وكان بليني الأكبر ينقل عنه ويعتبره مرجعاً جديراً بالثقة والاحترام .

وقد وضع كلوديوس ثقته في عبيده المحررين ، ورفعهم إلي أعظم المناصب حتى لقد جعل منهم وزراء ، ولكنهم إستغلوا ثقته فيهم ، واستخدموا مناصبهم أسوأ استخدام ، وراحوا يعيثون في الدولة فساداً ويجمعون لأنفسهم أضخم الثروات عن طريق الرشوة وابتزاز الأثرياء وتوجيه التهم الكاذبة إلى الأبرياء ؛ ومن ذلك أن تاركيسوس وزير المواصلات أصبح أغنى أغنياء التاريخ القديم كله ، إذ بلغت ثروته أربعمائة مليون سيستروس ، أى ما يوازى عشرين مليوناً من الجنيهات . وبلغت ثروة باللاس وزير المالية ثلاثمائة مليون سيستروس ، أى ما يوازى خمسة عشرة مليوناً من الجنيهات . وفي حين كان كلوديوس يشكو من قلة المال كان هذان الوزيران وهما عبداه يملكان أكثر مما في خزانته أو خزانة الدولة ذاتها .

ولم يلبث كلوديوس نفسه أن انحدر إلى ذات الهوة التي انحدر إليها كل

أسلافه ، فأصبح بيته يضم أقذر الفضائح وأقبح صور الفساد . فقد تزوج أربع مرات ، وقد ماتت زوجته الأولى فى يوم زفافها . وأما الثانية والثالثة فقد طلقها. وأما الرابعة فهى فليريا ميسالينا حفيدة أنطونيوس وقد تزوجها وهو فى الثامنة والأربعين من عمره ، فى حين كانت هى فى السادسة عشرة ، وكانت فتاة فاسقة ، فلم تلبث أن أحبت راقصاً يدعى منيستر ، ولكنه لم يبادلها الحب فطلبت إلى زوجها

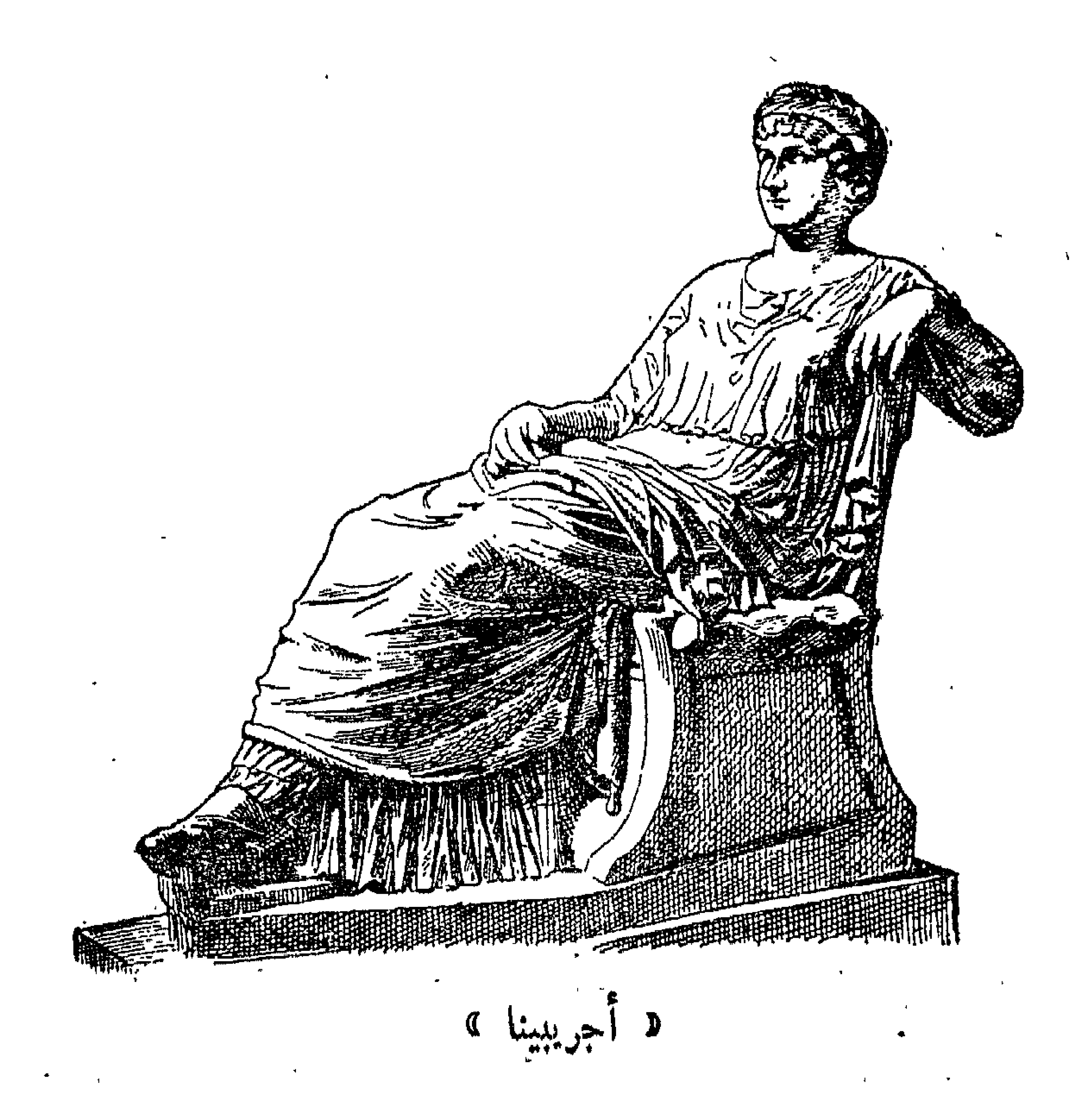


« ميسالينا »

أن يأمره بالاستجابة لها ، فلما أمره بذلك خضع وأصبح عشيقها . حتى إذا زهدت فيه وتاقت إلى غيره طلبت إلى زوجها أن يأمره كما أمر الأول بأن يرضخ لرغبتها . وهكذا اعتادت أن تفعل بالنسبة لكل رجل يروق لها ، فإذا أفلحت هذه الخطة معه أسبغت عليه رضاها . أما إذا تمرد فإنها تحرض عليه زوجها الإمبراطور فيقتله . ولم يكن كلوديوس ليرضى بأن يقوم بهذا الدور دون مقابل . فقد ذكر ديو أن ميسالينا « كانت تقدم إليه نظير ذلك ما يشاء من الفتيات ذوات الجاذبية والجمال » . وقد ذكر سوتونيوس أنه « كان مفرطاً فى شهواته النسائية » ، ومن ثم

كانت ميسالينا تعرف كيف ترضيه وتبادله منفعة بمنفعة ، فتعاونه فى فجوره ليعاونها هو فى فجورها . ولم يكن هذا الفجور ليقف عند حد ، حتى ليؤكد جوفينال أنها لم تقنع بعشاقها العديدين فاحترفت الدعارة فى المواخير العامة نظير أجر كغيرها من العاهرات . ويقول تاسيتوس فى ذلك أنه « بينما كان كاوديوس يتولى منصب الرقيب على الأخلاق فى الدولة ، كانت زوجته تبيع جسدها فى المواخير » . وقد بلغ من استهتار تلك المرأة أنها انتهزت فرصة غياب زوجها فى أوستيا وتزوجت زواجاً رسمياً من شاب وسيم يدعى كايوس سيليوس . ولم يلبث الإمبراطور أن علم من وزيره نارکيسوس أن زوجته تدبر مؤامرة لاغتياله وتنصيب سيليوس فى مكانه ، فسارع بالعودة إلى روما وأمر الحرس الإمبراطورى بذبح سيليوس وكل عشاق ميسالينا الآخرين . وعندئذ هربت ميسالينا إلى ضيعة كانت تتخذها وكراً لمساخرها وملذاتها ، فأرسل كاوديوس إليها يستدعيها لمحاكمتها ، وعندئذ خشى نارکيسوس أن يعفو عنها فبعث إليها جنوداً قتلوها . ولم تمض بضعة أشهر حتى راح كاوديوس يفكر فى الزواج من جوليا بولينا زوجة كاليجولا السابقة ، وكانت ذات ثروة طائلة حتى لقد كان ما تتحلى به من الجواهر وحده يساوى أربعين مليون سيسترتوس . ولكنه لم يلبث أن أدارت رأسه امرأة أخرى هى أجريبينا الصغرى إبنة أجريبينا الكبرى من جرمانيكوس ، وقد ورثت عن أمها جمالها وكفايتها وقسوتها وانعدام ضميرها . وكانت قد ترملت مرتين ، وقد رزقت من زوجها الأول كنايوس دوميتيوس أهينوباربوس بابنها نيرون الذى كانت تحلم بأن تجعله إمبراطوراً . أما زوجها الثانى فقد دست له السم وورثت عنه ثروة عظيمة . ورغم أن كاوديوس كان عمها ، فقد اعتزمت أن تتزوجه وتتخلص من ابنه بريتانيكوس الذى أنجبه من ميسالينا ، لتحقق

حلمها بأن تجعل ابنها نيرون هو الوارث للعرش . ولم تلبث بالفعل أن نجحت في إغراء الإمبراطور الشيخ فتزوجها عام ٤٥ بعد الميلاد ، وكانت وقتئذ في الثانية والثلاثين من عمرها ، بينما كان هو قد بلغ السابعة والخمسين . ثم نجحت في إقناعه بأن يتبنى نيرون ويزوجه من إبنته أوكتافيا ، كما



« أجريبينا »

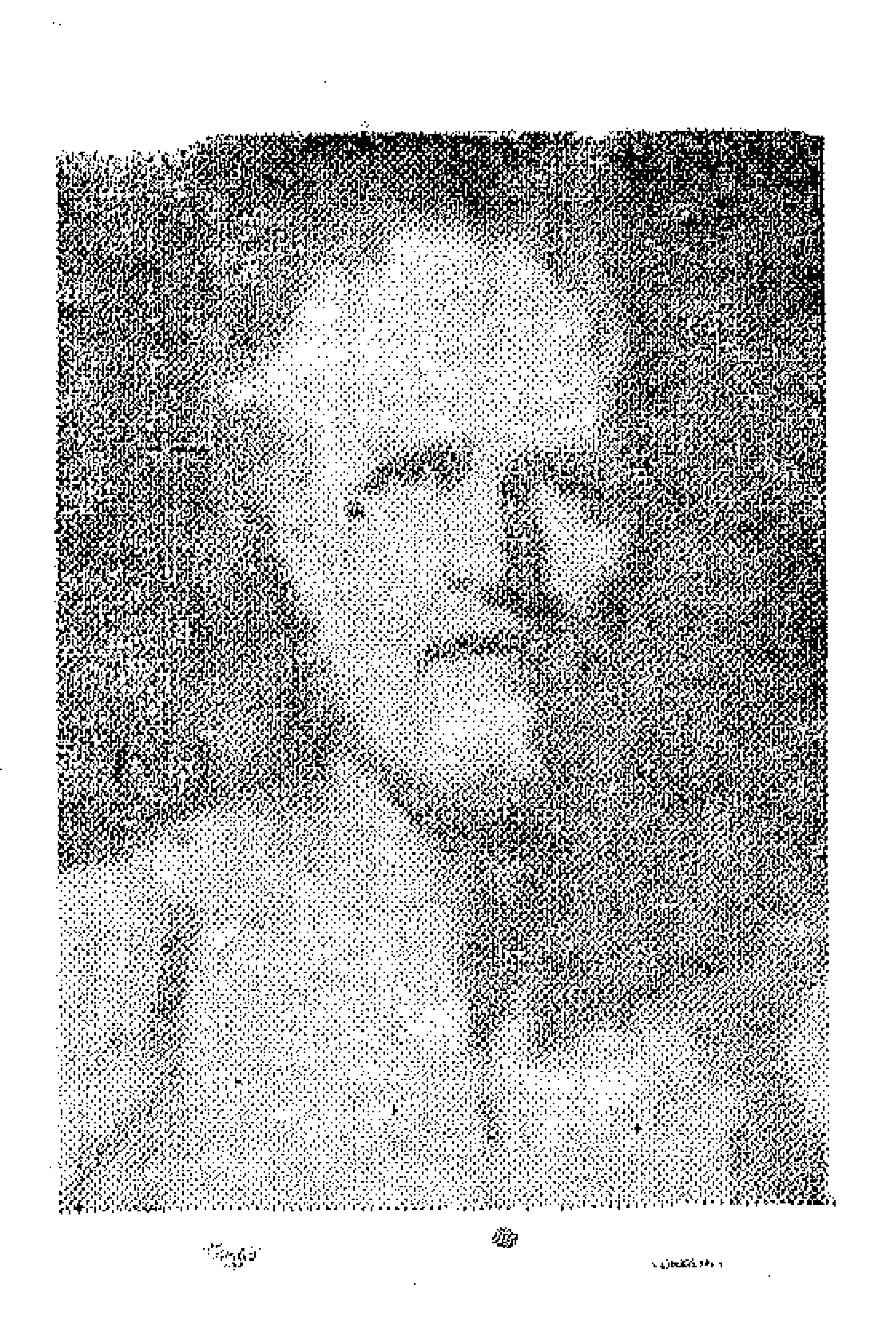
نجحت في إقناعه بأن تجلس هي نفسها معه على العرش . وبعد ذلك نجحت في تعيين صديقها باروس قائداً للحرس الإمبراطوري . ثم طوت الوزيرين تاركيسوس وباللوس تحت جناحها . فاستحوذت على السلطة كلها وأصبحت صاحبة الكلمة العليا في البلاد . ولم تلبث أن أطلقت العنان لجشعها وولعها بالمؤامرات والمغامرات ، فذبحت جوليا بولينا إذ سمعت الإمبراطور يبدى إعجابه برشاقتها ، ودست السم

لماركوس سيلانوس إذ رأت الإمبراطور يميل إليه وقد خافت أن يجعله وارثاً له ، وراحت تلفق التهم للأغنياء وتقتلهم لتستولى على أموالهم . وقد كان ممن حكمت عليهم بالإعدام وصادرت أملاكهم خمسة وثلاثون من أعضاء مجلس الشيوخ وثلاثمائة من الفرسان . وهكذا أصبحت الدولة كلها تعيش فى ظل طغيانها الرهيب فى رعب دائم ، بينما كان زوجها الإمبراطور غارقاً فى ملذاته لايفارق النساء ولا يفيق من الخمر .

وقد أعاد كلوديوس إلى يهود الأسكندرية كل الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها قبل عهد كاليجولا ، كما منح هذه الامتيازات ذاتها لكل الجاليات اليهودية في كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية . وعندئذ ظن اليهود أن فرصتهم قدجاءت ليثأروا من اليونان . فنشب القتال فى الإسكندرية بين الفريقين، حتى إذاأخمده حاكم مصر إيمليوس ركتوس،بادراليونان بإرسالوفد إلى الامبراطور ، يتملقه ويبدى له الخضوع والولاء . فأعاد الي اليونان كل ماكانوا يتمتعون به من قبل فى مصر من حقوق وامتيازات ، ماعدا مجلس الشورى فقد قال لهم أنه لايعلم عنه شيئاً وأنه لم يكن قائماً فى عهد الأباطرة السابقين . إلا أن الصراع لم يلبث أن تجدد بين اليونان واليهود ، كما يبدو ذلك فى مجموعة الرسائل التى تسمى « أعمال الأسكندريين » والتى كتبها اليونان معبرين فيها عن كراهيتهم الشديدة لليهود ، إلي جانب كراهيتهم الشديدة للرومان وتنديدهم بوحشيتهم وطغيانهم . ولذلك لاقت هذه الرسائل رواجاً عظيماً ، لافى الأسكندرية وحدها ، وإنما في كل أنحاء مصر ، وأصبح اليهود هدفاً للعداء والاعتداء فى كل مكان . فلما احتمى اليهود بالإمبراطور إحتضنهم وأمر بإعدام اثنين من زعماء اليونان الذين قادوا حملة الكراهية ضدهم . بيد أن هذا الصراع بين الفريقين أدى فى الحقيقة إلى استرجاع

حقوقهم وامتيازاتهم وإقناع الرومان بضرورة إرضاء الطائفتين كليهما . بينما ظل المصريون راسفين فى أغلال العبودية والذل ، فلم يكن لهم حقوق ولا امتيازات ، ولم يكن نصيبهم من الغاصبين على الدوام إلا الحرمان والهوان .

وقد ظل كلوديوس مستسلماً ومستكيناً لزوجته الخبيثة العابثة أجريبينا، ولكنه لم يلبث أن تنبه إلى المؤامرة التى كانت تحيكها لتنصيب ابنها نيرون إمبراطوراً ،



« سينيكا »

فاعتزم أن يفسد عليها تدبيرها وأن يسارع إلى تعيين إبنه بريتانيكوس وارثاً للعرش . بيد أنها كانت أسرع منه تدبيراً وأبرع تفكيراً فدست السم له فى الطعام فظل يتلوّى من فرط الآلام المبرحه التى كانت تمزق أحشاءه يوماً كاملاً، ثم قضى نحبه دون أن يقوى على النطق بكلمة واحدة . وهكذا نجحت أجريبينا فى بلوغ الغاية التى ظلت تسعى لتحقيقها زمناً طويلا ، وجلس ابنها نيرون على عرش روما.

نيرون

وكان نيرون هو الابن الوحيد الذى أنجبته أجربينا من زوجها الأول كنويوس دوميتيوس أهينو باربوس وهو حفيد أنطونيوس وأوكتافيا أخت أغسطس . وكان إسمه عند ميلاده لوسيوس ثم أضيف إليه لقب نيرون . وقد نجحت أمه بعدمقتل كلوديوس عام ٥٤ بعد الميلادفى أن تكتسب له تأييد الحرس الإمبراطورى ،



« نيرون »

فلم يجد مجلس الشيوخ مناصاً من تنصيبه إمبراطوراً . وكان نيرون عندئذ شاباً فى السابعة عشرة من عمره ، وكان بدينا ضخم الوجه منتفخ البطن رفيع الأطراف تكسو رأسه حلقات كثيفة ملتوية من الشعر الأصفر . وكان قد تلقى العلم على أيدي نخبة من الفلاسفة ولاسيما سينيكا وكايريمون ، فكان يبدو فى بداية الأمر هادئاً مطيعاً ، وقد شرع يسير سيرة حسنة ويجرى كثيراً من الإصلاحات ويلغى

كثيراً من الضرائب ، بيد أنه أسلم قياده لأمه وتركها تتصرف فى شئون الدولة كما تشاء ، وتصدر الأوامر إلى الوزراء وتستقبل السفراء ، فلم تلبث أن انفردت بالسلطان ، ونقشت صورتها على نقود الإمبراطورية مع صورة ابنها ، وقد استاء سينيكا أستاذ نيرون ومستشاره من ذلك لأنه كان يتطلع إلى أن يكون هو صاحب النفوذ الأوحد عليه ، فراح يحرضه ضد أمه ، مستثيراً كبرياءه واعتداده بنفسه ، ضارباً له دائماً على هذا الوتر الحساس ، حتى بدأ نيرون يجافى أمه ويحاول أن يمنعها من التدخل فى شئون الحكم ، فاستشاطت غضباً وراحت تهدده بأنها كما استطاعت أن تجلسه على العرش ، تستطيع أن تسقطه عنه وترده إلى وارثه الشرعى بريتانيكوس ، فما كان منه إلا أن قتل بريتانيكوس وأجبر أمه على أن تعتكف بصفة دائمة فى قصرها .

ولم يلبث نيرون أن ظهر على حقيقته ، حاكماً مستبداً فاسداً فاسقاً مجنوناً ، وقد أحاط نفسه ببطانة من الفتيات الفاجرات والفتيان السفلة الساقطين ، وراح يقضى أيامه ولياليه فى عهر وعربدة وعبث بالأعراض وانغماس فى أقبح وأقذر ما يتصوره العقل من شذوذ وشهوات وشرور . وكان يتخفى تحت جنح الليل مع بطانته تلك ، ويطوفون فى الشوارع والأزقة ، ويرتادون الحانات والمواخير ، وينهبون الحوانيت ، ويغتصبون النساء ، ويسلبون الرجال مامعهم ثم يضربونهم أو يقتلونهم . وكان سينيكا يشجع الامبراطور على التمادى فى مفاسده وموبقاته لينفرد هو بتوجيه دفة الحكم ، فكان يأتيه بالنساء الجميلات ويمهد له كل أسباب المتعة معهن . وقد أهداه جارية معتوقة تدعى كلوديا آكتى ، فسلبت لبه زمناً طويلا ، ثم لم يلبث أن افتتن بامرأة أخرى بارعة الجمال تدعى بوبيا سابينا ، وكانت زوجة صديقه أوتو ، فأبعد زوجها بأن عينه والياً على لوزيتانيا ، ثم

غرق فى هواها ، حتى لقد اعتزم أن يطلق زوجته أوكتافيا ويتزوجها . إلا أن أمه أجريبينا وقفت فى صف أوكتافيا ولجأت إلى كل وسيلة ممكنة لتثنى عزم نيرون عن طلاقها ، حتى ليقال أنها عرضت عليه فى سبيل ذلك أن يتخذها هي ذاتها — وهي أمه — عشيقة له . إذ كانت لا تزال تحتفظ بشبابها وجمالها وإغرائها . بيد أن بوبيا كانت أكثر تأثيراً عليه وأشد إغراء ، حتى لقد أقنعته بأن يقتل أمه فقتلها . ثم طلق أوكتافيا وتزوج بوبيا ، فلما غضب الشعب لذلك وحطم التماثيل التى أقامها نيرون لبوبيا بينما كلل بالأزهار تماثيل أوكتافيا ، حنقت بوبيا وحرضت الامبراطور على أوكتافيا فقتلها وأهدى إلى بوبيا رأسها . ثم حدث بعد ذلك أن كانت بوبيا حاملا، وقد غضب نيرون عليها فركلها فى بطنها فماتت . وإذ كان يحبها ظل حزيناً عليها ، ثم لم يلبث أن عثر على شاب ذى ملامح شديدة الشبه بملامحها يدعى سبوروس ، وتزوجه فى احتفال رسمى ، وعاشره معاشرة الزوجات .

وكان نيرون مغرماً بالرقص والغناء والتمثيل ، فكان يجمع فى قصره الراقصين والمغنين والممثلين ، ويعقد المباريات بينه وبينهم . ثم لم يلبث أن راح يقيم حفلات عامة يظهر فيها على المسرح ويرقص ويغنى ويمثل، ثم يركع فى النهاية أمام المتفرجين من الشعب طالباً منهم أن يصفقوا له . فلما استاء بعض أعضاء مجلس الشيوخ من ذلك أجبرهم على أن يظهروا هم أنفسهم على المسرح ويرقصوا ويغنوا ويمثلوا . ولما أحتج سينيكا على مسلكه عزله ثم قتله . واستمر يمارس هوايته المحبوبة ، فسافر إلى بلاد اليونان لإحياء الحفلات الموسيقية هناك . ويقول سوثينيوس أنه كان أثناء هذه الرحلة حين يغنى فى أحد المسارح لايسمح لأحد بالخروج منه لأى سبب من الأسباب ، حتى اضطرت بعض النساء وقد جاءهن المخاض أن يلدن

فى المسرح وحتى اضطر بعض الرجال أن يتظاهروا بالموت حتى يمكن إخراجهم .
وقد اشترك نيرون أثناء وجوده ببلاد اليونان فى الألعاب الأوليمبية ، فقاد بنفسه مركبة من مركبات السباق ، ورغم أنه سقط فى الطريق ثم تخلف عن منافسيه فى نهاية الشوط ، قدم له المشرفون على السباق تاج النصر ، وصفقت له الجماهير ، فامتلأ بالنشوة والسرور ، وأعلن أنه حرر بلاد اليونان منذ تلك اللحظة وأعفاها من دفع الجزية لروما ، ففرح اليونان بذلك فرحاً شديداً وقرروا أن يقيموا ألعاب الدورة الأوليمبية والدورة النيمية والدورة الأسثمية والدورة البيثية جميعاً فى ذلك العام بعد أن كانوا يقيمونها فى أعوام متتالية ، فابتهج نيرون لذلك وقرر أن يشترك فى هذه الدورات كلها بالغناء والعزف والتمثيل والسباق . وفعلا ظل العام كله متنقلا بين مسارح بلاد اليونان وملاعبها ، حتى إذا عاد أخيراً إلى روما ، دخلها دخول الفاتحين فى موكب رسمى ، وقد عرض فى هذا الموكب غنائمه وثمرات نصره ، وهى الجوائز التى ظفر بها فى بلاد اليونان . وقد بلغت نحو ألف وثمانمائة جائزة .

وقد اشتد سخط أعضاء مجلس الشيوخ على نيرون بسبب سلوكه الذى ينال من كرامة العرش . كما راح الفلاسفة الرواقيون يندددون جهاراً بذلك الإمبراطور الأبيقورى الذى ينغمس فى شهواته ونزواته دون أن يقف عند حد ، أو يراعى أى اعتبار . ومن ثم راح بعضهم يدبرون مؤامرة لقتل نيرون وتنصيب كالبيرينوس بيزو فى مكانه . إلا أنه علم بهذه المؤامرة فبدأ عهداً من الإرهاب ترتعد من هوله الفرائص وتشيب النواصى ، وراح يقتل كل من يشك فى ولائه أو يوقن فى ثرائه ، منتهزاً الفرصة ليملأ بأموال الضحايا خزانة الدولة التى أفرغها بإسرافه وإتلافه . وقد أقسم أن يقتل أعضاء مجلس الشيوخ جميعاً ، وأن يقضى

على طبقة الأثرياء ، فأرسل رجاله إلى كل مكان يقبضون على الأبرياء ويعذبونهم ثم يذبحونهم وينهبون أموالهم دون أن يوجهوا إليهم أى اتهام ، أو يواجهونهم بتهمة غريبة أو غامضة ، كالتهمة التى وجهوها إلى تراسيابيتس زعيم الداعين إلى الفلسفة الرواقية فى مجلس الشيوخ ، وهى فتور حماسته للامبراطور وعدم استمتاعه بغنائه . وقد ذهب ضحية هذا الإرهاب كذلك قائد الحرس الإمبراطورى فاينيوس روفوس ، والشاعر لوكان والكاتب بترونيوس والفيلسوف بيركا سورانوس وشقيقان للفيلسوف سينيكا ، هما أمونيوس ميلا وأنيوس نوفاتوس ، وكان هذا الأخير هو جاليو الذى أطلق سراح بولس الرسول فى أثينا .

ولم يلبث نيرون أن ارتكب جريمة جنونية ، لا يمكن للعقل أن يصدق أنها تصدر من إنسان مهما بلغ به الإجرام ، ومهما بلغ به الجنون . فقد أشعل النار فى روما ، لا لشىء إلا ليتمتع برؤيتها وهى تحترق ، وقد راح يراقبها من برج ماسيناس وهو ينشد على قيثارته قصيدة كان قد كتبها عن حريق طروادة . وقد ظلت النار مشتعلة تسعة أيام ، حتى التهمت ثلاثة أرباع المدينة ، واحترق عشرات الألوف من سكانها ، وهرع مئات الألوف منهم هائمين على وجوههم بلا مأوى وقد ذهب الرعب بعقولهم . ويذكر سوتونيوس وديوكاسيوس أن نيرون كان كلما رأى النار تخبو فى جانب من المدينة يعيد إضرامها حتى تظل مشتعلة متأججة ، فيسعد بمنظرها وينتشى بالغناء على صوت لهيبها . حتى إذا استوفى ذلك المعتوه متعته ورأى أن تهمة إحراق المدينة لاصقة به ، أراد أن يلقيها على عاتق غيره ، فراح يبحث عن ضحية يجعلها كبش الفداء . ويقول تاسيتوس أنه « كان ثمة طائفة من الناس يسمون أنفسهم بالمسيحيين وهم أتباع شخص يدعى

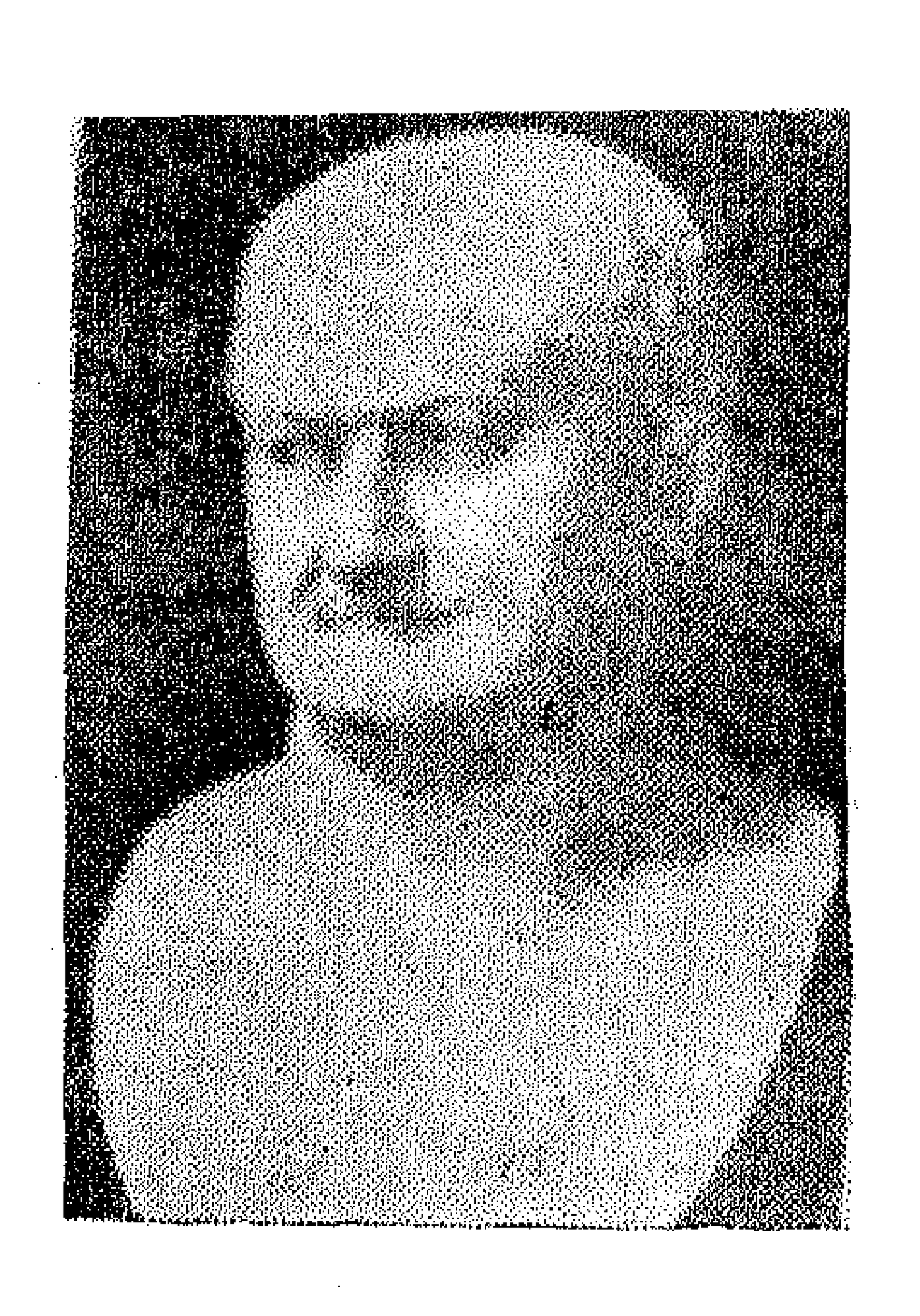
المسيح ، كان قد صلبه بيلاطس البنطى والي اليهودية فى عهد طيباريوس ، فاستأجر نيرون بعض السفلة والأراذل كي يشهدوا بأن أولئك المسيحيين هم الذين أحرقوا المدينة . وبناء على هذه الشهادة أصدر أمره بقتل المسيحيين جميعاً ، وقد استخدم في قتلهم أبشع صنوف القسوة والوحشية ، متخذاً من ألوان



« نيرون يتمتع برؤية روما وهى تحترق »

التعذيب الرهيبة التى أنزلها بهم متعة له ووسيلة لتسليته » . ثم شرع نيرون فى بناء روما من جديد ، وقد أرغم كل الولايات الرومانية على دفع النفقات اللازمة لذلك . وكان أول ما أقامه بها قصره الذهبى ، على مساحة عظيمة من الأرض كانت تشغلها قبل الحريق آلاف من بيوت الفقراء . وقد أنفق على هذا

القصر أموالا طائلة ، حتى لقد نهب هيا كل الآلهة ، وصهر تماثيلها الذهبية ليكسو جدرانه بالذهب الخالص ، وأقام أمامه تمثالا ضخماً لنفسه بلغ ارتفاعه مائة وعشرين قدماً ، وقد أحاطت برأسه هالة من أشعة الشمس باعتباره الإله



« فسبا سيان »

فويبوس آبو للون ، إذ كان نيرون يعتقد فى نفسه الألوهية ، وكان يطلب إلى رعاياه أن يسجدوا له ويعبدوه .

وفى عام ٦٠ بعد الميلاد كان بولس الرسول يبشر بالمسيحية فقبض عليه فيلكس حاكم اليهودية وعرض أمره على نيرون . وفى ذلك العام ذاته ذهب مرقس الرسول إلى مصر ليبشر بالمسيحية فيها . ثم فى عام ٦٦ شبت الثورة فى أورشليم ضد الرومان ، وحين عجز حاكم سوريا عن إخمادها أرسل اليها نيرون جيشاً بقيادة فسبا سيان فحاصر أورشليم وأسر المؤرخ اليهودى يوسيفوس . وفى ذات الوقت احتدم الصراع بين اليهود واليونان فى الأسكندرية فأرسل نيرون جيشاً

لكبح جماح الطائفتين ، وقد بلغ ضحايا اليهود فى ذلك الصراع خمسين ألفاً .

ولم تلبث أن جاءت الأنباء فى عام ٦٨ بأن يوليوس فنديكس حاكم بلاد الغال ، قد تمرّد وأعلن استقلاله بالبلاد التى يحكمها ، فأعلن نيرون عن جائزة مقدارها مليونان وخمسمائة ألف سيستروس لمن يأتيه برأس فنديكس. بيد أن هذا حين سمع بذلك قال ساخراً « إن من يأتينى برأس نيرون أعطيه فى مقابل ذلك رأسى » ومن ثم راح نيرون يعد العدة لملاقاة هذا العدو الشديد البأس فى الميدان . وكان أول ما اهتم به هو اختيار العربات التى سينقل عليها آلاته الموسيقية وأدوات التمثيل . إلا أنه لم يلبث أن جاءته الأنباء بأن سرفيوس سلبيشياوس جالبا قائد الجيش الرومانى فى أسبانيا قد انضم إلى فنديكس فى تمرده ، وأنه يزحف على روما . ولم يلبث الحرس الإمبراطورى أن انضم إلى الجيش الزاحف ونادى بتنصيب جالبا إمبراطوراً ، ثم أعلن مجلس الشيوخ إعتبار نيرون عدواً للشعب وقرر صلبه ، فتأهب نيرون للفرار وراح يتوسل إلى أصدقائه وأعضاء حاشيته أن يرافقوه فرفضوا جميعاً ، فهرع وحده إلى قصره الريفى خارج روما ، وهناك حاول أن ينتحر ولكنه جبن ، حتى إذا سمع وقع أقدام الجنود الذين أرسلهم مجلس الشيوخ للقبض عليه ، حاول مرة أخرى أن يطعن نفسه بالخنجر ولكنه تخاذل وعجز ، فتوسل إلى أحد عبيده أن يعاونه فى دفع الخنجر إلى حلقه ، فعاونه فى ذلك حتى زهقت روحه ، ومات موت الجبان . وكان موته فى عام ٦٨ بعد الميلاد . وكان هو آخر الأباطرة الرومان من أسرة يوليوس قيصر ، بعد أن ظلت هذه الأسرة فى الحكم أكثر من مائة وعشرين عاماً .

الفصل الثانى

مظاهر الحضارة المصرية فى العصر الرومانى

من عهد أغسطس إلى عهد نيرون

نتكلم فى هذا الفصل عن النظم التى وضعها الأباطرة الرومان من أغسطس إلى نيرون ، للسيطرة على مصر واستغلال مواردها واعتصار أبنائها اعتصاراً ليستولوا على كل قطرة من جهدهم ، بل من دمهم ودمعهم . فنتكلم عن النظام السياسي والإدارى ، ثم عن النظام الإقتصادى والمالي ، ثم عن النظام القضائي . ثم نتكلم بعد ذلك عن المظاهر الأخرى التى سادت مصر في ذلك العصر ، فيما يتعلق بالحياة الإجتماعية والعقائد الدينية والحياة الثقافية والفنون .

البحث الأول

النظام السياسى والإدارى

كانت مصر ولاية من ولايات الدولة الرومانية ، ولكنها ولاية من طراز فريد . فقد كانت من قبل دولة كبرى ذات ماض عريق ، وكانت حتى عهدها القريب فى عصر البطالمة ذات مركز ممتاز فى العالم الهيلينستى ، وفى ذات الوقت كانت ـ بحكم خصبها وخيراتها والصحراوات التى تحيط بها ـ جوهرة مكنونة يصعب الاستيلاء عليها ويسهل الدفاع عنها لمن يستولى عليها . فكان الأباطرة يحرصون على أن يحتفظوا بها تحت إشرافهم المباشر ، ولا يخاطرون بتركها لحاكم من الأشراف يطمح إلى الاستقلال بها عن روما كما استقل بها بطليموس من قبل عن مقدونيا . ولذلك اعتبر أغسطس مصر حين استولى عليها من أملاكه الخاصة وأبعد مجلس الشيوخ عن أن يمارس أى إشراف عليها ، بل منع أعضاء ذلك المجلس كما منع كل شخص بارز فى الدولة الرومانية من أن يزور مصر بغير إذن صريح من الإمبراطور . وقد وضع أغسطس لمصر نظاماً خاصاً يكفل سيطرته التامة عليها ، ويحول دون ثورة أهلها المصريين أو تمرد حاكمها الرومانى ، كما يكفل أن تظل مصر مجرد مزرعة للغلال اللازمة لروما . فكان هذا

هو الأساس الذى قامت عليه السياسة الرومانية فى مصر ، وكان هـذا هو الهـدف الذى ترمى إليه تلك السياسة طوال العصر الرومانى .

وقد اعتبر الإمبراطور نفسه وريثاً للبطالمة فى مصر ، كما اعتبر نفسه سليلاً للفراعنة الأقدمين ، وإلهاً معبوداً كما كانوا آلهة معبودين ، وأصبح ينقش صورته على الآثار المصرية مقرونة بالألقاب الإلهية التى كانت تقترن بها صور الفراعنة من قبل ، وظلت كثير من تفصيلات النظام الإدارى التى ورثها البطالمة عن الفراعنة قائمة ، فظلت الأراضى الحـكومية تسمى « الأراضى الملـكية » وظل المزارعون الذين يستأجرون هذه الأراضى يسمون « المستأجرين الملـكيين» وظل كل إقليم من أقاليم مصر يحتفظ بالموظف الذى كان يسمى « الـكاتب الملـكي » . ومن ثم حكم الرومان مصر فى الإطار العام الذى كان يحكمها فيه الفراعنة والبطالمة من بعدهم وهو اعتبار فرعون هو الملك والمالك لـكل شيء فى مصر ، واعتباره هو الإله والمعبود لـكل المصريين .

وقد أناب الإمبراطور عنه فى مصر حاكماً عاماً من طبقة الفرسان ، يمارس كل السلطات الإدارية والمالية والقضائية والعسـكرية وغيرها باعتباره ممثلا للإمبراطور ومسئولا أمامه ، وكان يتحتم عليه البقاء فى مصر طوال فترة حكمه لها فلا يصبح له مغادرتها منذ استلام مقاليدها إلى حين تسليمها إلى الذى يخلفه فيها . وكان مقر الحاكم العام الرومانى هو مدينة الإسكندرية .

وكان يتولى مساعدة الحاكم العام فى مصر بعض كبار الموظفين الرومان وعلى رأسهم المسئول عن الشئون القضائية وهو بمثابة وزير العدل ، والمسئول عن الشئون المالية وهو بمثابة وزير المالية ، والمسئول عن الشئون الدينية ، وهو وإن

يكن موظفاً رومانياً وليس كاهناً فقد كان يسمى « الكاهن الأعظم للإسكندرية وسائر مصر » ، وكان رئيساً لكل الكهنه المصريين وصاحب السلطة العليا على كل المعابد وشئون العبادة في مصر ، وبواسطته أمكن للرومان أن يسيطروا سيطرة تامة على هذه الهيئة التي كانت على الدوام تتزعم الحركات القومية فى البلاد . وكان من الموظفين البارزين كذلك « اللوريديكوس » وهو بمثابة القاضى وكان يختار دائماً من طبقة الفرسان ، و « الأرشيديكاستيس » وهو الموظف القضائى الذى كان يشرف على المحفوظات العامة ، و « الألسيجيتيس » وهو المشرف على الشئون الادارية ، و « الإيديوس لوجوس » وهو مراقب الدخول غير المنتظمة كالغرامات والأموال المصادرة والأملاك التى لا أصحاب لها . و « الهيبو مينما توجرافوس » وهو رئيس ديوان الشكاوى ، و « الأجورانوموس » وهو المهيمن على توثيق العقود ، و « اليوثينيارك » وهو المشرف على التموين ، و « الجيمناسيارك » وهو رئيس الجيمنازيوم أي النادى الثقافى الرياضى ، و « الكوزميتيس » وهو المختص بشئون الشباب . وكان أولئك الموظفون جميعاً من الرومان ، كما كانت كل الوظائف الهامة فى البلاد قاصرة علي الرومان ، فلم يكونوا يتركون المصريين من أهل البلاد إلا الوظائف الحقيرة .

وقد قسم الرومان مصر إلى ثلاثة أقسام إدارية كبرى هى الدلتا ، ومصر الوسطى وهي التى كانت تسمى « الأقاليم السبعة وإقليم ارسينوتيس » ، ومصر العليا وهى منطقة طيبة . وجعلوا على كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة حاكماً رومانياً يعينه الإمبراطور ويخضع خضوعاً مباشراً للحاكم العام ويقوم بتنفيذ ما يعهد به إليه من واجبات . ثم قسموا كلا من هذه الأقسام الثلاثة إلى مديريات وجعلوا على كل مديرية منها قائداً يلى حاكم القسم فى المرتبة ويتلقى منه جميع الأوامر

ما عدا الذى يتصل منها بالشئون المالية فكان عليه أن يرجع فيه إلى الإدارة المالية المركزية بالعاصمة . ولم يكن للقائد أى اختصاص حربى فكان نفوذه لا يمتد إلا إلى النواحى الإدارية ، ومن ثم كان مسئولا فى مديريته عن الأمن والضرائب واستغلال الأراضى الحكومية وكان ينوب أحياناً عن الحاكم العام فى اختصاصه القضائى . وكان الذى يلى قائد المديرية فى المرتبة هو « الكاتب الملكي » وكان ينوب عن القائد أثناء غيابه أو انتهاء مدته . وكانت أهم إختصاصاته تتعلق بالشئون المالية فى الإدارة المحلية . ثم يجىء بعد الكاتب الملكى رؤساء دار السجلات الرسمية التى كانت منوطة بحفظ جميع المكاتبات الرسمية وكشوف الضرائب وقوائم التعداد وسجلات الأراضى وتسجيل العقارات والعبيد . وكان فى كل مديرية كذلك كبير الكهنة ورئيس الجيمنازيوم ومدير التعليم ومراقب التموين والمشرف على السوق العامة . وكانت أغلب هذه الوظائف المحلية يشغلها اليونان . وكانت كل مديرية تضم عدداً من القرى ، وتدير كل قرية منها جماعة من شيوخها الذين يتلقون أوامرهم من قائد المديرية ويكونون مسئولين أمامه عن كل شئون قريتهم ولاسيما سداد الضرائب المفروضة عليها . وكان يمثل السلطة المركزية فى كل قرية رئيس الشرطة وكاتب القرية وهو بمثابة « الصراف » .

وكانت المدن اليونانية في مصر وهي الأسكندرية ونقراطيس وبطوليميس هي وحدها التى تتمتع بقدر من الاستقلال الذاتى فى حكمها المحلى ، وكانت كل منها تتمتع بمزايا خاصة تتفق مع تاريخها وتقاليدها . وكانت تخضع فى النواحى الإجتماعية والدينية والثقافية لحكامها المحليين الذين ينتخبهم مواطنوها . بيد أنها كانت تخضع فى النواحى الإدارية للحكومة المركزية في العاصمة . ولم تكن تتمتع إحداها بمجلس تشريعى كالمجالس التي كانت تتمتع بها المدن اليونانية من قبل .

وكانت الإسكندرية قد فقدت مجلسها الشورى منذ أواخر العصر البطلمى ، وقد رفض أغسطس إعادته كما رفض ذلك بالنسبة لكل المدن اليونانية الأخرى . ولكنه من ناحية أخرى جعل لليونان مركزاً ممتازاً بالنسبة للمصريين ، ومنحهم كثيراً من أسباب التنافس بينهم وبين اليهود ، هادفاً بذلك إلى إضرام نار الحقد بين أولئك جميعاً ودفعهم دفعاً إلى التنازع والصراع فيما بينهم لينالهم الضعف كلهم فلا يظل قوياً غير الرومان الذين يحكمونهم . وكانت تلك هى سياسة الرومان التى انتهجوها فى كل مكان وسيطروا بها على العالم كله . وقد أعفى أغسطس مواطنى المدن اليونانية الثلاث من ضريبة الرأس التى كانت مفروضة على المصريين ، فضلا عن أنه منح معاهد الجيمنازيوم اليونانية التى كانت قائمة فى عواصم المديريات صفة رسمية مع أنها لم تكن داخلة فى نطاق المدن اليونانية ، فأتاح لها بذلك بعض الامتيازات التى كانت تتمتع بها تلك المدن .

وقد كان أول ما اهتم به أغسطس حين استولى على مصر هو كفالة السيطرة عليها ، بسبب ما يعرفه من صلابة أهلها وقوة اعتزازهم بماضيهم المجيد ، وشدة نفورهم من كل غاصب أجنبى ، وعنف ثورتهم عليه حتى يطردوه من بلادهم . ولذلك خصص أغسطس لمصر قوة عسكرية تفوق كل القوات الرومانية المخصصة للولايات الأخرى ، وكان قوامها ثلاث فرق كاملة وثلاث فصائل من الفرسان وتسع كتائب مساعدة . وكانت الفرقة الرومانية تتألف من عدد يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف جندى ، وكانت الفصيلة تتألف من نحو ألف جندى ، والكتيبة تتألف من نحو ستمائة جندى ، أى أن القوات الرومانية فى مصر كانت تتألف من نحو خمسة وعشرين ألف جندى ، فى حين كانت قوات الامبراطورية كلها لا تتجاوز مائة وعشرين ألف جندى . أى أن القوات المخصصة

لمصر وحدها كانت تزيد عن عشرين فى المائة من القوات الرومانية كلها . وكان الجزء الأكبر من هذه القوات يرابط فى الأسكندرية . وأما الباقى فكان موزعاً بين أنحاء القطر المختلفة ، ولاسيما فى منطقة طيبة التى كانت مهد الحركات الوطنية فى كل العصور . وقد اضطر طيباريوس بسبب الاضطرابات فى الولايات الأخرى أن يسحب من مصر إحدى الفرق الرومانية . بيد أن مصر لم تلبث أن ثارت فى عهد كلوديوس فاضطر إلى زيادة القوات الرومانية بها مرة أخرى ، وقد وضع فرقة كاملة فى نيقوبوليس بالقرب من الأسكندرية . وكان من مظاهر طغيان الرومان واستعبادهم المصريين أنهم كانوا يفرضون عليهم إيواء جنود الاحتلال فى منازلهم وتقديم الطعام إليهم ، فكان ذلك من أسباب سخط المصريين وثورتهم طوال العصر الرومانى . وكان أولئك الجنود بمثابة السوط الذى يلهب ظهور المصريين فى أوقات ثورتهم وانهزامهم على السواء ، إذ كانوا لا يفرغون من إخماد ثورات المصريين حتى يتفرغون لجباية الضرائب منهم بالقوة والقسر ، فيذيقونهم أبشع ألوان الذل والإيذاء . وكان الرومان يحتفظون بأسطول يرابط عند شواطىء مصر لتوطيد سلطانهم فيها وحراسة شحنات القمح التى كانت تخرج منها بغير انقطاع إلى روما . كما كان الرومان فضلا عن استخدام الجيش والأسطول فى السيطرة على البلاد ، يستخدمون قوات من رجال الشرطة المسلحين والمدربين تدريباً حربياً . فكانت هذه الجحافل كلها تقف للمصريين بالمرصاد ، وتجثم على صدورهم ، فتكتم أنفاسهم ، وتكاد أن تزهق أرواحهم .

وقد كان يوجد بمصر فى العصر اليونانى نظام القيد ، أى إدراج أسماء السكان فى قوائم ، فأدخل إليها الرومان نظام التعداد المنتظم الذى كانوا يهدفون من ورائه إلى ضمان فرض الضرائب على كل الأشخاص والأشياء ،

وكان يتم كل أربعة عشرة سنة باسم « التسجيل المنزلى » أو « التسجيل منزلاً منزلا » ، ويتضمن إحصاء الأفراد والأملاك . وكان على مالكى العقارات أن يقدموا إقرارات مؤيدة باليمين عن عقاراتهم وعن السكان الذين يشغلونها ثم يتم تسجيل البيانات الواردة بتلك الإقرارات فى سجلات شاملة للقطر كله . وقد أنشأ الرومان في عاصمة كل مديرية دواوين رسمية لحفظ هذه السجلات وتعديل البيانات الواردة بها بعد كل تعداد . وكانت هذه السجلات تشتمل ـ فضلا عن عن أسماء الأشخاص وعقاراتهم ـ على بيان حالتهم الاجتماعية والطبقية التى ينتمون إليها . وكان يتعين على أبناء الطبقات الممتازة لكي يمكن بيان طبقاتهم فى هذه السجلات أن يقدموا من المستندات مايثبت انتماءهم إلى تلك الطبقات ، إذ بذلك وحده يتاح لهم التمتع بما لتلك الطبقات من امتيازات .

وقد ظلت الإسكندرية في العصر الرومانى كما كانت فى العصر اليونانى عاصمة لمصر ، بل ظلت أعظم المدن فى الإمبراطورية الرومانية بعد روما ، وظلت أضخم الموانى فيحوض البحر الأبيض المتوسط وأكثرها أهمية وازدهاراً، وقد استمرت مركزاً للثقافة الراقية والفن الرفيع ، فكانت جامعتها العريقة لا تفتأ تجتذب إليها الطلاب من كل أنحاء العالم . بيد أن هذه المدينة كانت مصدر متاعب لاتنتهى للرومان إذ كان أغلب سكانها من اليونان واليهود ، وقد عملت السياسة الرومانية على إضرام نار العداوة التى كانت قائمة بين هاتين الطائفتين ، فكانتا فى نزاع دائم وصراع لاينقطع ولايهدأ ، وكانت المعارك لاتفتأ تنشب بينهما فيضطر الرومان إلى التدخل لحسمها وعقاب أحد الفريقين أو عقابهما معاً . وكان الفريقان لا يفتآن يرسلان الوفود الى روما لعرض خصومتهما على الإمبراطور ، فكان يقف

مع أحد الفريقين ضد الآخر أو يقف ضد الفريقين كليهما . إلا أن الرومان كانوا يحتملون هـذه المتاعب ، بل كانوا يعملون علي استمرارها لأنها تتفق مع خططهم فى التفريق بـين رعاياهم ليسـودوا هم ويحكموا . ومن ثم ظلت الإسـكنـدرية تعـانى من الاضطرابات زمناً طويلا ، ولـكنها ظلت مع ذلك هي قلب المـدنية النابض ، ورمز الحضارة فى العالم كله .

البحث الثاني

النظام الاقتصادى والمالى

كان الهدف الذى يرمى إليه أباطرة الرومان ويدور حوله كل تفكيرهم وتدبيرهم هو جمع أكبر قدر ممكن من الثروة يتيح لهم التمتع بكل مايطمعون فيه أو يتطلعون إليه من ملذات الحياة ، ويمنحهم القدرة على الإغداق على جيوشهم والاحتفاظ برضائها عنهم ليظلوا محتفظين بعروشهم . ومن ثم كان محور سياستهم فى الولايات الخاضعة لهم هو طحنها طحناً واعتصارها اعتصاراً لاستنزاف كل مايمكن أن تعطيه من موارد وثروات . وقد كانوا يفعلون ذلك فى قسوة بشعة ووحشية رهيبة ، وفى غير شفقة ولا رحمة ولا وخز ضمير . وكانت مصر هى أتعس ضحية وقعت فى براثن أولئك الطغاة المتجبرين الغلاظ القلوب ، فقد ذبحوها ذبح الشاة وأكلوا لحمها وشربوا دمها فلم يتركوا منها إلا عظاماً وحطاماً ، وقد أثارت خصوبتها الوفيرة وخيراتها الكثيرة ما يكمن فى نفوسهم من طمع وجشع فانقضوا عليها انقضاض طيور الصحراء على حقول الحنطة ، وراحوا ينهبونها نهباً منظماً ، ويسلبونها ما تنتجه أولاً بأول وعاماً بعد عام ، وقد انتفعوا فى ذلك إلى أقصى الحدود بالنظام المالى الصارم الذى سبق أن وضعه البطالمة لهذه البلاد المنكوبة اليائسة ، ولكنهم حوروه وطوروه بما يلائم عقليتهم العدوانية المستبدة ، ويتمشى

مع أساليبهم الظالمة وأغراضهم الغاشمة . وهكذا أصبحت مصر العظيمة مجرد جارية لسادة روما ، وأصبحت أرضها الكريمة التي تضم أجداث الفراعنة الخالدين مجرد مزرعة لطعام الرومان .

وكان الذى يشرف على الإدارة المالية بمصر فى العصر الرومانى هو الحاكم العام ، يعاونه مساعد يتولى مايشبه اختصاصات وزير المالية ، ويرأس عدداً عظيما من الموظفين المنتشرين فى كل أنحاء البلاد . وكان قائد كل مديرية مسئولا فى مديريته عن تقدير الضرائب وجبايتها واستغلال الأراضي الحكومية وتوريد محصولها وتنفيذ كل الأوامر المتعلقة بالشئون المالية التى تصدر إليه من الحاكم العام ، وكان يساعده فى ذلك موظف كبير كان يسمى « الكاتب الملكي » .

وكان المصدر الأساسى الذى تعتمد عليه إيرادات مصر فى العصر الرومانى كما كان في كل العصور هو الأرض . وقد كان الجانب الأكبر من أرض مصر هو الذى يسمي « الأراضى الملكية » ، وهى التى كانت فيما سبق مملوكة للبطالمة ، ثم أصبحت تملكها الحكومة الرومانية وتطلق عليها ذات الإسم القديم ، وتؤجرها لمزارعين احتفظوا كذلك باسمهم القديم وهم « المزارعون الملكيون » ، كما أصبحت الحكومة الرومانية تملك وتؤجر الأراضى التى انتزعتها من المعابد ومن أرباب الإقطاعات المسكرية اليونان ، ومن بعض الرومان الذين كانوا قد انحازوا إلي صف أنطونيوس فى صراعه مع أغسطس . وقد ظل النظام السائد بالنسبة لهذه الأراضى هو نظام التأجير بالمزاد العلنى ، حتى إذا لم يتقدم أحد للمزايدة بسبب ارتفاع قيمة الايجار المطلوب أو قسوة ما تتضمنه من شروط لجأت الحكومة إلى وسيلة الإلزام التى كان معمولا بها فى العصر اليونانى ، فكانت الحكومة تأمر بضم

الأرض التي لم يتم تأجيرها في نطاق إحدى القرى إلى نطاق قرية أخرى وتلزم أهل تلك القرية بزراعتها مع الأرض التي استأجروها ، أو كانت الحكومة تلحق تلك الأرض بأملاك بعض الأفراد وتلزمهم بأن يزرعوها مع أملاكهم الخاصة ، فإذا عجز أحد المستأجرين عن زراعة الأرض التي استأجرها أو هرب منها ولم يدفع إيجارها وقع عبء زراعتها ودفع إيجارها على أهل قريته جميعاً . وكان ثمة جانب من الأراضي يملكه الأباطرة ملكية خاصة . وكان أغسطس قد انتزع هذه الأراضي من بعض اليونان الذين كان البطالمة قد أغدقوها عليهم ، وقد جرى الأباطرة على منح طائفة من المزارعين حق استغلال هذه الأراضي لمدد طويلة . وكان ثمة جانب آخر من الأراضي يملكه الأفراد ملكية خاصة ، ومنها الأراضي التي انتزعها الأباطرة من أصحابها الأصليين وباعوها لأشخاص آخرين ، والإقطاعات العسكرية التي تركها الأباطرة في حوزة أصحابها ولكنهم ظلوا يتقاضون منهم الضرائب عنها بانتظام ، والإقطاعات التي منحها الأباطرة لبعض المقربين إليهم أو لقدماء المحاربين من الرومان ، بيد أنهم لم يلبثوا أن انتزعوها منهم وأدمجوها في أملاكهم الخاصة فأصبحت تسمى « أراضي الضياع » . أما أراضي المعابد — وهي التي كانت تسمى « الأراضي المقدسة » — فقد انتزع الرومان من المعابد ما كان البطالمة قد منحوه لها منها . وأما أراضيها القديمة فقد استبقوها لها ولكنهم تولوا إدارتها بأنفسهم وفرضوا الضرائب عليها ولم يسمحوا للكهنة بأن يزرعوا إلا جزءاً يسيراً منها لسد حاجات المعابد من محصولها . وكان ثمة نوع من الأراضي يسمى « أراضي الدخل » وهي التي كانت قد انتقلت ملكيتها إلى الأباطرة لأسباب مختلفة ، فكانوا يؤجرونها كالأراضي الحكومية ، ولكنهم كانوا يتقاضون عنها إيجاراً باهظاً . وكان ثمة نوع آخر من الأراضي يسمى

« أراضى المدن » وهى التى كانت المدن قد ورثتها عن أصحابها الذين أوصوا لها بها أو ماتوا دون أن يتركوا نسلا . وكانت المدن تؤجر هذه الأراضى وتدفع الضرائب المستحقة عنها . وكان دخل الحكومة من الأراضى يتكون من إيجار ما تملكه منها ومن الضرائب المفروضة على الأنواع الأخرى ، وأهمها ضريبة الحبوب التى كانت عبارة عن نسبة من المحصول ، وكانت تدخل فى جزية الحبوب التى كان على مصر أن تسددها سنوياً لروما ، وتبلغ ستة ملايين أردب . أما البساتين فكان ينبغى سداد الضرائب المفروضة عليها نقداً . كما كان ثمة ضريبة على كل رأس من الماشية والدواب . ومن ثم فإن الأعباء التى كان الفلاحون المصريون يرزحون تحتها فى العصر اليونانى ظلت كما هى فى العصر الرومانى ، بل ازدادت أثقالها واشتدت وطأتها . فكانوا لا يملكون من أرض بلادهم شيئاً ، ومع ذلك يسقونها بعرقهم ودمهم ودموعهم .

وقد اقتفى الرومان أثر البطالمة فى احتكار بعض الصناعات والحرف كاستغلال المناجم والمحاجر واستخراج الملح والصودا . وكانوا يفرضون ضريبة على حق شراء الملح ، ويبيعون حق إنتاج الجعة ويفرضون ضريبة على استهلاكها ، ويبيحون الاشتغال بصناعة الزيت لمن يشاء على أن يدفع ضريبة على مزاولة هذه الصناعة وضريبة على ما تنتجه وضريبة على الترخيص ببيع هذا الذى تنتجه . وكانوا يجبون ضريبة على صناعة النسيج ويفرضون على المشتغلين بها فضلا عن ذلك أن يقوموا كل عام بتوريد قدر معين من النسيج اللازم لرجال الجيش والشرطة وغيرهم . كما كانوا يجبون ضريبة على صناعة الورق ، ويبيعون حق مزاولة صيد السمك . وكانت الحمامات العامة فى الوجه البحري ملكاً للأهالى فكانت الحكومة تجبى منهم ضريبة عنها تساوى ثلث أرباحها . أما فى الوجه القبلى

فكانت ملكاً للحكومة ولذلك كانت تجبي من الأهالى عن استعمالها ضريبة ثابتة . وبذلك ظلت الحكومة الرومانية قابضة فى يدها على حق مزاولة الصناعات والحرف المختلفة حتى لم يكن يتيسر لأحد أن يزاول أى صناعة أو حرفة إلا بترخيص منها ، أو نظير نسبة من الأرباح أو الدخل ، أو نظير مقابل ثابت أو فى بعض الحالات نظير كل ذلك مجتمعاً . وكان حتى الذين يتعلمون الصناعات والحرف يدفعون الضريبة المفروضة بمجرد أن يبلغوا سن الرشد . فلم يكن ثمة مورد من موارد الرزق إلا كانت الحكومة تقاسم صاحبه فيه وتفوز هي منه بأكبر نصيب .

وكما كانت الضرائب المفروضة على الزراعة والصناعة مورداً هاماً من موارد الحكومة الرومانية فى مصر ، كانت الضرائب المفروضة على التجارة كذلك من أهم هذه الموارد : فبالنسبة للتجارة الداخلية كان يتعين على كل من يبيع أى سلعة أن يحصل من الحكومة على ترخيص بذلك نظير رسوم معينة وأن يدفع للحكومة كذلك مبلغاً معيناً كل شهر أو كل سنة . أما إذا حصل على ترخيص باحتكار البيع فى منطقة معينة ، فكان عليه نظير ذلك تسديد ضرائب فادحة . وكان تبادل السلع بين مديرية وأخرى يقتضى دفع مقادير معينة من العوائد والرسوم . وبالنسبة للتجارة الخارجية كان على من يريد الاشتغال بها كذلك أن يحصل من الحكومة على ترخيص بذلك نظير رسوم معينة ، وأن يدفع لها ضريبة عن كل شحنة يقوم باستيرادها أو تصديرها . وقد كانت الحكومة تجنى من ذلك أرباحاً طائلة ، إذ كانت تجارة مصر الخارجية فى العصر الرومانى عظيمة الرواج ، وقد أصبحت الإسكندرية فى ذلك العصر أكبر مركز تجارى فى البحر الأبيض المتوسط ، إذ عمل الرومان على تنشيط التجارة بين مصر وسائر

أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، فقضوا على قراصنة البحار وخفضوا المكوس الباهظة التى كان البطالمة يفرضونها على الواردات الأجنبية ، ومن ثم ازدادت الواردات كما ازدادت الصادرات . وقد كان من أهم الواردات الأخشاب الجيدة والمعادن الثمينة ، وكان من أهم الصادرات محصولات مصر الزراعية كالحبوب والفواكه والزهور ، ومنتجاتها الصناعية ، كالمنسوجات والعقاقير والزجاج والورق . وقد استطاعت مصر بسبب انخفاض مستوى المعيشة وقلة تكاليف الانتاج أن تنافس محصولات ومنتجات كل بلاد البحر الأبيض المتوسط . ويروى استرابون أن مصر فى ذلك الحين كانت تحتكر كذلك التجارة مع بلاد الهند والصومال ، وكانت صادراتها إلى تلك البلاد وسائر بلاد الشرق تكاد أن تضارع صادراتها إلى بلاد البحر الأبيض المتوسط . فكان ذلك كله مورد ربح للرومان فى مصر لا ينقطع .

وفضلا عن الضرائب على المهن الزراعية والصناعية والتجارية ، كانت الحكومة تفرض سلسلة أخرى من الضرائب المختلفة : فكانت هناك « ضريبة الرأس » التى كانت تسرى على جميع القاطنين فى البلاد ماعدا الرومان وسكان المدن اليونانية وعلماء جامعة الأسكندرية والفائزين فى مباريات الحفلات الرياضية والدينية وبعض الكهنة وبعض موظفى الإدارة المحلية ، كالكاتب الملكي وكاتب المديرية وكاتب القرية . وكانت هذه الضريبة مفروضة — فيما عدا هذه الاستثناءات — على جميع الذكور من سن الرابعة عشرة إلى سن السبعين ، بيد أنها لم تكن مفروضة بنسبة واحدة فى كل أنحاء البلاد ، فقد كان مقدارها يختلف من مديرية إلى أخرى . وكانت هناك « ضريبة التاج » التى ترجع إلى عهد البطالمة . وقد استبقاها الرومان وظلوا يجبونها سنوياً بانتظام . كما كانت هناك ضريبة تفرضها

الحكومة على الأهالي جميعاً وتخصص إيرادها لإقامة المعابد والتماثيل الذهبية للامبراطور ، وضريبة أخرى تخصص إيرادها لاستضافة الامبراطور وحاشيته عند زيارته لمصر ، وكذلك لاستضافة الحاكم العام ومرافقيه عند طوافه بأنحاء البلاد . ولم يكن ذلك بالعبء الهين ، فقد كان أحياناً يؤدى إلى خراب البيوت ، وقد جاء فى إحدى الوثائق التى بقيت من ذلك العهد أنه لمناسبة زيارة الحاكم العام لمدينة هرموبوليس اقتضى الأمر تكليف اثنين وخمسين من أهالى تلك المدينة بتوفير الطعام اللازم له ولمرافقيه ، والعلف اللازم للدواب التى معهم طوال مدة إقامتهم . كما كان أهالي البلاد ملزمين بتوفير الطعام للجنود الرومان ، فكان الحاكم العام يحدد سنوياً كمية الحبوب التى يحتاج إليها أولئك الجنود ويأمر الأهالي بتقديمها إليهم ، كما كان يأمرهم باستضافة أولئك الجنود فى منازلهم وتوفير الحاجات اللازمة لهم . وكانت هناك ضريبة لتغطية نفقات الشرطة والخفر ، وضريبة على كل مايباع في الأسواق ، وضريبة على بيع العقارات ، وضريبة على الرهونات . وكانت هناك بعض ضرائب مفروضة علي طوائف معينة كاليهود وأرباب الإقطاعات وغيرهم . كما كانت هناك بعض ضرائب إضافية يجرى تحصيلها أحياناً لسد ما يتبين من العجز فى حصيلة الضرائب الأصلية . وقد استمرت الحكومة الرومانية فى انتهاج سياسة السخرة التى وضعها البطالمة من قبل فكانت تقوم بتسخير الأهالى المصريين فى تطهير الترع وصيانة الجسور وغير ذلك من الأعمال الشاقة التي كانت ولاريب تنطوى على ضريبة أفدح من كل الضرائب السابقة .

وقد جرى الرومان على جباية الضرائب بطريق الالتزام كما كان يحدث فى العصر اليونانى ، ثم بدأوا فى عهد طيباريوس يجبونها بواسطة موظفين مسئولين

عن أى عجز فى حصيلة الضرائب المكلفين بجبايتها ، ومن ثم استخدم أولئك الموظفون أشنع وأبشع وسائل العنف والعسف والتجبر والتنكيل التى يتصورها العقل فى فى جباية الضرائب من الأهالى . حتى لقد قال فيلون أنهم كانوا يحجزون على جثة الرجل الذى مات قبل أن يدفع الضرائب المستحقة عليه ليجبروا أهله على دفعها ، وكانوا إذا عجز رجل عن دفع الضرائب وهرب قبضوا على زوجته وأطفاله وألقوا بهم فى السجن وعذبوهم عذابا رهيباً حتى يعترفوا لهم بالمكان الذى هرب إليه . وقد لجأ كثير من العاجزين عن دفع الضرائب إلى المعابد يعتصمون بها أو إلى الصحارى يختفون فيها . حتى إذا تعذر على الحكومة تحصيل مستحقاتها بسبب فرار الأهالى أو فقرهم المدقع ، راحت تجبر بعض الناس إجباراً على الالتزام بجباية الضرائب وتحصيل الإيجارات . كما راحت تجبر الموجودين من أهل كل قرية على سداد الضرائب المستحقة على الذين فروا منها . ومن ثم تعرض المصريون من جراء تلك الضرائب الفادحة ووسائل جبايتها لكل ألوان الحرمان والهوان . وإذ كانوا فوق ذلك كله ملزمين بدفع جزية سنوية ضخمة لروما ، سقطوا صرعى الفاقة والبؤس . وقد طال بهم العذاب وأصابهم الخراب . حتى لقد خاف أباطرة الرومان أنفسهم من أن تؤدى سياستهم تلك إلى أن ينضب معين مصر فلا تعود قادرة على أن تغدق عليهم ما تغدقه من خير وفير . وقد لاحظ طيباريوس أن حاكم مصر أرسل إليه فى سنة من السنوات مقداراً من الضرائب أكثر من المقرر فكتب إليه قائلا « إننى أوفدتك لتجز صوف الشاة لا لتسلخ جلدها » . وسرعان ما ظهرت بالفعل آثار تلك السياسة الغاشمة التى انتهجها الرومان والتى أدت إلى خراب أكثر بلاد مصر . فقد ذكر فيلون أن بعض القرى قد هجرها أهلها جميعاً بسبب ما أنزله بهم جباة الضرائب من إرهاب وإرهاق . وثمة بردية تشتمل على تقرير كتبه

بعض جباة الضرائب الرومان في نحو عام ٦٠ بعد الميلاد يقولون فيه إنهم عجزوا عن تحصيل الضرائب من ستة قرى فى إقليم أرسينوى ، لأن أهلها تضاءل عددهم حتى لم يبق منهم غير أفراد قلائل ، أما الباقون فقد هربوا بعد أن ضاقت فى وجوههم سبل الرزق . كما أن ثمة منشوراً أصدره طيباريوس يوليوس إسكندر — وهو إبن أخت الفيلسوف اليهودى فيلون وكان قد ارتدّ عن دينه والتحق ضابطاً بالجيش الرومانى ، ثم عينه الإمبراطور حاكما عاماً لمصر فى المدة من عام ٦٦ إلى عام ٦٩ بعد الميلاد — وقد وردت فى ذلك المنشور وقائع تنطوى على مظالم خطيرة لحقت بالأهالى المصريين ، ومن ذلك أن الحكومة كانت تقسرهم قسراً على إستئجار الأراضى الحكومية وعلى التزام جباية الضرائب المقررة، وكانت تفرض عليهم ضرائب جديدة غير مشروعة ولا يستطيعون سدادها . ومن ذلك كذلك أن الحكومة كانت تشجع بعض الأدنياء على الوشاية بالأهالى ، والتبليغ عن كل من يعجز منهم عن دفع الضرائب لتطارده وتجبره بوسائلها الرهيبة على الدفع . ومن ثم فاض بالمصريين الكيل ، فلم يعودوا يكتفون بالهروب من قراهم أو اللجوء إلى معابدهم ، وإنما راحوا يشعلون نار الثورة ضد الرومان كما كانوا يفعلون من قبل ضد اليونان ، وضد كل غاصب لبلادهم فى كل زمان .

وقد يقول بعض المؤرخين إن الرومان قاموا بكثير من الإصلاحات فى مصر إذ مهدوا طرق المواصلات وأكثروا من قنوات الرى والصرف وشجعوا الزراعة والصناعة والتجارة وعملوا على كفالة الرخاء واستتباب السكينة والأمن . بيد أن ذلك كله لم يكن إلا بمثابة العناية بالشاة لذبحها . فلم تكن هذه الإصلاحات لصالح المصريين ، ولم يكن لهم الرخاء ولا السكينة ولا الأمن ، وإنما كان كل ذلك للرومان . وأما المصريون فقد أذاقهم الغاصبون كل ألوان العسف والخوف

والفقر والتشريد . وقد كان الرومان فى ذلك أسوأ من اليونان ، لأنة مهما كان اليونان قد استغلوا مصر واستولوا علي خيراتها فقد كانوا يحتفظون بهذه الخيرات داخل مصر ذاتها ، أما الرومان فكانوا يستولون على هذه الخيرات ثم يرسلونها إلى روما فيحرمون منها مصر حرماناً تاماً ، ويتركون أهلها جائعين ، فإذا أبدوا أى تذمر عاملوهم بكل قسوة ووحشية وأذلوهم كل إذلال . وفي ذلك يقول المؤرخ الروسى رستو فتزف « إن مصر إنتقلت بمجيء الحكام الرومان إلي عهد لا رحمة فيه » .

المبحث الثالث

النظام القضائى

أبقى الرومان فى بداية عهدهم على القوانين التى كانت مطبقة بمصر فى العصر اليونانى بالنسبة للمصريين واليونان ، وإن كانوا قد أدخلوا عليها من التغييرات مايتفق مع سيادتهم ومايتمشى مع سياستهم وأغراضهم . أما المواطنون الرومان الذين كانوا بمصرحاكمين أومقيمين فقد كانوا يخضعون للقانون الرومانى . بيد أن القوانين المحلية لم تلبث أن تأثرت شيئاً فشيئاً بالقانون الرومانى عن طريق تشريعات الأباطرة وقرارات الحكام وأحكام المحاكم التى كان يجرى تنفيذها فى مصر ، حتى أصبحت تتفق إلى حد كبير مع مبادىء هذا القانون .

وقد نتج عن إبقاء الرومان لكثير من أحكام القانون المدنى التى كانت سائدة فى مصر قبل مجيئهم أن اختلف التطبيق القانونى باختلاف الطوائف المتعددة ولاسيما بالنسبة للأحوال الشخصية . وإذ كان البطالمة قد أنزلوا المرأة المصرية من مكانتها المرموقة التى كانت تتمتع بها فى العصر الفرعونى وساووا بينها وبين المرأة اليونانية التى كانت مسلوبة الحرية ولامكانة لها فى المجتمع ، فقد ظلت المرأة المصرية فى العصر الرومانى كذلك مهملة متخلفة عديمة الأهلية أمام القانون . وقد

ظل الزواج عند المصريين زواجاً دينياً يتم بواسطة الكهنة ، بينما ظل عند اليونان زواجاً مدنياً لايتدخل الكهنة فى إتمامه ، وإنما يتم بتحرير عقد كانوا يسمونه أحياناً « عقد اتفاق » وأحيانا أخرى « عقد معاشرة » ولكنه فى الحالتين كان توثيقاً لنوع واحد من الزواج . أما الرومان فكان الزواج يتم لديهم بالمعاشرة الزوجية وتحرير عقد بالزواج وتسجيله فى سجلات خاصة تسمى « سجلات الزواج » .وكان لكل من الزوجين لدى المصريين واليونان والرومان على السواء حق الطلاق. وكان الطلاق يتم بمجرد انفصال الزوجين وتحريرهما وثيقة من صورتين يقرران فيها أنه لم يعد لأحدهما أى حقوق لدى الآخر ، وبذلك يكون لكل منهما الحق فى أن يعقد زواجاً جديداً . ولم يكن مسموحاً للرجل فى أى طائفة من الطوائف أن يتخذ أكثر من زوجة واحدة . إلا أنه كان مسموحاً لغير الرومان أن يتزوج الأخ أخته ، فلم تنقرض هذه العادة إلا بعد زمن طويل. وقد ظل الزواج ممنوعاً بين اليونان والمصريين فى المدن اليونانية ، وإن كان مباحاً فى غيرها من أنحاء البلاد . أما الزواج بين الرومان وغير الرومان فكان ممنوعاً منعاً قاطعاً ، وكان إذا تم يعتبر غير مشروع ، ويعتبر الأبناء الذين جاءوا عن طريقه ليسوا رومانيين ولايصح أن يحملوا أسماء رومانية . وكان القانون عند المصريين واليونان والرومان يفرق تفريقاً واضحاً بين الأحرار والعبيد . وكانت الحكومة تفرق فى المعاملة بين ثلاث فئات من العبيد ، وهم عبيد الأباطرة، وعبيد المعابد ، وعبيد الأفراد . وكان من حق المصريين واليونان والرومان أن يحرروا الوصايا . وكانت وصايا المصريين واليونان تحرر باليونانية ، بينما كانت وصايا الرومان تحرر باللاتينية ثم تترجم إلى اليونانية . وكانت وصايا الجنود الرومان وقدماء المحاربين تخضع لقواعد عسكرية خاصة . أما فى حالة عدم وجود وصية

فكان القانون المصرى يرتب الورثة فى طبقات تأتى فى مقدمتها طبقة الأبناء ، على أن ينال الإبن الأكبر نصيباً مضاعفاً ، ثم يتساوى بعد ذلك الأبناء الآخرون مع البنات فى أنصبتهم . وللأحفاد أن يحصلوا على نصيب أبيهم إذا توفى قبل جدهم. وكان القانون اليوناني يعطي الأبناء كذلك حق الأسبقية فى تركة آبائهم ، على أن تقسم الشركة بالتساوى بين الأبناء والبنات اللاتى لم يتزوجن بعد . أما إذا تزوجت يونانية من غير يوناني فلا يحق لأبنائها من هذا الزواج أن يرثوها بعد موتها . فاذا لم يكن ثمة أبناء أو أحفاد ينتقل الميراث إلى الزوج أو الزوجة ثم بعد ذلك إلى الوالد والوالدة . وكان القانون الرومانى يعطى حق الأسبقية في الميراث للأبناء ويقضى بتقسيم التركة بينهم بالتساوى .

أما فيما يتعلق بالأحول العينية فكان المصريون واليونان والرومان يتعاملون بمقتضي عقود مكتوبة أو اتفاقات شفوية . وكانت القاعدة القانونية فى حالة إنكار الالتزام الشفوى هي أن «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر» . وكان للمصريين حق تحرير العقود العرفية بواسطة الكهنة أو الكتبة العاديين . وكان لليونان أن أن يحرروا ما ألفوه من عقود الضمان كالرهن العقارى والرهن الحيازى والبيع الوفائي . كما كان لهم المطالبة بحبس المدين المماطل أو إلزامه بالغرامة . بل كان لهم أن ينصوا فى عقود الرهن على شرط كانت اللوائح لا تبيحه للرومان وهو تسليم عقود ملكية العين المرهونة إلى الدائن . ثم لم يلبث أن شاع النص على هذا الشرط فى عقود الرومان أنفسهم . وقد جعل الرومان سعر الفائدة السنوية ١٢ ٪ . مع النص فى العقد على أنه فى حالة عدم الوفاء فى الوقت المحدد يدفع المدين غرامة تساوى نصف الدين . وكان القانون يبيح تأليف شركات صناعية أو تجارية أو غير ذلك لمباشرة أعمال عامة أو خاصة بمقتض عقد مكتوب يحدد علاقة الشركاء فيما بينهم

وحقوق كل منهم وواجباته ، كما كان القانون يبيح تحرير عقود إيجار العقارات والسفن والعمال والعبيد والماشية وغير ذلك ، وسمح بالتأجير من الباطن إلا إذا نص العقد على غير ذلك . وكانت العقود لا تؤدى إلى انتقال الملكية أو الحيازة أو ضمان ما تتضمنه من الإلتزامات إلا إذا حررها الموظفون المختصون وأثبتوا مضمونها فى السجلات الخاصة بذلك مع تسديد الضريبة المقررة عليها .

وكان القانون الجنائى فى العصر الرومانى بمصر يفرق بين ثلاثة أنواع من الجرائم وهى الجرائم ضد الأشخاص وأموالهم ، والجرائم ضد الخزانة العامة ، والجرائم ضد الدولة . وقد كانت الجرائم التى ترتكب ضد الأشخاص وأموالهم تشمل القتل والاعتداء بالفعل أو القول أو الإشارة أو التهديد ، واستخدام القوة لتحقيق غرض معين ، والسرقة والغش والتدليس وإتلاف ممتلكات الغير . وكانت إقامة الدعوى بالنسبة لهذه الجرائم كلها من شأن المجنى عليه وأسرته ، إلا فى حالة وقوع هذه الجرائم على موظفين عموميين ، فكانت الدولة حينئذ هى التى تقيم الدعوى . أما الجرائم التى ترتكب ضد الخزانة العامة فكانت تشمل التزوير فى الأوراق الرسمية واختلاس الأموال العامة والسرقة من ممتلكات الدولة أو الأباطرة . وأما الجرائم التى ترتكب ضد الدولة فكانت تشمل الخيانة العظمى وإساءة استخدام الحقوق العامة وحيازة الأسلحة والجرائم الدينية التى كانت معروفة فى العصر اليونانى . وكانت الدولة هى التى تقيم الدعوى فى كل هذه الجرائم التى ترتكب ضد الخزانة العامة أو ضد الدولة . وقد أباح القانون توكيل المحامين للدفاع عن المتهمين فى أى نوع من هذه الأنواع من الجرائم .

وكان الحاكم العام فى العصر الرومانى هو رئيس السلطة القضائية وصاحب

الكاملة العليا فى كل قضايا البلاد ، وكان يملك وحده حق الحكم بالإعدام والأشغال الشاقة ومصادرة الممتلكات . ولم يكن ثمة سبيل إلى استئناف أحكامه إلا أمام الإمبراطور . وكان الحاكم العام يعقد مع اثنين من مساعديه محكمة عليا متنقلة ، تنظر بمدينة الإسكندرية قضايا مديريات غرب الدلتا خلال شهرى يونيو ويوليو من كل عام . وتنظر بمدينة بيلوزيون قضايا مديريات شرق الدلتا خلال شهرى يناير وفبراير ، ثم تنظر بمدينة منف قضايا مديريات مصر العليا والوسطى خلال شهرى مارس وأبريل . وكان يحدث أن ينتقل الحاكم العام على رأس هذه المحكمة فى بعض الأحيان إلى أماكن أخرى فى البلاد غير هذه إذا رأى داعياً لذلك . ولم يكن يقتصر فى هذه الجولات على النظر فى القضايا ، وإنما كان يشرف على غير ذلك من الشئون الإدارية والمالية ولاسيما مراجعة الدفاتر الحكومية والحسابات العامة بالمديريات . كما أنه كان أحياناً ينيب عنه قواد المديريات أو غيرهم من الموظفين المحليين فى نظر بعض القضايا . بيد أن السلطة القضائية ظلت مركزة فى يده تركيزاً شديداً ، فحتى القضايا التى كان يفوض غيره من مرؤوسيه ليحكموا فيها ، كان يمكن استئناف الأحكام الصادرة فيها بعد ذلك أمامه لينظرها بنفسه. وبذلك النظام المركزى الصارم كفل الرومان لأنفسهم الرقابة الكاملة على كل شئون البلاد ، فلم تكن تغيب عنهم فيها صغيرة أو كبيرة . ولذلك حكموها بيد من حديد ، وكبلوا عنقها بقيد لا يلين ولا ينكسر .

البحث الرابع

الحياة الاجتماعية

كان المجتمع المصرى فى العصر الرومانى يتألف من عدة طوائف متباينة الجنسيات متفاوتة الدرجات ، يأتى فى مقدمتها الرومان ثم اليونان ثم اليهود ثم يأتى المصريون فى أسفل الدرك فى آخر درجة وأقل مرتبة . وقد عمل الرومان على إبراز الفروق بين غيرهم من الطوائف إبرازاً يدفع بها إلى التنازع والتصارع وتبادل العداوة والنزوع الدائم إلى القتال ، حتى ينشغلوا جميعاً عما هم فيه من خضوع لعدوهم المشترك ويغفلوا عن العمل على كسر شوكته والخلاص من ربقته والتطلع إلى الحرية والاستقلال .

وكان الرومان أقل الطوائف عدداً ولكنهم كانوا هم الطبقة العليا فى البلاد ، وكانوا يؤلفون كبار الحكام وبعض الأثرياء من رجال الأعمال وبعض قدماء المحاربين الذين منحهم الأباطرة إقطاعات فى مصر فأقاموا بها . وكان أولئك جميعاً يتمتعون بكثير من الحقوق والامتيازات التى كان يتمتع بها المقدونيون فى العصر اليونانى . ولم يكونوا يخضعون إلا لسلطة الحاكم العام وحكام الأقسام الثلاثة التى كانت تتألف منها مصر ، فلم يكونوا يخضعون لمن هم أقل من أولئك مرتبة كقواد المديريات وغيرهم من كبار الموظفين . وكان الرومان جميعاً يظهرون فى مصر بمظهر السادة ويمارسون معتقداتهم وتقاليدهم الرومانية .

أما اليونان فكانوا يؤلفون طائفة كبيرة بعد أن تكاثر عددهم خلال العصر اليونانى الذى استمر فى مصر ثلاثة قرون كاملة ، وكان أغلبهم يعيشون فى المدن اليونانية ، بينما كان الباقون متفرقين فى المدن الأخرى وفى القرى ، وإن كانوا قد اعتادوا أن يؤلفوا داخل تلك المدن والقرى جاليات منظمة تنظيماً دقيقاً يتيح لهم كثيراً من الإمتيازات التى يتمتع بها سكان المدن اليونانية ، كما كانوا يؤلفون فى كل مكان يحلون به مراكز اجتماعية وثقافية ورياضية كانوا يسمونها الجيمنازيوم ، وكانوا يتخذونها وسيلة لاستمرار حضارتهم اليونانية وازدهارها.

وقد عمل الرومان على تركيز اليونان فى المدن اليونانية وفى عواصم المديريات ، وأسبغوا عليهم كثيراً من الإمتيازات الاجتماعية ، وأسندوا إليهم كثيراً من الوظائف الهامة ولا سيما فى المديريات ، وأعفوهم من كثير من الالتزامات التى وضعوها على عاتق المصريين ولا سيما ضريبة الرأس التى كانت وصمة للمصريين ورمزاً لعبوديتهم . وقد استبقى الرومان اللغة اليونانية باعتبارها اللغة الرسمية للبلاد فلم يستخدموا لغتهم اللاتينية إلا فى لوائح الجيش واللوائح المتعلقة بالقانون الرومانى . بيد أن اليونان بالرغم من هذه الامتيازات التى استبقاها لهم الرومان وميزوهم بها عن أهل البلاد الأصليين ، كرهوا الحكم الرومانى ، وأضمروا العداء للدولة الرومانية ، لأنهم لم ينسوا أنها أطاحت بسلطانهم فى مصر وفى كل أنحاء العالم ، وبعد أن كانوا هم الحاكمين أصبحوا محكومين ، وبعد أن كانت ثروة مصر كلها فى أيديهم أصبحوا لا ينالون إلا ما يتصدق به الرومان عليهم تصدقاً ، ومن ثم كانوا لا يفتأون ينقمون على الرومان علانية ، أو يتخذون من نقمتهم على اليهود ستاراً لنقمتهم على الرومان ، وقد تضمنت الأسفار المعروفة بأعمال الأسكندريين كثيراً من دلائل كراهيتهم لهم وأنباء تمردهم عليهم واستشهادهم فيما خاضوه من معارك

ضدهم . بيد أن اليونان مع ذلك واصلوا حياتهم الاجتماعية التي كانوا يألفونها ، وكان أغلبها يدور فى معاهد الجيمنازيوم حيث يمارسون كل أنواع النشاط الإجتماعى والثقافى والرياضى . وكانوا يوفرون لأنفسهم فى هذه المعاهد وغيرها كل عناصر الحياة البهيجة المرحة ، فكانوا يكثرون من الأعياد الدينية والاجتماعية كأعياد الآلهة وأعياد ميلاد الأباطرة وجلوسهم على العرش ، كما كانوا يكثرون من الأعياد الخاصة بالأفراد كأعياد ميلادهم وزواجهم وغير ذلك من المناسبات السعيدة فى حياتهم ، وكانوا يملأون كل أوقاتهم فضلا عن ذلك بالولائم والحفلات والاستعراضات والمهرجانات والمباريات الرياضية والروايات التمثيلية والمقطوعات الموسيقيةوالانطلاق إلىالحقول والحدائق يغنون ويرقصون مستمتعين بحياتهم إلى أقصى الحدود ، وقد توفرت لهم فى هذه الأرض الطيبة كل أسباب السعادة والنعيم .

وأما اليهود فكانوا يؤلفون فى مصر جالية كبيرة ، وكانوا ينتشرون فى كل أنحاء البلاد ، ولا سيما فى الأسكندرية . وكان البطالمة قد منحوهم من الامتيازات ما أدى إلى ازدهار حالهم وازدياد عددهم حتى لقد بلغوا المليون ، وكان منهم فى الأسكندرية وحدها أكثر من مائتى ألف . وقد استبقى الرومان لليهود كل الامتيازات التي اكتسبوها فى العصر اليونانى ، ولاسيما يهود الأسكندرية الذين كان البطالمة قد منحوهم قسطاً من الحكم الذاتى لم يمنحوه لأى جالية أخرى فى أى مدينة يونانية . وكان اليهود من جانبهم يتشبهون باليونان فيتثقفون بثقافتهم ويتكلمون بلغتهم ويتخذون أسماءهم وأزياءهم ، ولكنهم انقلبوا فى العصر الرومانى عليهم ، وراحوا يتملقون الرومان بدلا منهم . وكان يهود الأسكندرية كما يذكر فيلون يتألفون من عدة فئات تشمل أصحاب رؤوس الأموال والعاملين

بالنقل البحرى وأصحاب الحرف والصناعات وتجار التجزئة والمشتغلين بالزراعة فى الأراضى المحيطة بالأسكندرية . أما اليهود فى غير الأسكندرية من أنحاء القطر فكانوا يتألفون كذلك من عدة فئات تشمل أصحاب الأراضى والمشتغلين بالتجارة وأعمال النقل في النيل وفى موانى البحر الأحمر وأرباب المهن الوضيعة والعبيد . وكان بعض اليهود المقيمين بالقرى يشاركون المصريين فى مجتمعهم ويمارسون ذات الصناعات والحرف التى يمارسونها ، وقد تشبهوا بهم فى كثير من النواحى فأخذوا عنهم أسماءهم وأزياءهم وبعض عوائدهم حتى لقد راح بعضهم يحنطون جثث موتاهم كما كان يفعل المصريون ، إلا أن أغلبهم احتفظوا بمعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم وحرصوا على عدم الاختلاط بالمصريين حتى لقد كانوا فى بعض المدن يتخذون لأنفسهم أحياء مستقلة يقيمون فيها كما فعلوا فى إدفو وأرسينوى وأوكسيرنيخوس . وعلى الرغم من أن الرومان أظهروا عطفهم على اليهود إذ احتفظوا لهم بامتيازاتهم القديمة ، فإن اليهود كانوا ينقمون عليهم لأنهم جعلوهم فى مرتبة أقل من اليونان ولا سيما فى الأسكندرية حيث رفضوا اعتبارهم من مواطنيها كاليونان ، كما فرضوا عليهم ضريبة الرأس التى أعفوا اليونان منها ، ولم يتصدوا لحمايتهم من اعتداء اليونان عليهم ، بيد أن اليهود رغم أنهم كانوا يضمرون العداوة للرومان كانوا يتظاهرون بمحبتهم ، وكانوا فى دخيلتهم ينزعون إلي التمرد عليهم ومع ذلك يبدون لهم الولاء والخضوع .

وأما المصريون أصحاب البلاد فكانوا أقل الطبقات مرتبة وأصغرها مكانة ، فلم يكونوا فى نظر الرومان ، كما لم يكونوا فى نظر اليونان من قبلهم ، إلا طبقة من العبيد الذين لا حقوق لهم ولا حرية ولا كرامة ، وإنما عليهم نحو سادتهم واجب الطاعة والخضوع . وقد ظل الكهنة فى العصر الرومانى ، كما كانوا فى كل العصور ،

هم زعماء المصريين وموضع تبجيلهم وأصحاب النفوذ فيهم ، ومن ثم عمل الرومان على إذلالهم وكسر شوكتهم فوضعوهم تحت سيطرتهم وجردوهم من الأموال والأملاك التى كانت تحت أيديهم ، وانتزعوا ملكية جانب من أراضى معابدهم وتولوا بأنفسهم إدارة ما استبقوه منها ، وأنقصوا عدد المعابد التى كانت تتمتع بحق حماية اللاجئين إليها . وبعد أن أعفوا عدداً من الكهنة فى أول الأمر من ضريبة الرأس عادوا فحصروا هذا العدد فى أضيق نطاق . وكان الكهنة المصريون قد احتفظوا حتى ذلك العهد بثقافتهم القديمة التى كانوا يحرصون عليها ويتوارثونها . ولا ريب أنهم أضافوا إليها منذ العصر اليونانى قسطاً من الثقافة اليونانية وإن كانوا لم يسمحوا لهذه الثقافة أن تؤثر فى معتقداتهم الثابتة وتقاليدهم الراسخة وهكذا أمكن للرومان أن ينتقصوا من ثروة الكهنة المصريين ونفوذهم ، ولكنهم لم يمكنهم أن ينتقصوا من علمهم أو ينالوا من عقيدتهم . وكانت تلى طبقة الكهنة فى المكانة فى المجتمع المصرى طبقة أصحاب الأراضى التى كانت لا تتعدى أقلية ضئيلة جداً من المصريين الذين كانوا فى العصر اليونانى قد تشبهوا باليونان وتزاوجوا معهم واكتسبوا بعض الثراء عن طريق تقربهم إليهم . بيد أن اصطباغهم بالصبغة اليونانية لم يؤد إلى أى امتياز لهم فى العصر الرومانى لأن الرومان لم يساووهم بمواطنى المدن اليونانية ، ولا حتى بمواطنى عواصم المديريات ، وإنما اعتبروهم مجرد مصريين يجب عليهم ما يجب على سائر المصريين من التزامات وتبعات ، بل لعلهم أصبحوا أتعس حظاً من سائر المصريين ، إذ أن الرومان لم يكتفوا بأن يتقاضوا منهم ما عليهم من الضرائب كغيرهم ، وإنما كانوا يفرضون عليهم فوق ذلك زراعة الأراضى التى هجرها مستأجروها وأداء الضرائب المفروضة عليها . فضلا عن أنهم كانوا

يقسرونهم قسراً على تولى بعض الوظائف المحلية بسبب ثرائهم وإلمامهم باللغة اليونانية ، حتى إذا تبين أى عجز في حصيلة الضرائب أوغيرها من الاستحقاقات ألزموهم بأن يؤدوا ذلك العجز من أموالهم . وقد كان يدخل فى هذه الطبقة من المصريين ذوى الأملاك بعض قدماء المحاربين المصريين الذين كانوا قد اكتسبوا بعض المكانة فى أواخر العصر اليونانى ، وقد منحهم البطالمة إقطاعات من الأراضى يملكونها ملكية خاصة . بيد أن أولئك لم يلبثوا أن اندثروا فى العصر الرومانى ، لأن الرومان لم يسمحوا للمصريين بأن يكونوا محاربين أو ينخرطوا على الاطلاق فى سلك الجيش ، وقد اعتبروا فى ذلك بما حدث للبطالمة حين اعتمدوا على المصريين فى موقعة رفح ، وما أدى إليه انتصار المصريين فى تلك الموقعة من انتعاش الروح القومية فى البلاد واندلاع لهيب الثورة ضد البطالمة .

أما فيما عدا طبقة الكهنة وهذه الطبقة القليلة العدد من الأثرياء ، فقد كان المصريون جميعاً يتمرغون فى الهوان والبؤس ، ويشكلون الطبقة الكادحة الكافحة التى تكسب رزقها بشق النفس ، وكان أغلبهم يشتغلون بالزراعة ، والباقون يمارسون مختلف الحرف والصناعات ، وقد فرض الرومان عليهم جميعاً أداء ضريبة الرأس كاملة ، كما فرضوا عليهم كل ما سبق أن ذكرناه من ضرائب والتزامات أخرى ، وأخضعوهم لكل ألوان المذلة والهوان ، عاملين على خنق حريتهم وقتل قوميتهم ، حتى لقد منعوهم من استعمال لغتهم المصرية القديمة وهى اللغة الديموطيقية حتى فى العقود الخاصة التى يحررونها فيما بينهم ، وألزموهم باستخدام اللغة الرسمية للبلاد وهى اللغة اليونانية فى كل شئونهم ومعاملاتهم .

بيد أن المصريين لم يستكينوا أو يستسلموا لهذا الطغيان ، فكما سبق أن ثاروا في وجه اليونان ثاروا كذلك في وجه الرومان ، ولم تمض بضعة أشهر على الغزو

الجديد حتى كانت مصر بركاناً يغلى بالثورة ضد الغزاة ، ولا سيما فى طيبة التى سرعان ما رفعت لواء العصيان على الرومان غير مكترثة بجيوشهم الضخمة ، وأباطرتهم الطغاة ، وأساليبهم الوحشية فى إخضاع الشعوب . وقد راح الثائرون يوجهون ضربات عنيفة للقوات التى حشدها ضدهم أول حاكم رومانى لمصر وهو كورنيليوس جاللوس ، وقد أرهقوا ذلك الحاكم إرهاقاً شديداً فكان يطارد بعضهم إلى أقصى الجنوب ، ثم لا يلبث أن يعود مسرعاً لمطاردة البعض الآخر فى أقصى الشمال . وهكذا ظل المصريون طوال العصر الرومانى لا يخضعون للرومان ولا يخنعون لطغيانهم ، وإنما يواجهون سلطانهم بالتمرد والثورة ، ويتغلبون على وحشيتهم بالصبر وقوة الاحتمال .

وليس أبلغ فى الدلالة على سوء الحكم الذى أقامه الرومان فى مصر من أنه أغضب جميع الطوائف التى كانت تقيم بها ، فلم يصادف قبولا لدى اليونان ولا اليهود ولا المصريين على السواء ، لأنه كان حكماً ظالماً لا يعرف العدل ، غاشماً لا يعرف الرحمة ، قائماً على شريعة القوة والقسوة والقسر والاعتداء .

البحث الخامس

العقائد الدينية

كان الرومان قوماً لا يتمسكون بدينهم ولا يتعصبون له ولا يعملون على الدعوة إليه فى البلاد التى يغزونها ، وإنما كان كل ما ينصرف إليه اهتمامهم هو إخضاع تلك البلاد بالقوة والقسر ، واستعباد أبنائها واستغلال مواردها ، فإذا تحقق لهم ذلك تركوا كل بلد يتخذ من الديانات ماشاء مادام ذلك لا يتعارض مع خضوعها لهم واستسلامها لمشيئتهم . وهذا ما فعلوه فى مصر فى بداية عهدهم ، فقد تركوا أهل البلاد من مصريين ويونان ويهود يمارسون المعتقدات الدينية الخاصة بكل طائفة منهم ، وإن كانوا قد ألزموهم جميعاً بعبادة الأباطرة الرومان إلى جانب آلهتهم . كما أنهم أتوا معهم بآلهتهم الرومانية إلى مصر وشيدوا لهم معابد فيها ، ولكنهم لم يفرضوا على أهل البلاد عبادة تلك الآلهة أو ممارسة الطقوس فى تلك المعابد .

وقد بقى المصريون فى بداية العصر الرومانى متمسكين بعقائدهم الدينية ، وإن كانت هذه العقائد قد ابتعدت مع الزمن عن أسسها الأصيلة ومبادئها الجليلة . فبعد أن كان المصريون فى عهدهم القديم يعبدون الله الواحد ويتخذون له رموزاً تمثل ذاته وصفاته ، أصبحوا فى هذا العهد لا يعبدون الله وإنما يعبدون تلك الرموز ذاتها ، أى أنهم أصبحوا يعبدون الأصنام ، كما أنهم أصبحوا

يمارسون السحر ويؤمنون بالخرافات ويلجأون إلى الأحجبة والتعاويذ والرقى .
وإذ كان المصريون يقدسون فراعنتهم تقديساً دينياً ، أى يضفون عليهم الصبغة الإلهية ، فقد استغل الرومان ذلك فكان كل منهم يعتبر نفسه فرعون مصر ويتخذ ألقاب الفراعنة ، وينقش صورته على جدران المعابد الجديدة فى هيأتهم ويتشبه بهم فى تشييد المعابد الجديدة للآلهة المصرية أو ترميم المعابد القديمة أو إضافة صروح أخرى إليها . وكان الرومان فى البداية ينظرون إلى المعتقدات الدينية للمصريين نظرة احتقار وازدراء ، وينظرون الى آلهتهم نظرة سخرية واستخفاف . بيد أنهم لم يلبثوا أن افتتنوا بما فى معتقداتهم من أسرار وما يكتنف آلهتهم من أساطير ، ومن ثم راحوا يشاركون رعاياهم المغلوبين على أمرهم فى اعتناق تلك المعتقدات ، وفى عبادة تلك الآلهة وتقديم القرابين إليها . وقد نقشوا صورة الآلهة المصرية على النقود . بل إنهم أقاموا لها المعابد والتماثيل فى روما ذاتها . ولكنهم مع ذلك حرصوا — كما فعل البطالمة من قبل — على الحد من سلطات الكهنة المصريين ، إذ كان لهم على الشعب المصرى نفوذ عظيم ، وكانوا على الدوام هم زعماء الثورات الشعبية ضد الغزاة والغاصبين من كل جنس . ومن ثم أقاموا على أولئك الكهنة موظفاً رومانياً يرأسهم ويشرف عليهم ويراقب كل حركاتهم وتصرفاتهم ، ورغم أنه لم يكن كاهناً فقد كانوا يسمونه « رئيس كهنة الإسكندرية وسائر مصر » ، كما أنهم إنتزعوا جانباً كبيراً من الأراضى التى كانت مملوكة للمعابد المصرية وتولوا إدارة ما تبقى لتلك المعابد منها ، وحرموا كثيراً من المعابد من حق حماية اللاجئين إليها ، وحددوا لكل معبد عدداً معيناً من الكهنة لا يتعداه ، وفرضوا على الزائدين عن هذا العدد ضريبة الرأس المفروضة على سائر المصريين . وبذلك سلبوا الكهنة أغلب مواردهم وامتيازاتهم وجعلوهم

تحت رحمتهم ، فوضعوا بذلك حول أعناقهم الطوق الذى وضعـوه حول أعناق المصريين جميعاً .

وقد احتفظ اليونان المقيمون بمصر فى العصر الرومانى كذلك بمعتقداتهم الدينية القديمة وكانوا يقيمون شعائرها فى كل أنحاء البلاد ولا سيما فى المدن الأخرى التى تضم أعداداً كبيرة منهم مثل أرسينوى وهرموبوليس وأوكسيرنيخوس . بيد أن عدداً كبيراً من أولئك اليونان قد اعتنقوا الديانة المصرية ، فـكانوا يعبدون الآلهة المصرية إلى جانب الآلهة اليونانية ، أو يعبدون الآلهة المصرية بعد أن يدمجوها فى الآلهة اليونانية ، أو يعبدون الآلهة المصرية وحدها . ولم يلبثوا أن اقتبسوا كل معتقدات المصريين واتخذوا كل عاداتهم وتقاليدهم حتى أصبحوا مع الزمن جزءاً منهم .

وأما اليهود فقد احتفظوا كذلك بمعتقداتهم الدينية وكانوا يمارسونها فى معابدهم التى أقاموها بكل أنحاء البلاد ، وكان لهم معبد كبير فى ليونتوبوليس ، يشبه فى عمارته هيكل أورشليم . وكان اليهود منعزلين بمعتقداتهم عن كل الطوائف الأخرى فلم يتأثروا بمعتقدات المصريين أو اليونان أو الرومان ، وإنما كانوا يعتبرون هذه الطوائف من الأمم ، أى الشعوب التى لم يقع عليها اختيار الله كما وقع على الشعب اليهودى ، ولذلك فهى فى نظرهم كافرة ونجسة ومغضوب عليها من الله ، ولا يصح أن تتعامل معهم باعتبارهم شعب الله المختار . ولذلك ظلوا كارهين للجميع ، ومكروهين من الجميع .

ولم يلبث أن ظهر فى مصر كوكب جديد أضاءها بفيض من النور ، وأشعل فيها أتوناً من النار ، وجعلها ساحة للاضطهاد والجهاد والاستشهاد ، وغمرها ببهاء

الإيمان ودموع الغفران ودماء الشهداء . وذلك هو الدين المسيحى الذى انبثق من فلسطين فى عهد طيباريوس ، وجاء مرقس الرسول إلى مصر ليبشر به فى عهد نيرون . فكان بالنسبة للديانات الأخرى التى سبقته كالشمس التى تشرق فتبدد الظلام ، وتبعث فى العالم الحرارة والحيوية والحياة .

البحث السادس

الحياة الثقافية

كانت الحياة الثقافية بمصر في العصر الروماني استمراراً للحياة الثقافية بها في العصر اليوناني ، فقد ظلت الثقافة اليونانية هي السائدة في البلاد ، وظلت الصفوة المتعلمة مقبلة على نتاج الفكر اليوناني تستوعبه وتحاول أن تنسج على منواله . كما ظلت الإسكندرية هي كعبة الشعراء والأدباء والفلاسفة والعلماء في كل أنحاء العالم ، فكانت جموعهم لاتفتأ تفد إليها لتنهل من مواردها وتلتحق بجامعتها العظيمة وتنتفع بمكتبتها الكبرى .

وقد استمر نشاط جامعة الإسكندرية في كل المجالات الأدبية والعلمية ، واستمرت الدولة تتكفل بنفقات أساتذتها ، وتدفع لهم المرتبات السخية ، ليواصلوا أداء رسالتهم الثقافية . وقد أضاف الإمبراطور كلوديوس إلى مبنى الجامعة ملحقاً يحمل اسمه ويجرى فيه تدريس المؤلفات التاريخية التي وضعها ذلك الإمبراطور . وقد أنجبت الجامعة في العصر الروماني كثيراً من الفلاسفة والأدباء والعلماء من أمثال فيلون وتاتيوس وبطليموس وأثينايوس وأفلوطين وغيرهم ممن اكتسبوا شهرة عالمية ، وظل ذكرهم خالداً في التاريخ .

وقد عمل الرومان على تدعيم المكتبة الكبرى التي كانت ملحقة بجامعة

الإسكندرية ، وتزويدها بأعداد ضخمة من الكتب والأسفار التى نهبوها من مكتبات البلاد الأخرى . ومن ذلك أن أنطونيوس أهدى إلى هذه المكتبة مائتى ألف مجلد جاء بها من مكتبة برجاموم إرضاء لكليوبترا ، كما عمل الرومان على تدعيم المكتبة الصغرى التى كانت ملحقة بمعبد السيرابيوم ، فضلا عن أنهم أنشأوا مكتبة أخري ألحقوها بمعبد قيصر ، واقتفوا أثر البطالمة فى تعيين أمناء لهذه المكتبات للإشراف عليها وتنسيقها ، كما أنهم كلفوا بعض العلماء بتحقيق النصوص الأدبية التى تشتمل عليها والتعليق عليها ونقدها ، وكان من أبرز أولئك العلماء فيلوكسينوس الذى ذاعت شهرته فى عهد طيباريوس ، حتى لقد دعاه هذا الإمبراطور للتدريس فى روما ، وبامفيلوس الذى جمع مجلدات ضخمة من النصوص الأدبية التى أصبحت منهلا عذباً للأدباء فى العصور التالية ، وأرستونيكوس الذى تخصص فى دراسة أشعار هوميروس وقام بالتعليق عليها ، وأبيون الذى تخصص كذلك فى دراسة أشعار هوميروس ووضع لها معجماً وافياً ، وثيون الذى وضع معجماً للتراجيديا والدراما والكوميديا . وهكذا أصبحت مكتبات الإسكندرية بما فيها من علماء عاكفين على دراسة كتبها أشهر مركز من مراكز الثقافة اليونانية فى العالم .

وقد كانت الإسكندرية فى العصر اليونانى تحتل مكان الصدارة فى الشعر ، وكان شعراؤها أكثر شعراء العالم بلاغة ونبوغاً . بين أنها فى العصر الرومانى فقدت هذه المكانة ولم يعد بها من الشعراء البارزين أحد يمكن مقارنته بشعرائها السابقين من أمثال كالياخوس وأبولونيوس وثيوكريتوس وهيرونداس ، وإنما ظهر بها بعض الشعراء المتواضعين الذين حافظوا على تقاليد الشعر الأسكندرى فكانوا يتوخون الابتعاد عن الخوض فى الشئون السياسية ، وقصروا

جهودهم على تمجيد الآلهة القديمة وتصوير المشاعر الانسانية والإشادة بالحياة البريئة البسيطة ، والتأمل فى المجالات العلمية والفلسفية ، بيد أنهم لم يكونوا شعراء مطبوعين ، وإنما كانوا يصطنعون الشعر اصطناعاً ويتكلفونه تكلفاً . ومن ثم لم يكن لهم أي تأثير فى معاصريهم الذين كانوا شغوفين بالشعر الجيد فكانوا لا يفوتهم أثر من آثار هوميروس وهزيود وكاليماخوس وبنداروس وسافو ، كما كانوا لا تفوتهم مسرحية من مسرحيات سوفوكليس وأيسخيلوس ويوريبيدس وأرستوفانس وغيرهم من كبار الشعراء الملحميين والغنائيين والمسرحيين اليونان ، وقد راجت حينذاك الكتب التى تتضمن آثار أولئك الشعراء فى كل أنحاء مصر ولاسيما فى الإسكندرية وعواصم المديريات وقد عثر الباحثون على كثير مما بقي منها إلى اليوم ولاسيما فى مكان مدينة أوكسيرنيخوس — وهى مدينة البهنسا الحالية — وكانت عاصمة إحدى مديريات مصر الوسطى فى العصر الرومانى .

وكانت الأسكندرية فى العصر اليونانى قد خلفت أثينا كمركز للفلسفة . فلما جاء العصر الرومانى تابعت مدارسها الفلسفية القديمة نشاطها السابق . بيد أن المدرسة التى احتلت مكان الصدارة فى هذا العصر هى الفيثاغورية الجديدة ، وهى مزيج من الفيثاغورية القديمة والأفلاطونية والرواقية وبعض المعتقدات الدينية التى كانت شائعة حينذاك . وكان مؤسس هذه المدرسة في الإسكندرية هو الفليسوف اليهودى فيلون . وقد مزج هذا الفليسوف بين الأفكار الفلسفية والعقائد الدينية ، فشرح الأحداث الواردة فى التوراة شرحاً رمزياً يجعلها أقرب إلى الفلسفة منها إلى الدين . ولم يكن يعرف اللغة العبرية فكان يقرأ التوراة باللغة اليونانية ويشرحها كما كان اليونان يشرحون هوميروس . وكانت الفكرة الأساسية عند فيلون هى أن الله قد خلق العالم ، وهو يشمله بعنايته ، ولكنه

بعيد عن كل ما يدركه العقل بحيث لا يمكن للإنسان أن يعلم عنه شيئاً ، ومن ثم فكل ما ورد فى التوراة من صفات الله يجب تفسيره على هذا الاعتبار . أما عناية الله فليست مباشرة وإنما تحدث عن طريق وسطاء ، فلا يمكن للنفس أن تصل إلى الله إلا عن طريق وسطاء كذلك . والوسيط الأول هو « اللوغوس » أو الكلمة ابن الله نموذج العالم ، ويليه الحكمة ، ثم آدم ، ثم الملائكة ، ثم روح الله ، ثم القوات التى تقوم بتنفيذ الأوامر الإلهية . فالسبيل إلى وصول النفس إلى الله هى أن تداوم على الزهد والعبادة كي تصعد بذلك من وسيط إلى وسيط على قدر ما نالت من طهارة حتى تصل إلى الوسيط الأول وهو « كلمة الله » . ولا يبدأ هذا الصعود إلا حين يدرك الإنسان بطلان الماديات وزوالها ، حتى إذا وصل فى صعوده الدائم إلى كلمة الله لا يقنع بذلك وإنما هو يتطلع لأن يصل إلى الله ذاته ويتحد به اتحاداً كاملاً . فمعرفة الانسان لله عن طريق العالم درجة ، ومعرفة الله عن طريق الوسيط درجة أرقى ، أما معرفة الله عن طريق الاتحاد به فتلك هي أرقى الدرجات وغاية الغايات . وكان فيلون يشرح مذهبه هذا بالاستناد إلى آيات التوراة ومذاهب الفلسفة على السواء . فيذكر مثلا أن كلمة الله هو ابن الله الذى يشفع للناس عنده كما جاء فى التوراة ، وهو النموذج الذى خلق الله العالم على مقتضاه كما يقول أفلاطون . والقوات هى الملائكة التى جاء فى التوراة أنها تنفذ أوامر الله ، وهى الروابط التى قال الرواقيون أنها تجمع بين الأشياء وتعمل على توحيدها . وهكذا خلط فيلون بين الدين والفلسفة وشرح كلا منهما على ضوء الآخر . فكان له تأثير عظيم فى رجال الدين ورجال الفلسفة جميعاً . وقد كانت له الزعامة على اليهود فى عصره ، فاتخذوه سفيراً لهم يرفع شكواهم من اليونان إلى الامبراطور في روما ، فلم يلبث أن أصبح من أبرز

الزعماء فى تاريخ اليهود ومن أبرز الفلاسفة في التاريخ كله .

وقد نبغ بالأسكندرية فى ذلك العصر بعض المؤرخين من أمثال بطليموس خيمنوس الذى وضع كتاب « التاريخ الجديد » ، وأبيانوس الذى وضع كتاب « التاريخ الرومانى » بيد أن أولئك المؤرخين لم يكونوا يتوخون الحقيقة فيما يكتبون بقدر ما كانوا يتوخون طرافة الحوادث وغرابتها ومن ثم كانوا فى الغالب يختلقونها اختلاقاً .

وقـــد ظلت الإسكندرية محتفظة بمكانتها العلمية ولا سيما فى الطب والفلك والرياضيات . فقد بلغ من شهرتها فى الطب أنه — كما ذكر أميانوس ماركينوس — كان يكفى الطبيب ليبرهن على مهارته أن يقول أنه تعلم فى الإسكندرية . وقد كان الراغبون فى دراسة الطب يفدون إلى الإسكندرية من كل أنحاء العالم ليتلقوا هـذا العلم على أساتذته الكبار ولا سيما من أتباع المدرسة التجريبية التى نشأت منذ عهد البطالمة . ويعطينا كلسوس فى كتابه عن الطب صورة شاملة عن هـذا العلم بالاسكندرية فى بداية العصر الرومانى ، وقد وضعه فى ثمانية أجزاء ، وخصص الجزأين الأول والثاني لعلم الأمراض والقواعد العامة للعلاج ، والجزأين الثالث والرابع للأمراض الداخلية والجزأين الخامس والسادس للأمراض الخارجية ، والجزأين السابع والثامن للجراحة ، وقد عقد في هذا الكتاب مقارنة بين المدرسة النظرية والمدرسة التجريبية فى الطب ، وذكر أن أطباء الإسكندرية ابتدعوا عددا من الأجهزة الطبية التى كانوا يستخدمونها فى الجراحة ، والتى أصبح كل منها معروفاً باسم مبتدعه ، وكان أكثرها لتجبير الكسور وخياطة الأغشية الداخلية . كما اشتهرت الإسكندرية فى هذا العصر بالدراسات الفلكية حتى أنجبت بعد ذلك أعظم الفلكيين فى العصور القديمة وهو كلوديوس بطليموس . وكذلك

اشتهرت بالرياضيات ، فكان من أساتذة الحساب ديوفانتوس الذى خطا بهذا العلم خطوات واسعة نحو الجبر ، وكان من أساتذة الهندسة والميكانيكا منيلاوس وسيرينيوس وبابوس وهيرون الذى ظلت كتبه تدرس فى المعاهد عدة قرون وقد وصل إلينا منها عدد كبير باللاتينية أو اليونانية ، وقد تابع هذا العالم أبحاث أرشيميدس وإقليدس فابتدع وسائل جديدة للإحصاء ومسح الأرض ورفع الأثقال واستخدام البخار وإطفاء الحريق وغير ذلك من مطالب الحياة المديدة .

وكان التعليم فى ذلك العصر منتشراً بين الأثرياء وأبناء الطبقة الوسطى ولا سيما فى الإسكندرية والمدن اليونانية الأخرى وعواصم المديريات . وكانت أكثر المدارس داخلة فى نطاق معاهد « الجيمنازيوم » اليونانية ، وقد كانت هذه المعاهد تهتم بتربية الجسم والعقل معاً ، فكانت تربية الجسم تتضمن الألعاب الرياضية والتدريبات العسكرية. وكانت تربية العقل تتضمن مراحل ثلاث ، هى بمثابة التعليم الإبتدائى والتعليم الثانوى والتعليم العالى . فكان التعليم الإبتدائى يشمل التدريب على القراءة والكتابة ودراسة النحو والأدب والحساب وبعض أشعار هوميروس . وكان التعليم الثانوى يشمل مزيداً من النحو والأدب كما يشمل البلاغة والفلسفة والرياضيات وقدراً أكبر من أشعار هوميروس فضلا عن بعض القصص والأساطير اليونانية والمسرحيات التراجيدية والكوميدية . وكان التعليم العالى قاصراً على جامعة الإسكندرية ، وكان يشمل دراسات متعمقه فى الآداب والعلوم والفنون ، كالشعر الملحمى والغنائى والمسرحى والفلسفة والتاريخ والجغرافيا والخطابة والطب والفلك والهندسة والحساب والجبر والطبيعة والكيميا وعلم الحيوان وعلم النبات والرسم والحفر والتمثيل وغير ذلك من نواحى الثقافة المتعددة ، ولم يكن التعليم قاصراً على المدارس والمعاهد ، وإنما كان يتولاه فضلا عن ذلك مدرسون خصوصيون

يتمتعون بمكانة علمية مرموقة ، ويفد إليهم التلاميذ من كل أنحاء مصر والبلاد الأخرى . ولما كان التعليم غير متاح إلا للأثرياء وأصحاب الثروات المتوسطة ، لم يكن منتشراً إلا بين اليونان وبعض اليهود المتشبعين بالثقافة اليونانية . وأما المصريون فكانت الأغلبية العظمى منهم تعانى الفقر والحرمان ، ومن ثم لم يكن يمكن إلا لعدد قليل منهم أن يرسلوا أبناءهم ليتلقوا التعليم الإبتدائي فى مدارس المعابد ، ولم يكن يمكن إلا فى النادر لبعض أولئك أن يرسلوا أبناءهم بعد ذلك ليتموا تعليمهم بالمدارس الثانوية فى عواصم المديريات أو بالمدارس العليا فى الإسكندرية . وقد تعمد الرومان حرمان المصريين من التعليم كما تعمدوا حرمانهم من كل الامتيازات الأخرى ، بينما تركوا باب التعليم مفتوحاً لليونان واليهود . بيد أن المصريين ظلوا مع ذلك محتفظين بثقافتهم الدينية التى كان الكهنة يتوارثونها ويحافظون عليها . كما أنه كان لا يفتأ يظهر من بين المصريين بعض النوابغ الذين واصلوا رغم الفقر تعليمهم حتى أصبحوا من أشهر علماء التاريخ ، ولا سيما بعد أن دخلت المسيحية مصر فى عصر نيرون ، وقامت الجامعة المسيحية فى الاسكندرية إلى جانب الجامعة اليونانية ، فكان علماؤها المصريون أساتذة لعلماء العالم أجمع .

البحث السابع

الفنـــون

استمرت الفنون بمصر فى العصر الرومانى محتفظة بطابعها الذي كانت عليه في العصر اليونانى ، وإن كانت آثار الفن الرومانى قد أضيفت إلى آثار الفنيين اليونانى والمصرى ولا سيما فى العمارة والنحت .

وكانت أهم آثار العمارة فى ذلك العصر هى المعابد والمنشآت العامة والمنازل والمقابر . وقد كان طراز معابد الإسكندرية رومانياً أو يونانياً أو مصرياً . بيد أن كل طراز من هذه كان يشتمل أحياناً على بعض عناصر الطرازين الآخرين . أما المعابد المصرية في كل أنحاء القطر الأخرى ، فقد ظلت محتفظة بطابعها المصرى الصميم فى طرازها وفى عناصرها ؛ فلم تظهر فيها أى تأثيرات أجنبية . وحتى المعابد المصرية الجديدة التى أنشأها الرومان والمعابد المصرية القديمة التى أضافوا إليها أو زخرفوها ظلت محتفظة كذلك بالطابع المصرى الخالص ، ملتزمة تقاليد الفن الفرعونى القديم . ويتمثل ذلك بوضوح فى معابد إسنا ودندرة وكوم امبو وقفط وفيلة وغيرها . وقد نحت الأباطرة صورهم على جدران هذه المعابد فى هيئة الفراعنة وأزيائهم وأوضاعهم التقليدية وهم يقدمون القرابين للآلهة المصرية . وقد أقام الرومان

فى كثير من أنحاء مصر منشآت عامة غير المعابد كالمسارح والحمامات والبوابات والأقواس ومبانى الجيمنازيوم . وكانت هذه المنشآت كلها من الطراز الرومانى الخالص فى تصميمها وتخطيطها وعمارتها وزخرفتها ، فكان يكثر فيها استخدام الأعمدة الكورنثية . وفى حين كانت المنازل تقام عادة باللبن ، كانت هذه المنشآت تقام بالحجر ، وكثيراً ما كانت تقام — ولا سيما فى الاسكندرية — بالرخام المستورد من الخارج . وكان الرومان يبنون منازلهم على الطراز الرومانى ، بينما كان اليونان يبنون منازلهم على الطراز اليونانى ، وإن كان بعضهم ممن تشبهوا بالرومان بنوا منازلهم على طراز المنازل الرومانية ، وبعضهم الآخر ممن اختلطوا بالمصريين بنوا منازلهم على طراز المنازل المصرية ، وزينوها بزخارف يونانية . وأما المصريون فقد ظلوا محتفظين على الدوام بالطراز المصرى الخالص فى بناء منازلهم وإن كان بعضهم ممن تشبهوا باليونان زينوا منازلهم بزخارف يونانية . وقد كان الرومان فى ذلك العصر يبنون مقابرهم على الطراز الرومانى ، بينما استمر اليونان يبنون مقابرهم — كما كانو يفعلون فى العصر اليونانى — على شكل حفرة منحوتة فى الصخر أو فى باطن الأرض ، أو مبنية تحت سطح الأرض وقد اشتملت على فتحات أو توابيت من الحجر تشبه الأرائك . بيد أن المقابر الرومانية واليونانية على السواء كانت كثيراً ماتشتمل على بعض الزخارف المصرية. وأما المصريون فقد احتفظوا بمقابرهم التقليدية كما احتفظوا بطريقتهم التقليدية فى الدفن وإقامة الشعائر الجنائزية ، وقد استمروا يحنطون جثث موتاهم ، وإن كان بعض المصريين المتشبهين باليونان قد درجوا على إقامة مقابر تختلط فيها العناصر المصرية والعناصر اليونانية اختلاطاً واضحاً ، كما درجوا على تقاليد اليونان فى طريقة الدفن .

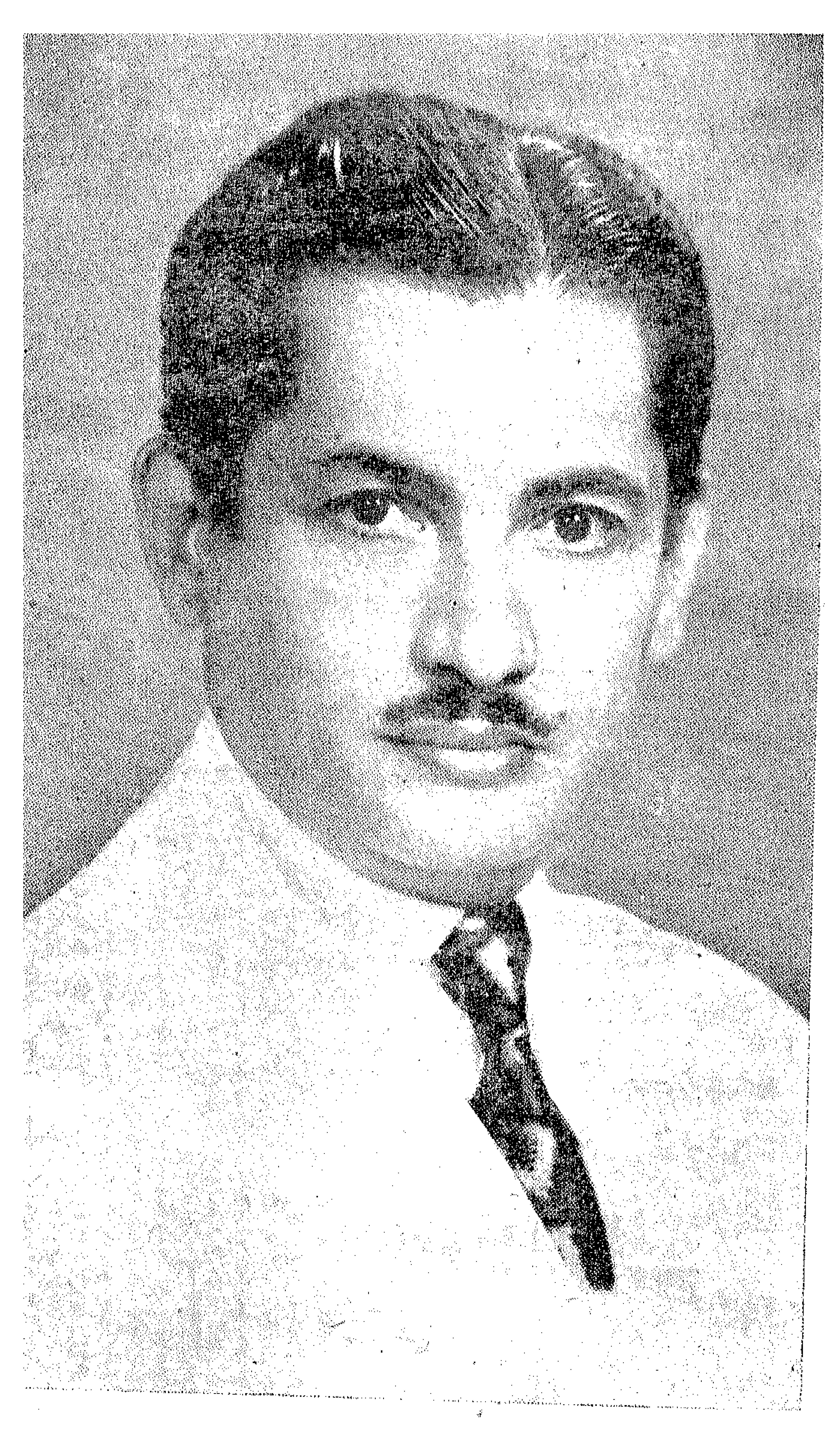


« تمثال فتاة من العصر الرومانى »

أما النحت فقد تأثر بما ساد العالم الروماني في ذلك العصر من نزعة قوية إلى جعل التماثيل مشابهة كل المشابهة لأصحابها ، ومن ثم وجد فنانو الإسكندرية فى هذه النزعة مجالا واسعاً للإجادة والإبداع ، وإن كانوا قد حافظوا على الطراز اليونانى البحت ، وقد برعوا على الخصوص فى صناعة التماثيل من الرخام والمرمر وغيرهما من الصخور الثمينة ، كما برعوا فى رسم صور بالألوان على لوحات مغطاة بطبقة من الشمع ، كانت تزين منازل أصحابها أثناء حياتهم ، حتى إذا ماتوا تصبح غطاء لوجوههم . أما المصريون فقد حافظوا على تقاليدهم الفنية العريقة ، واستمروا فى هذا العصر ينحتون التماثيل ونصب الموتى وينقشون جدران المعابد بذات الطريقة التى كان ينتهجها أسلافهم منذ أقدم العصور . بيد أنه حين ازداد اختلاط اليونان بالمصريين لم يلبث فن النحت أن جمع بين الطرازين اليونانى والمصرى . ولاريب أن التماثيل التى اجتمع فيها هذان الطرازان كانت أقل فى قيمتها الفنية من التماثيل ذات الطراز اليونانى البحت أو ذات الطراز المصرى البحت ، إلا أنها مع ذلك قد ازداد عددها مع الزمن ، حتى طغت على غيرها وأصبحت هى المرحلة التمهيدية لظهور الفن القبطى بعد انتشار المسيحية فى مصر . وقد كانت أغلب النقود التى سبكها الرومان للتعامل بها فى مصر ذات طابع يونانى خالص فى طرازها وعناصرها . بيد أن بعضها تختلف فيه العناصر وإن لم يختلف الطراز . فكان يتضمن أحياناً صورة إله مصرى أو معبد مصرى أو تاج مصرى ، وقد اتجه بعض الفنانين إلى صناعة تماثيل الآلهة المصرية فى طراز يونانى ، أو صناعة تماثيل الأباطرة الرومان في طراز مصرى ، أو صناعة التماثيل اليونانية أو الرومانية من أنواع من الحجارة يألفها الفن المصرى ولا يألفها الفن اليونانى أو الرومانى كالجرانيت والسماق. فكان اختلاط العناصر فى هذه التماثيل دون اختلاط الطراز

دليلاً على التأثر بالبيئة الأجنبية دون التأثر بالحضارة الأجنبية . ومن ثم ظل كل من الفن الرومانى والفن اليونانى والفن المصرى قائماً بذاته مستقلا بطابعه ومقوماته، فلم يتأثر أحد هذه الأنواع من الفن بالآخر إلا فى التفاصيل ، ولم يمتزج أحدها بالآخر امتزاجاً كاملا إلا فى القليل ، بل النادر الذى لايؤثر فى الأصل ولايغير الأساس . وهكذا نجد أن الفن المصري القديم ظل فى جوهره محتفظاً بكيانه محافظاً على قواعده وتقاليده منذ فجر التاريخ حتى العصر الرومانى ، فكان بذلك مظهراً ورمزاً لعراقة الشعب المصرى وأصالته وصلابته وصموده أمام المحن والأحداث والأحزان ، مهما مال الحظ ومهما طال الزمان .

« تم الجزء السادس »



الأستاذ زكي شنوده

مراجع الكتاب

١ — موسوعة تاريخ العالم . تأليف وليم لانجر . ترجمة الأساتذة محمد محمود الصياد ومحمد مصطفى الأمير ومحمد سليم سالم وإبراهيم نصحى ومحمد عواد حسين وزكى على ؛

٢ — معالم تاريخ الإنسانية . تأليف هـ . ج . ويلز . ترجمة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد .

٣ — موجز تاريخ العالم . تأليف هـ . ج . ويلز . ترجمة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد .

٤ — قصة الحضارة « المجلد الثالث » . تأليف ول ديورانت . ترجمة الأستاذ محمد بدران .

٥ — تاريخ الإمبراطورية الرومانية الإجتماعى والاقتصادي . تأليف م . روستوفزيف . ترجمة الأستاذين زكى على ومحمد سليم سالم .

٦ — القانون الرومانى تأليف الدكتور محمد عبد المنعم بدر .

٧ — تاريخ الحضارة المصرية « المجلد الثانى » . تأليف الأساتذة أمين الخولى ومحمد مصطفى زيادة وإبراهيم نصحى ومراد كامل وحسين مؤنس وجمال الدين الشيال ومحمد عبد العزيز مرزوق .

٨ — لمحات من الدراسات المصرية القديمة . تأليف الدكتور باهور لبيب .

٩ — مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى تأليف سير هارولد إدريس بل . ترجمة الدكتور زكى على .

١٠ — جولات فى رحاب التاريخ . تأليف الدكتور حسين فوزى .

١١ — على هامش التاريخ المصرى القديم تأليف الأستاذ عبد القادر حمزة .

١٢ — مجموعة مجلة عين شمس المرحوم إقلاديوس بك لبيب .

١٣ — مجموعة مجلة الشرق والغرب .

14 — Roman History, by Appian.

15 — History of the Roman Empire, by Bury.

16 — History of the Roman People, by V. Dusuy.

17 — A History of the Decline and Fall of the Roman Empire, by E, Gibbon.

18 — Companion to Roman History, by H. Jones.

19 — History of the Romans under the Empire, by C. Merivale.

20 — The Roman Empire, by M. P. Charlesworth.

21 — The Provinces of the Roman Empire, by T. Mommsen.

22 — The Geographic Background of Greek and Roman History, by M. Cary.

23 — Rome by H. Vogelstein.

24 — History of Rome, by Dio Cassius.

25 — History of Rome, by W. Smith.

26 — History of Rome, by T. Livy.

27 — History of Rome, by T. Mommsen.

28 — Ancient Rome, by P. Lanciani.

29 — Greatness and Decline of Rome, by G. Ferrero.

30 — Why Rome Fell by E.L. White.

31 — The Common People of Ancient Rome, by Abbot.

32 — Roman Political Institutions, by L. Homo.

33 — Language and Character of Roman people, by O. Weise.

34 — Ancient Rome at Work, by Louis Paul.

35 — Municipalities of the Roman Empire, by J. Reid.

36 — Roman Imperialism, by T. Frank.

37 — The Roman Revolution, by R. Syme.

38 — Rome the Law—Giver, by J. Declaseuil.

39 — Elements of Roman Law, by Gaius.

40 — The Civil Law of Rome, by S.P. Scott.

41 — Text Book of Roman Law, by Buckland.

42 — Roman Life and Manners under Roman Empire, by L. Friedlander.

43 — The New Deal in Old Rome, by H. Haskell.

44 — Social and Economic History of the Roman Empire, by M. Rostovtzeff.

45 — Economic Survey of Ancient Rome, by T. Frank.

46 — Economic History of Rome, by T. Frank.

47 — Influence of Wealth in Imperial Rome, by W. S. Davis.

48 — Social Life at Rome, by W. W. Fowler.

49 — Augustus, by Buchan.

50 — Life and Principate of the Emperor Nero, by B. Henderson.

51 — History of Twenty Caesars, by Herodian.

52 — Roman Women, by Brittain.

53 — The Conflict of Religions in the Early Roman Empire, by T.R. Glover.

54 — Oriental Religions in Roman Paganism, by W. C. Cumont.

55 — Encyclopedia of Religion and Ethics, by J. Hastings.

56 — Literary History of Rome, by J. Duff.

57 — Seneca the Philosopher, by Gummere.

58 — Life of Marcus Tullius Cicero, by C. Middleton.

59 — Cicero and the Roman Republic, by E. R. Cowell.

60 — Lucretius and his Influence, by G. Madzsits.

61 — Roman Engineering by A. Gest.

62 — The Architect of the Roman Empire, by T. R. Holmes.

63 — Life and Letters in Roman Africa, by Bouchier.

64 — The Geography of the Meditteranean Region, its relation to Ancient History by, E. C. Semple.

65 — The Mediterranean in the Ancient World, by J. H. Rose.

66 — The Mediterranean in the Ancient World, by R. J. Holland.

67 — The Discovery of the Ancient World, by H. F. Buston.

68 — The Ancient Empires of the East, by Syce.

69 — From the Stone Age to Christianity, by Anchor.

70 — A History of Egypt under the Roman rule, by J. G. Milne.

71 — Roman Egypt from Augustus to Dicletian, by H. I. Bell.

72 — The Roman Exploitation of Egypt in the First Century, by M. Rostovtzeff.

73 — The Ruin of Egypt by Roman Mismanagement, by J. G. Milne.

74 — Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest, by Bell.

75 — The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, by Breasted.

76 — Rome et Pompeü, par Boissier.

77 — La Religion Romaine, par Boissier.

78 — L'Afrique Romaine par Boissier.

79 — Le Peuples de l'Orient Méditerranéen, par Drioton et Vandier.

80 — L'Egypte Romaine, par Hoklwein.

81 — La Domination Romaine en Egypte aux deux premières siècles après Jésus-Christ, par P. Jouguet.

82 — La Vie Municipale dans l'Egypte Romaine, par P. Jouguet.

83 — L'Armée Romaine d'Egypte d'Auguste à Diocletien, par J. Lesquier.

84 — Monuments de l'Egypte Gréco-Romaine, par Breccia.

85 — Histoire Economique et Sociale de l'Ancienne Egypte, par Dyckmans.

86 — Histoire de la civilisation Egyptienne, par Jaquier.

87 — Histoire de l aNation Egyptienne, par Hanotaux.

فهـــرســـ

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

مطابع البلاغ
٢٦ شارع منصور ت ٣٢٩٣٦
القاهرة


ص
٥٠